الفتوحات الإسلامية
بين الآل والأصحاب
حقائق وشبهات

د. أحمد سيد أحمد علي

الباحث بمركز البحوث والدراسات بالمبرة

فهرسة

مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

٩٥٣,٠٢ علي ،أحمد سيدأحمد.

الفتوحات الإسلامية بين الآل والأصحاب : حقائق وشبهات، د/ أحمد سيد أحمد علي . - ط١ .

الكويت: مبرة الآل والأصحاب، ٢٠١٠ .

٢٢٨ ص؛ ٢٤ سم. (سلسلة قضايا التوعية الإسلامية ؛ ١٣)

ردمك: ١-٠-٦٧٣-٩٩٩٠٦-٩٧٨

١- الصحابة والتابعون ٢- المهاجرون والأنصار ٣- عصر الجهاد في سبيل نشر الدعوة

أ. العنوان ب. السلسلة

رقم الإيداع: ٢٠١٠ /٢٥٢

ت. ردمك: ١-٠-٦٧٣-٩٩٩٠٦-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ / ٢٠١١م

مبرة الآل والأصحاب

هاتف: ٢٢٥٦٠٢٠٣ - ٢٢٥٥٢٣٤٠ فاكس: ٢٢٥٦٠٣٤٦

ص. ب: ١٢٤٢١ الشامية الرمز البريدي ٧١٦٥٥ الكويت

E-mail: almabarrh@gmail.com

www.almabarrah.net

إهداء

إليك يا سيدي يا رسول اللَّه ﷺ

اعترافاً بحبك، وإقراراً بفضلك، واعتزازاً بالانتساب إلى رسالتك، وطلباً لشفاعتك يوم الحساب.

ثم إلى كل داعية مسلم

أراد البناء وتحمَّل المشاق والعناء؛ فقرأ ومحَّص، ونصح وأخلص، وعلَّم ودرَّس، وابتُلي فصبر، وعُرضت عليه المغريات فما ألان قناته ولا هجر... لا سيما أولئك الأبرار الذين عملوا بالليل والنهار واغتنموا الأوقات والأعمار وتحمَّلوا المشاق والأخطار وفاضت أرواحهم إلى باريها العلي الغفار.

لكل مَن سبق أهدي هذا البحث راجياً من اللَّه القبول وتحصيل المأمول فهو أكرم مسئول.

الفهرس


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد للَّه رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن العلاقة بين آل البيت والصحابة علاقة فريدة، تسودها المحبة وتكتنفها الرحمة في كل فصل من فصولها وهذه مسألة واضحة للعيان لا يجادل فيها إلا مَن في قلبه مرض ودخَل، وتبرز معالم تلك العلاقة القوية في الأسماء والمصاهرات بين آل البيت والصحابة، وكذا الثناء المتبادل بينهم، وهي أمور لا تقبل النزاع، وواضحة في كتب من ينتمي إلى الإسلام على اختلاف مذاهبهم وتنوع مشاربهم.

وكان كذلك من معالم وملامح العلاقة الطيبة بين الآل والأصحاب الفتوحات الإسلامية التي خاضها آل البيت والصحابة جنباً إلى جنب لإعلاء كلمة اللَّه والدفاع عن دينه، وبذل الغالي والنفيس في سبيل تحقيق هذا الهدف العظيم، حتى امتزجت دماؤهم المباركة على ثرى أرض المعارك الإسلامية كل يفدي صاحبه بدمه ونفسه.

فكانت الفتوحات الإسلامية- التي خاضها المسلمون الفاتحون، والتي قامت على أكتاف الخلفاء الراشدين وبسواعد المجاهدين المسلمين من الآل والأصحاب ومَن جاء بعدهم- بحقٍ مفخرة من مفاخر التاريخ، ودرة على جبين كل مسلم.

فكانت مشاركة الآل والأصحاب في الفتوحات الإسلامية من أصدق الدلائل وأوضح المعالم على تلك العلاقة القوية التي كانت بينهم، وإلا فلم كانت هذه النفرة القوية والجماعية التي صدرت من الآل والأصحاب والتي قطعوا فيها الأميال الطوال مثقلين بالأحمال تاركين الأهل والعيال؟ أتراهم دخلوا المعارك وكل منهم يتمنى الموت لصاحبه؟ أهذه أخلاق جيش يُمكَّن له وينتصر في بلاد لم يألفها وسهول لم يعرفها؟ أهذا أمر يُعقل فضلًا عن أن يستقر ويُقبل؟

لقد خرج المسلمون إلى فتوحاتهم بقلوب يملؤها الحب وبأجواء تسيطر عليها المودة والرحمة، حاملين معهم عقيدتهم بدافع إرادة الخير للبشرية جميعاً، عن طريق هدايتهم إلى الإسلام بعد إزالة كافة الحواجز والعوائق والأسوار التي تحول دون تحقيق هذا الهدف العظيم، فكانت النتيجة أن انهالت الشعوب على اعتناق هذا الدين، فكانت نصرتهم في فتوحاتهم رغم قلة عددهم وعُدَّتهم وكذا نجاحهم في إيصال دعوة ربهم إلى العالمين دليلًا على العلاقة الطيبة التي سادت أجواءهم وأُترعت بها قلوبهم؛ لأنه لا يُمكَّن لجيش تسود الأحقاد والضغائن بين أفراده، ولا يمكن أن ينتصر على هذا الحال أبداً، ولو فُرض انتصاره مرة أو اثنتين فلن يكون هذا دأبه وديدنه، فكانت الانتصارات من دلائل طيب العلاقات، فسلامة النهايات فرع عن صحة البدايات.

إلا أن جماعة استولى الحقد عليها وهالها أمر الفتوحات وما آلت إليه من دخول الناس في دين اللَّه أفواجاً لما علموه من تعاليم الإسلام ولما رأوه من أخلاق الفاتحين، فأخذوا ينالون من الفتوحات الإسلامية قدحاً وتشويهاً، وهم جماعة المستشرقين وأذنابهم ومن والاهم ممن ينتمي إلى الإسلام

وللأسف، فأعدوا العدة، وجهزوا الجيوش من كتب وكتيبات وصحف ومجلات، وكذبوا وافتروا وتنمروا واعتدوا وحاولوا جاهدين وصم الفتوحات الإسلامية بالدموية، وأنها عملت على نشر الإسلام بالقوة وحدِّ السيف، وإرجاع الفتوحات الإسلامية إلى دوافع غير دينية، معللين إياها بدوافع اقتصادية ومصالح شخصية خاصة بالفاتحين وقادتهم. وهذا ما سنتناوله بالعرض والتحليل والنقد والرد في بعض صفحات هذا البحث المتواضع.

ومما ينبغي إيضاحه في هذه المقدمة هو أننا سنعنى هنا بالفتوحات التي شارك فيها الآل والأصحاب ونصَّ المؤرخون على أسمائهم، أي أن معتمدنا ومبلغ اهتمامنا هنا هو نصُّ المؤرخين وأصحاب السير على أسماء من حضر الفتح من آل البيت والصحابة، وإلا فإن كثيراً من الفتوحات شارك فيها الآل والأصحاب، وتحديداً فتوحات الخلافة الراشدة فجلها إن لم يكن كلها شارك فيه الآل مع الأصحاب، ولكن معتمدنا الفتوحات التي نصَّ فيها المؤرخون على أسماء آحاد آل البيت والصحابة، باعتبارها شاهداً على العلاقة الطيبة التي سادت بينهم.

كما أن البداية الزمنية لمدار بحثنا تبدأ بأول فتحٍ أو معركة بعد وفاة النبي ﷺ، والنهاية الزمنية ترتبط بوقت وفاة آخر صحابيٍ[١] أو بآخر فتح اشترك

---

(١) اختلف العلماء في تحديد آخر من مات من الصحابة فقيل: أنس بن مالك وتوفي سنة ٩٣ هـ على أصح الأقوال، وقيل: أبو الطفيل عامر بن واثلة وتوفي سنة مئة، وقيل: ١٠٧هـ، وقيل: ١١٠هـ. ورجحه الذهبي. قال ابن الأثير في ترجمته (أسد الغابة: ١/ ١٢٠١) وهو آخر مَن مات ممن أدرك النبي ﷺ (راجع: تذكرة الحفاظ للذهبي: ١/ ٤٤-٤٥، شذرات الذهب لابن العماد: ١/ ٩٢)، سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٧٠).

فيه الآل مع الأصحاب؛ وذلك لأن خطّ الصحبة له وقت زمني محدد لا يتعداه، بخلاف خطّ الآل فهو مستمر إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها.

هذا وليس قصدنا استقصاء جميع موارد مشاركة الآل مع الأصحاب في الفتوحات، وكذا كل الشبهات التي لحقت بالفتوحات فهذا أمر دونه خرط القتاد، وإنما تكفينا الدلالة، فرب إشارة أبلغ من عبارة.

هذا وأسأل المولى جل وعلا أن يتقبل هذا العمل المتواضع، وينفع به، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله في ميزان حسنات كاتبه ووالديه مِن قبله وشيخته وكذا إخوانه وأهله.

كما أسأله تبارك وتعالى أن يجزي عني الإخوة في مبرة الآل والأصحاب خير الجزاء، وأن لا يحرمهم الأجر والثواب وأن يحوطهم برضاه، وأن ييسر بالخير أعمالهم وبالطاعات سبيلهم، فهم من كلَّف وأعان، ومن تابع وراجع، ومن يسَّر واستبشر، إنه ولي ذلك ومولاه والقادر عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين.

د/ أحمد سيد أحمد علي أحمد

تمهيد
دراسة تاريخ الآل والأصحاب أهميةً وأهدافاً

قبل الخوض في غمار البحث لا بد من بيان بعض المصطلحات التي تدخل في نطاق بحثنا وذات صلة وثيقة به، بل لا غنى عنها، فهي منه بمثابة المقدمات التي تسبق النتائج، وهي كالتالي:

أولًا: تعريف مصطلح (الآل):

التعريف اللغوي:

قال صاحب مقاييس اللغة «الهمزة والهاء واللام أصلان متباعدان أحدهما الأهل. وقال الخليل: أهل الرجل زوجه، والتأهل التزوج، وأهل الرجل أخصُّ الناس به، وأهل البيت سكانه، وأهل الإسلام من يدين به»[(١)].

وفي لسان العرب: «آل الرجل أهله، وآل اللّه وآل رسوله أولياؤه، أصلها «أهل» ثم أُبدلت الهاء همزة، فصار في التقدير«أأل»، فلما توالت الهمزتان أبدلوا الثانية ألفاً»[(٢)].

وعليه فأهل الشيء هم أخصُّ الناس به، كما أن لفظ أهل يدل فى حقيقته على صلةٍ وثيقةٍ بينه وبين ما يضاف إليه.

---

(١) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة (١ / ١٥٠).
(٢) لسان العرب (١١/ ٣١)، ونحوه عن الأصفهاني في المفردات في غريب القرآن: (ص٣٠).

التعريف الاصطلاحي:

تعددت تعاريف العلماء في بيان المراد من آل البيت وأشهر هذه التعاريف وأرجحها هو:

آل البيت هم: الذين حرِّمت عليهم الصدقة وهم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس ويلحق بهم بنو هاشم، وبه قال الجمهور(١).

وهذا هو القول الراجح(٢)، مع إضافة أزواج النبي ﷺ فإنهن وإن لم يكنَّ من آل بيت النبي ﷺ بالأصالة إلا أنهن منه قطعاً بالتبعية(٣).

وجاء في الدرر السنية: والصحيح أن آل محمد هم أهل بيته، وهذا هو المنقول عن الشافعي وأحمد... كما أن الصحيح أن أزواجه من آله(٤).

ثانياً: تعريف مصطلح (الصحابة).

التعريف اللغوي:

ورد في مفردات الراغب: أن الصَّاحِبَ: الملازم إنساناً كان أو حيواناً أو مكاناً أو زماناً، ولا فرق بين أن تكون مصاحبته بالبدن - وهو الأصل و الأكثر - أو بالعناية والهمة.... و لا يقال في العرف إلا لمن كثرت

---

(١) راجع: حاشية ابن عابدين (رد المحتار على الدر المختار) (١/ ١٤)

(٢) انظر في بيان تعاريف العلماء لآل البيت: الإنصاف للمرداوي (٢/ ٤٣٨) - أحكام القرآن لابن العربي: (٣/ ٦٢٣) - شرح صحيح مسلم: (٤/ ٣٦٨).

(٣) جلاء الأفهام: ابن القيم، (ص٣٣١ - ٣٣٣).

(٤) انظر: الدرر السنية: علماء نجد، ١/ ٢١٢ تحقيق: عبد الرحمن قاسم، ط٦ سنة ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

ملازمته، و يقال للمالك للشيء: هو صاحبه، وكذلك لمن يملك التصرف فيه[١].

ومن خلال النظر إلى ما سبق وغيرها من معاجم اللغة يتبين لنا أن مدلول الصحابي في اللغة العربية يشمل عدة معان من أهمها:-

- الملازمة والمخالطة والمعاشرة، فكل من لازم شيئاً استصحبه.
- الانقياد والتبعية.
- الحفظ والمنع.

وهذه كلها أمور تفيد شدة المحبة بين الأصحاب وشدة متابعة وملاصقة أحدهما لصاحبه[٢].

التعريف الشرعي:

تعددت أقوال العلماء في تحديد المصطلح الشرعي للفظ «الصحابي»، ومنشأ هذا التعدد راجع إلى ما يجب مراعاته في المعني الاصطلاحي، هل يراعي فيه المعني اللغوي أو المعني العرفي؟

---

(١) المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، (ص٢٧٥). المكتبة التوفيقية، القاهرة، بدون تاريخ.

(٢) راجع في بيان المعنى اللغوي لمادة صحب ومشتقاتها: المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، (ص٢٧٥). المكتبة التوفيقية، القاهرة، بدون تاريخ.
- تاج العروس من جواهر القاموس، السيد محمد مرتضي الزبيدي، (١/ ٣٣٢، ٣٣٣). ط١: المطبعة الخيرية، القاهرة، سنة ١٣٠٦ هـ.
- الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري(ص٣٠٢).
- الصحاح في اللغة: الجوهري (١/ ٣٨٠).

وخلاصة الأقوال في تعريف الصحابي:

أنه كل مسلم رأى رسول اللَّه ﷺ و لو لحظة و مات على الإسلام.

هذا هو الصحيح في حدِّه، وهو مذهب أحمد بن حنبل، و أبي عبد اللَّه البخاري في صحيحه و المحدثين كافة، قاله النووي(١).

ومال إلى هذا الرأي الحافظ ابن حجر حيث عرَّف الصحابي بقوله: وأصحُّ ما وقفت عليه من ذلك أن الصحابي من لقي النبي ﷺ مؤمناً به ومات على ذلك(٢).

ولا بد هنا من بيان شيء وهو أن إطلاق لفظ الصحابة يدخل فيه قطعاً مَن آمن من آل بيت النبي ﷺ وانطبقت عليه شروط الصحبة الواردة في تعريف الصحابي، فمن هذا حاله فقد ازداد شرفا بعد شرف، الأول هو شرف الصحبة والثاني هو شرف النسب.

ثالثاً: التاريخ في اللغة والاصطلاح:

المفهوم اللغوي:

من يتتبع مادة التاريخ ومشتقاتها في معاجم اللغة يجد أنها تدور حول معنى الإعلام بالوقت ففي الصحاح: التأريخ تعريف الوقت(٣).

---

(١) شرح النووي علي صحيح مسلم: (١/٣٦).
(٢) الإصابة: ابن حجر (١/٩) - وانظر: نخبة الفكر، ابن حجر (٢١).
(٣) الصحاح: الجوهري (١/٤١٨). وانظر: لسان العرب (٣/٤).

المفهوم الاصطلاحي:

يعرف السخاوي التاريخ بأنه: التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال، من مولد الرواة والأئمة ووفاة وصحة، وعقل وبدن، ورحلة وحج، وحفظ وضبط، وتوثيق وتجريح، وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم. . .- إلى قوله- والحاصل: أنه فن يبحث عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت(١).

وعليه فالتاريخ هو: جملة الأحوال والأحداث البشرية التي جرت، وهذه اللفظة تطلق ويراد بها شيئان أو أحدهما: فتارة تستعمل ويراد بها مضمون ومحتوى المادة التاريخية، وتارة أخرى تستعمل ويراد بها طريقة التعامل مع هذه المادة.

رابعاً: أهمية دراسة التاريخ:

التاريخ بعامة والإسلامي منه بخاصة هو: سجل الأمم الصادق وديوانها القائم ومرآتها الناصعة التي تعكس ماضيها وتترجم حاضرها وتستلهم من خلاله مستقبلها، كما أنه مثير نهضة الأمم ومنقذها من كبواتها وعثراتها، وهو ذاكرة الجنس البشري ومستودع تجاربه ومخزن أسراره وخفاياه، وما من أمة إلا وتحرص على تدوين ما وقع لها من حوادث، خيراً كانت أو شراً.

لذا كان من الأهمية بمكان الاهتمام به، والحفاظ عليه، ونقله إلى الأجيال نقلًا صادقاً صحيحاً، بحيث يكون نبراساً وهادياً لهم في حاضرهم ومستقبلهم.

وتاريخنا الإسلامي هو كنز من كنوز البشرية، والتي لا قوام لها إلا به،

(١) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ: السخاوي (ص١٧).

فهو في مجمله تاريخ حافل بالقيم والمبادئ والفضائل التي حملت نور الهداية للعالم أجمع، فأخرجته من الظلمات إلى النور، ومن عصبية الجاهلية إلى تسامح الإسلام.

ويتميز تاريخ الأمة الإسلامية بمميزات كثيرة منها أنه « تاريخ عقيدة ونظام حياة شامل.. وهو الوثيقة الصحيحة على نجاح الإسلام كمنهج حياة صالح لكل زمان ومكان، والتاريخ الإسلامي هو تاريخ تطبيق الشريعة الإسلامية التطبيق الواقعي، وهو تاريخ الأمم والشعوب التي كانت تعيش بالإسلام وعلى الإسلام، وكل انحراف عن الطريق السوي أصاب هذا التاريخ كان نتيجة للانحراف عن تلك الشريعة الربانية»(١).

إن المسلمين إذا أرادوا مجداً ونجاحاً في دنياهم وعزاً وفلاحاً في أُخراهم، فعليهم أولًا أن يفهموا دينهم بفهم أسلافهم السابقين الذين بذلوا الغالي والنفيس في سبيل هذا الدين وحملوا رايته إلى كل العالمين، ولن يتسنى لهم ذلك كله إلا إذا عرفوا تاريخهم ودرسوا تراثهم.

ونظراً لأهمية التاريخ في حياة الأمم، فقد لجأ أعداء هذه الأمة - فيما لجؤوا إليه- إلى تاريخ هذه الأمة، لتفريق جمعها، وتشتيت أمرها، وتهوين شأنها، فأدخلوا فيه ما أفسد كثيراً من الحقائق، وقلب كثيراً من الوقائع، وأقاموا تاريخاً يوافق أغراضهم، ويخدم مآربهم، ويحقق ما يصبون إليه.

---

(١) منهج كتابة التاريخ لماذا وكيف؟ جمال عبد الهادي، وفاء محمد رفعت جمعة: (ص١٨، ١٩) بتصرف بالحذف، ط دار الوفاء بالمنصورة، ط ١سنة ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

خامساً: خطورة التلاعب بالتاريخ:

إن من أكبر وأعظم أهداف التاريخ بعامة، والإسلامي منه بخاصة «الاستفادة من تجارب الماضي في التخطيط لسياسة الحاضر» وذلك لأن المستقبل إنما هو نتاج تفعيل الحاضر مع الماضي[١].

ودراسة التاريخ تعمل على حُسن قيادة الحاضر وإدارة المستقبل، وهناك مقولة شاعت على الألسنة وتداولها الكُتاب والمفكرون ألا وهي: «التاريخ يعيد نفسه». ومقولة أخرى راجت نفس رواج الأولى وهي: «خذوا من التاريخ عبرة». وهما مقولتان لهما وجاهتهما وقبولهما؛ ذلك أن الأيام تتشابه والحوادث تتكرر، ودراسة التاريخ إذا تمت بشكلها الصحيح وبأسلوب علمي واضح فإنها بلا شك ستؤدي إلى حُسن قيادة الحاضر والمستقبل.

ولقد بات واضحاً دور التاريخ الإسلامي وما يمكنه أن يصنع في واقع المسلمين المعاصر، بحيث يمكنهم أن يعودوا لما كانوا عليه من العزة والمجد، هذا إذا درسوا تاريخهم جيداً، وراجعوا فصوله وأحداثه، وأخذوا منه العظة والعبرة، وربطوا جيداً بين السبب والمسبب والحدث والنتيجة.

وهذا ليس حكراً على المسلمين وحدهم، بل إن أي أمة لو درست عوامل تقدُّمها في الماضي وأسباب نهضتها وقوتها، ثم درست عوامل تأخُّرها وكبوتها وربطت بين السبب والمسبب فإنه يمكنها أن تعود لما كانت عليه

(١) راجع: علم التاريخ ومناهج المؤرخين: صائب عبد الحميد، (ص١٦).

إذا أحسنت أمرها واستحضرت مجدها وطبقت ما كانت عليه بالأمس.

وعليه فتاريخنا الإسلامي يُعد صورة حية للواقع الذي طُبق فيه الإسلام، وبمعرفته نقف على الجوانب المشرقة في تاريخنا فنقتفي أثرها، ونقف أيضاً على الجوانب السلبية فيه فنحاول تجنبها والابتعاد عنها، أي أن فيه استلهاماً للمستقبل على ضوء السنن الربانية الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل ولا تحابي أحداً.

ولقد أدرك أعداء الإسلام جيداً أهمية التاريخ الإسلامي وما يمكنه أن يصنع في واقع المسلمين؛ فحاولوا جهدهم توهين صلة المسلمين به وصرف أنظارهم وهممهم عنه عن طريق التلبيس في بعض حوادثه وإثارة الشبهات حول بعض متعلقاته حتي يسهل لهم تحقيق مرادهم، وهذا ما تولى كِبره المستشرقون وأضرابهم.

فما عرف التاريخ الإنساني عبر مراحله المتباينة أن طوائف من أممٍ مختلفة، تنوعت ثقافاتها ولغاتها وأعرافها التقت كلمتها واتحدت أهدافها حول العكوف على دراسة دينٍ لا تؤمن به لا تريد من ذلك معرفة الحق من الباطل، وإنما تريد العمل دون كللٍ أو مللٍ من أجل تشويه الإسلام وحضارته الإنسانية الرائعة[(١)].

ولو حاولنا أن نجمل الأسباب التي دعت المستشرقين وغيرهم للتنقيب في تاريخنا الإسلامي والبحث فيه فسنجد أن منها الآتي:

(١) راجع: ظاهرة انتشار الإسلام، محمد فتح اللّه الزيادي، (ص٨).ط١: المنشأة العامة للنشر والتوزيع، سنة ١٩٨٣م.

١- الوقوف على مصادر القوة والضعف في تاريخ المسلمين.

٢- تجسيم الصراع الذي حدث بين المسلمين عبر تاريخهم وتصويره على أنه هو السمة الغالبة في التاريخ الإسلامي.

٣- إبراز الجانب السلبي الاستسلامي الموجود في التاريخ الإسلامي وتصويره على اعتبار أنه الإسلام.

٤- إحياء فكر الفرق الضالة التي تنتسب للإسلام واعتبار أنها تمثل التاريخ الإسلامي.

فالمنهج الاستشراقي في تناوله للتاريخ الإسلامي لا يهتم مطلقاً بذكر الجوانب المضيئة فى الحضارة الإسلامية، وإنما يهتم اهتماماً بالغاً بالجوانب الضعيفة فى هذه الحضارة ومحاولة إبرازها ونشرها بكل السبل، ويُعنى أشد العناية بدراسة حركات الرفض والخروج على الإسلام، ويسلط عليها الأضواء، وربما خصها بالمديح والإطراء بالإشارة مرة وبالتصريح مرات أخرى[١].

وهذا من باب تزوير الحقائق وقلب المفاهيم والتلاعب بالتاريخ ومسلماته؛ لإماتة القيم في نفوس المسلمين، واستحضار الصفحات السوداء في تاريخهم والتي لا يخلو منها تاريخ أمة، تمهيداً لنشر العصبية البغيضة وتأجيج نار العداوة والبغضاء بين المسلمين، ومما ساعدهم على ذلك وجود فئة من المسلمين تلقَّت إفكهم وباطلهم واستساغته، بل

---

(١) لماذا يزيفون التاريخ ويعبثون بالحقائق؟ إسماعيل الكيلانى (ص١٢) بتصرف، ط١: المكتب الإسلامي- بيروت لبنان، سنة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

ودافعت عنه وعملت دون كلل أو ملل على شيوعه وإظهاره، وكانوا بهذا آداةً طيِّعةً في خدمة أهداف المستشرقين وتحقيق مآربهم.

ولم يأل المستشرقون جهداً في تغذية هذا الرافد الهام وإمداد القائمين عليه بكل ما يحتاجون إليه من شبهات وضلالات بعد إقناعهم قطعاً أنها الحقيقة لا غير والصواب لا سواه.

وأسفر هذا التمازج الخطير عن وجود شبهات مشتركة بين المستشرقين والمخدوعين بهم، حول تراثنا الإسلامي بكل ما يحويه.

بل إن المعادلة هذه قد تنقلب في بعض الأحيان فإذ بنا نجد متلقي الأمس يصبح هو الناشر للشبهة والقائم عليها اليوم، وناشر الأمس متلقي اليوم؛ فيأخذ المستشرقون ممن خُدِع بهم، وهذا أمر في غاية الخطورة، وتكمن خطورته في أن المستشرقين استطاعوا تكوين جيش خاضع لهم من الأذناب والتابعين يمتلك مقدرة على خلق الشبهات والافتراءات والتلاعب بالتاريخ، لدرجة جعلت من موجهي الأمس تلاميذ خاضعين، ونقلة مؤتمنين، أي أن المعادلة اليوم بين المستشرقين وأذنابهم أضحت الأثر والتأثر المشترك.

وهذا يدل دلالة قاطعة على مدى خطورة التلاعب بالتاريخ وعلى مقدار الجناية الناتجة عن هذا الأمر السيئ، بل إنه لو أمعنا النظر جيداً لوجدنا أن خلق جيل من أذناب المستشرقين إنما هو في حد ذاته أثر نتج عن تلاعب المستشرقين بالتاريخ الإسلامي.

وبعبارة أخرى يمكننا القول: إن التلاعب بالتاريخ الإسلامي إنما هو

تلاعب بعقول الأمة وأبنائها ومقدراتها، ومستقبلها كله، فأي أمة تفقد تاريخها وتتنكَّر لماضيها وتراثها فإنها تفقد كذلك ذاتيتها وخاصيتها، حاضرها ومستقبلها، فمن فقد أمسه فقد معه - بل قبله- يومه وغده. والشعوب التي لا تاريخ لها لا وجود لها، إذ به قوام الأمم، تحيا بوجوده وتموت بانعدامه.

* * *

الفصل الأول

تاريخ الفتوحات الإسلامية بين الآل والأصحاب

الفتوحات في اللغة والاصطلاح

الفتح في اللغة: نقيض الإغلاق[١]:

وفي القاموس المحيط: والفتح: الباب الجاري، والنصرة كالفتاحة، وافتتاح دار الحرب[٢].

أما في الاصطلاح: فيقصد بالفتح أو الفتوحات الإسلامية: إخضاع الدول الكافرة وإدخالها ضمن ولاية الدولة الإسلامية، كما هو الحال بالنسبة لدولتي فارس والروم في العهد الأول، والأصل في الفتح الإسلامي تأمين طريق الدعوة إلى الإسلام بحيث لا تقف أي عقبة أو سلطة في وجه تبليغ الإسلام، ثم بعد ذلك تبقى لكل حريته إن شاء آمن وإن شاء كفر.

فالفتح إذن هو: خروج المسلمين للدعوة إلى دين الإسلام في البلدان المختلفة والأقطار النائية، فإن دخل أهل تلك البلاد في الإسلام فذاك، وإن أبوا عُرض عليهم دفع الجزية، فإن أبوا فالقتال حتى يدخلوا في سلطان المسلمين، ليتمكن المسلمون من دعوتهم إلى الإسلام دون أن يقف في طريقهم أحد، ثم بعد ذلك من شاء منهم أن يدخل في الإسلام فعل، ومن شاء أن يبقى على كفره فعل، ولكن يبقى تحت سلطان المسلمين ويدفع إليهم الجزية، فيعصم دمه وماله.

---

(١) لسان العرب: ابن منظور (٢/ ٥٤٠).

(٢) القاموس المحيط: الفيروز آبادي (١/ ٢٣٩).

إذن فالفتوح الإسلامية هي حركة نشر الإسلام عن طريق الدعوة والقدوة، أو عن طريق القتال لمن صدَّ وأبى وأظهر العداوة. ويقصد بها أيضاً افتتاح دار الحرب، والانتصار على محاربيها.

ولا يقتصر مفهوم الفتح على الانتصار العسكري فحسب، بل يتعداه إلى الانتصار في مختلف الميادين العسكرية والأدبية والأخلاقية، والتي سببت مجتمعة دخول الأقوام في البلاد المفتوحة عسكرياً في دين الإسلام بقناعة ورضا، مما سبب انتصار عقيدة التوحيد على الشرك في تلك البلدان[١].

أهداف الفتوحات في الإسلام:

جدير بالذكر أن نقول: إن الفتوحات الإسلامية انطلقت من عالمية الدعوة الإسلامية، والتي جعلت من الإسلام ديناً عاماً عالمياً للناس كافة بيضاً وسوداً عرباً وعجماً إنساً وجناً؛ ولذا فهو مساير لكل العصور ومصلح لكل زمان ومكان. وصدق اللَّه القائل لرسوله في محكم التنزيل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨].

فالأصول العامة التي شرعها اللَّه لعباده في هذا الدين تنبئ عن أنه الدين الخاتم الذي أراده اللَّه أن يكون دين البشرية كلها، فهي أصول ترسي دعائم المجتمع السعيد الذي تتحدد فيه العلاقة بين الإنسان وخالقه، وبين الإنسان ونفسه وبين الإنسان وأخيه الإنسان[٢].

---

(١) الفتوح الإسلامية عبر العصور: عبد العزيز العمري، (ص١٥).دار أشبيليه، ط٢: سنة ١٤١٩هـ.

(٢) ظاهرة انتشار الإسلام: محمد فتح اللَّه الزيادي (ص٢٥) بتصرف يسير.

وعلى ضوء هذه العالمية فإن غاية الفتوحات الإسلامية تكمن في التمكين لدين اللَّه في الأرض، ونشر نوره في كافة أرجاء المعمورة، بهدف إسعاد البشرية وتخليصها من كل شوائب الوثنية، بعد إزالة كافة الحواجز والعوائق والأسوار التي تحول دون تحقيق هذا الهدف العظيم.

فبعد أن تقف الحدود والسدود حائلاً بين المسلمين وبين تبليغ دين اللَّه تعالى عندها يكون الجهاد؛ ليخلى بين الناس وبين حرية الاختيار.

ويذكر أنور الجندي كلاماً طيباً في الغاية من الفتح الإسلامي أرى نقله هنا لتعم الفائدة، حيث يقول:

إذا جاز لنا أن نستعمل كلمة فتح فإنما يتم ذلك بمفهوم واحد، وهو إزالة القوة التي تقف أمام أمانة عموم الرسالة التي حملها المسلمون عن الرسول ﷺ، وكانت في تقديرهم مهمة حياتهم يهبون لها أرواحهم ويستشهدون من أجلها، فالفتح هو: كسر الحواجز المادية التي يحاول أن يقيمها الحكام والأباطرة والأمراء أصحاب السلطة في الأقطار التي ينفذ إليها الإسلام، رغبة في تحقيق اللقاء بين الإسلام وبين هذه الشعوب المغلوبة على أمرها[(١)].

ويمكن أن نلخص أهداف الفتوحات الإسلامية في عدة أمور هي كالتالي:

١- كسر الحواجز الظالمة والمصطنعة التي وضعها المفسدون وغلاة الشر من البشر ليحولوا بين الناس وبين نور الإسلام وهداه.

٢- حماية الدعوة من عدوان خصومها، سواء أكانوا من عرب الجزيرة

(١) الإسلام وحركة التاريخ: أنور الجندي (ص٥٩)، مطبعة الرسالة - القاهرة سنة ١٩٦٨م.

نفسها، أم من خارجها، كالفرس والروم(١).

٣- إرادة الخير للبشرية جميعاً، عن طريق هدايتهم إلى الإسلام، «إنارة الأكوان بنور الإسلام».

٤- تخليص الشعوب من طغاتها الظالمين ومن أوضاعها الدينية والاجتماعية السيئة.

وهذا المعنى أشار إليه أحد جنود المسلمين أمام رستم قائد الفرس في معركة القادسية التي زلزلت بنيانهم وقوَّضت أركانهم.

فقد ذكر ابن كثير في البداية أنه لما تواجه الجيشان- في القادسية- بعث رستم إلى سعد أن يبعث إليه برجل عاقل عالم بما يسأله عنه، فبعث إليه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، فلما قدم عليه جعل رستم يسأله، وكان من ضمن ما سأله عنه، ما هو دينكم؟ فأجابه المغيرة قائلًا: أما عموده الذي لا يصلح شئ منه إلا به فشهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه، والإقرار بما جاء من عند اللَّه، فقال: ما أحسن هذا؟! وأي شئٍ أيضاً؟ قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه. قال: وحسن أيضاً، وأي شئ أيضاً؟ قال: والناس بنو آدم وحواء، فهم أخوة لأب وأم، قال: وحسن أيضاً(٢).

ثم بعث إليه سعد بعد ذلك ربعي بن عامر الذي دخل على رستم وحاشيته دخول المعتز بدينه والواثق من نصر ربه، ولما دخل سأله مَن بحضرة رستم

---

(١) انظر: الموسوعة العربية العالمية، مادة فتح (ص٢).

(٢) البداية والنهاية: ابن كثير (٧ / ٤٦).

فقالوا له: «ما جاء بكم؟ فقال: اللَّه ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه، ومن ضِيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبِل ذلك قبِلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود اللَّه. قالوا: وما موعود اللَّه؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي»[(١)].

فما ذكره الصحابيان الجليلان المغيرة بن شعبة وربعي بن عامر يلخص أهداف الفتوحات الإسلامية والتي سعى المسلمون الفاتحون إلى تحقيقها، «**اللَّه ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام**». فما أعظمها من كلمات وما أسماها من معان، وما أجلها من أهداف.

وعليه فالفتوحات الإسلامية لم تقم بقصد الإرهاب والإرجاف وسفك الدماء وترويع الآمنين كما قد يشيع بعض الحاقدين، وإنما قامت لنشر كلمة اللَّه إلى الدنيا كلها، ونشر نور الإسلام ليبدد ظلمات الشرك والوثنية، إلا أن جماعة استولى الحقد عليها وهالها أمر الفتوحات وما آلت إليه من دخول الناس في دين اللَّه أفواجاً لما رأوه من أخلاق الفاتحين الجدد، فأخذوا ينالون من الفتوحات الإسلامية قدحاً وتشويهاً، وهم جماعة المستشرقين وأذنابهم ومن والاهم ممن ينتمي إلى الإسلام[(٢)]، فأعدوا العدة، وجهزوا الجيوش من كتب وكتيبات وصحف

---

(١) البداية والنهاية: ابن كثير (٧ / ٤٧) والقصتان رواهما الطبري في تاريخه (٢/ ٤٠٠ - ٤٠١).

(٢) يلاحظ أنه في بعض الأحيان قد تنقلب المعادلة فنرى المستشرقين يأخذون شبهاتهم ممن ينتمي للإسلام، فنجدهم يقلبون صفحات كتب بعض الفرق المنتسبة للإسلام بقصد تصيُّد الشبهات وترويجها للطعن في الإسلام وشريعته وتاريخه.

ومجلات، وكذبوا وافتروا وتنمروا واعتدوا وحاولوا جاهدين وصم الفتوحات الإسلامية بالدموية، وأنها عملت على نشر الإسلام بالقوة وحدِّ السيف، وإرجاع الفتوحات الإسلامية إلى دوافع غير دينية، معللين إياها بدوافع اقتصادية ومصالح شخصية خاصة بالفاتحين وقادتهم. وهذا ما سنتناوله بالعرض والتحليل والنقد في بعض صفحات هذا البحث المتواضع.

المشاركة في الفتوحات من صور العلاقة الطيبة بين الآل والأصحاب:

إن العلاقة بين آل البيت والأصحاب علاقة فريدة تسودها المحبة وتكتنفها الرحمة في كل فصل من فصولها وهذه مسألة واضحة للعيان لا يجادل فيها إلا من في قلبه مرض ودخل، وتبرز معالم تلك العلاقة القوية في الأسماء والمصاهرات والثناء المتبادل بين الآل والأصحاب وهذه هي الأخرى مسألة لا تقبل النزاع وواضحة في كتب من ينتمي إلى الإسلام على اختلاف مذاهبهم وتنوع مشاربهم.

ومما يزكي هذه العلاقة ويبين معالمها وملامحها الفتوحات الإسلامية التي خاضها آل البيت والصحابة جنبا إلى جنب لإعلاء كلمة اللّه والدفاع عن دينه وبذل الغالي والنفيس في سبيل تحقيق هذا الهدف العظيم، حتى امتزجت دماؤهم المباركة على ثرى أرض المعارك الإسلامية كل يفدي صاحبه بدمه ونفسه.

فكانت الفتوحات الإسلامية من أصدق الدلائل وأوضح البراهين على تلك العلاقة القوية التي كانت بين الآل والأصحاب، وفيما يلي عرض لتلك الفتوحات التي شارك فيها آحاد الآل والأصحاب معاً لنشر الإسلام وإيصال نوره إلى العالمين.

إيضاح وبيان[١]:

وهنا لابد من بيان شيء له أهميته لتعلقه بالمنهج الذي سيتبع في كتابة هذه الصفحات المتعلقة بتاريخ الفتوحات الإسلامية بين الآل والأصحاب ألا وهو أن الهدف من وراء هذه الصفحات ليس الاستقصاء فهذا أمر يصعب تحقيقه، إلا أننا سنُعنى بالفتوحات التي شارك فيها الآل والأصحاب ونصَّ المؤرخون على أسمائهم، أي أن معتمدنا ومبلغ اهتمامنا هنا هو نصُّ المؤرخين وأصحاب السير على أسماء من حضر الفتح من آل البيت والصحابة، باعتباره شاهداً على العلاقة الطيبة التي سادت بينهم، وليس هدفنا أيضا استقصاء هذه الفتوحات التي نصَّ المؤرخون على وجود الآل والأصحاب فيها، وإنما الهدف التدليل على مشاركتهم في الفتوحات مع ذكر أمثلة عليها؛ لأن فيها خير دلالة على مدى المحبة والمودة التي كانت بينهم ومدى الإخلاص الذي تمكَّن من قلوبهم وسار بين جوانحهم وحنايا صدورهم، كما حدث في مشاركة الحسين بن علي للصحابة ﷺ في فتح أفريقية وغزو طبرستان وجرجان والقسطنطينية.

كما أن البداية الزمنية لمدار بحثنا تبدأ بأول فتح أو معركة بعد وفاة النبي ﷺ، والنهاية الزمنية ترتبط بوقت وفاة آخر صحابي[٢] أو بآخر فتح اشترك

---

(١) قد سبقت الإشارة إلى بعض معالم هذا المنهج في المقدمة، وقصدت من إفرادها هنا تحت عنوان مستقل الإشارة إلى أمرين: التنبيه عليها لأهميتها الشديدة - تفصيل الحديث عنها نسبياً بما لا تتحمله طبيعة المقدمة.

(٢) اختلف العلماء في تحديد آخر من مات من الصحابة فقيل: أنس بن مالك وتوفي سنة ٩٣ هـ على أصح الأقوال، وقيل: أبو الطفيل عامر بن واثلة وتوفي سنة مئة، وهو الراجح. قال ابن الأثير في ترجمته (أسد الغابة: ١/١٢٠١) وهو آخر مَن مات ممن أدرك النبي ﷺ (راجع: تذكرة الحفاظ للذهبي: ١/٤٤-٤٥، شذرات الذهب لابن العماد: ١/٩٢).

فيه الآل مع الأصحاب؛ وذلك لأن خطّ الصحبة له وقت زمني محدد لا يتعداه، بخلاف خطّ الآل فهو مستمر إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها.

ولسائل أن يسأل عن إعراضنا عن المشاركات الجهادية بين الآل والأصحاب والتي حدثت في حياة النبي ﷺ، وهذا سؤال في محله، وسبب غضنا الطرف عنها هو أن بحثنا يرد على من ادعى عداءً بين الآل والأصحاب، وتمايز هذا العداء واستشرى عند من يقول به بعد وفاة النبي ﷺ، فكان يقتضي منا أن نبحث عن معالم العلاقة الطيبة بين الآل والأصحاب بعد وفاة النبي ﷺ لنرد على من يدعي عداء أو بغضاء، حيث إن معالم العداء المصطنع عند مدعيه لم تظهر جلية إبان حياة النبي ﷺ، فلا حاجة والحال هذا أن نبحث عن مشاركتهم في الغزوات والسرايا التي حدثت في حياة النبي، فكانت مرحلة البداية عندنا تنطلق من مشاركة الآل والأصحاب الجهادية بعد وفاة النبي ﷺ.

❊ ❊ ❊

الفتوحات الإسلامية[١] في خلافة الصديق رضي الله عنه

تعد البداية الحقيقية للفتوحات الإسلامية من بداية خلافة الصديق أبي بكر رضي الله عنه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حيث نشطت الفتوحات الإسلامية، وتوالت الانتصارات البكرية في العراق والشام، حيث كانت المعارك الكبيرة ومنها: ذات السلاسل والمذار والولجة وأُلَّيس والحيرة وتدمر وبصرى ومرج الصفَّر وأجنادين.

ويسَّر اللَّه تعالى للآل والأصحاب في هذه المعارك وغيرها كسر الحواجز الظالمة والمصطنعة التي وضعها المفسدون من البشر ليحولوا بين الناس وبين نور الإسلام وهُداه، فكانت النتيجة أن تسابق الناس على الدخول في الإسلام بعد ما علموا من تشريعاته وعاينوا من أخلاق أتباعه.

حروب الردة في خلافة الصديق رضي الله عنه كانت البداية:

وقبل أن نخوض غمار الفتوحات الإسلامية ونستوضح معالم التضحية والفداء في تراث الآل والأصحاب فإنه يجب علينا أن نتحدث بداية عن حروب الردة التي حدثت في بداية خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه والتي لولاها لتفرقت الأمة شذر مذر، مزقاً متناثرة وأشلاء مبعثرة، فمع أن هذه الحروب لم تكن من الفتوحات إلا أنها أسست لها ولولا موقف الصديق المشرِّف ومن معه من الآل والأصحاب لما خرج المسلمون للفتوحات

(١) لايخفى القارىء الكريم أن المراد بالفتوحات الإسلامية هنا تلك التي شارك فيها الآل مع الأصحاب اعتماداً على نصِّ المؤرخين، لا على مطلق الفتوحات - كما سبق وبيَّنا-.

الإسلامية خارج الجزيرة العربية.

فلم يكد نبأ وفاة النبي ﷺ ينتشر في بلاد العرب حتى اشتعلت الفتنة في كل أنحاء الجزيرة العربية بأشكال مختلفة، ولأسباب متباينة، وبرزت ظاهرة التنبؤ كإحدى الانعكاسات للنجاح الإسلامي في الحجاز[١].

فبعد وفاة النبي ﷺحدث أن ارتدت بعض قبائل العرب عن الإسلام واتبعت بعض من ادعى النبوة، كما حدث مع قبيلة مذحج وعنس قوم الأسود العنسي الذي قتل قبيل وفاة النبي ﷺ بيسير وظل بعض قومه على غيهم، ومع بني حنيفة الذين اتبعوا مسيلمة الكذاب، ومع بني أسد قوم طليحة الأسدي، ومع بني تغلب وبني يربوع الذين اتبع جمع كثير منهم سجاح بنت الحارث، وكذلك جمع غفير من أهل عمان الذين اتبعوا ذا التاج لقيط بن مالك الأزدي.

كما امتنعت بعض القبائل من إخراج الزكاة بحجة أن رسول اللَّه ﷺ مات وهو الذي كان يتولى جمع وتوزيع الزكاة، وبموته سقطت فريضة الزكاة، ومن تمام رحمة اللَّه وفضله أن قيض للإسلام في هذه الفترة العصيبة رجالًا من نوع فريد، حموا بيضته وصانوا شريعته، وذبوا عن حياضه، وكان منهم بل على رأسهم لأن الكثير خالفوه في قتال من يشهد الشهادتين الصديق أبو بكر رضي الله عنه، والذي جرَّد الجيوش لإخضاع المرتدين وكسر شوكتهم، وتولَّى مع الصديق زمام هذا الأمر، بل هذا الواجب العظيم الصحابة الكرام وآل البيت العظام رضي الله عنهم، الذين بذلوا غوالي الأنفس والمهج للتمكين لدين اللَّه تعالى.

(١) تاريخ الخلفاء الراشدين: محمد سهيل، (ص٣٩)، ط١: دار النفائس-بيروت، سنة ٢٠٠٣م.

وكان في طليعة المشاركين في حروب الردة علي بن أبي طالب رضي الله عنه والذي شارك أبا بكر رضي الله عنه في قتال المرتدين، ولم يضن عليه بنصحٍ ولا مشورةٍ.

لقد كان علي رضي اللَّه تعالى عنه وأرضاه رفيق أبي بكر رضي الله عنه، والمشير عليه في بعض أمور الخلافة ونوازل الأمة مع غيره من كبار الصحابة، وكان شديد الحرص على نصح أبي بكر رضي الله عنه وإخلاص النصيحة له في كل أمرٍ من أمور الخلافة استشاره فيه الصديق أبو بكر رضي الله عنه.

ولعل من أمثلة ذلك: عندما عزم أبو بكر رضي الله عنه على أن يخرج بنفسه إلى ذي القصة لقتال المرتدين، واستوى على راحلته؛ أخذ علي رضي الله عنه بزمامها وقال: إلى أين يا خليفة رسول اللَّه؟ أقول لك ما قال رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد «لُمّ سيفك، ولا تفجعنا بنفسك، وارجع إلى المدينة فواللَّه لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبداً، فرجع»[1].

إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يدرك قيمة أبي بكر رضي الله عنه ويعرف حقه ومدى النفع العظيم الذي يلحق المسلمين من وجوده، لذا فحين أراد الصدِّيق أن يقود بنفسه زمام الحروب مع المرتدين أدرك علي أن عليه دوراً يجب أن يقوم به في وقته ولا يتخلف عنه برهة من الزمن؛ فوقف بوازع من المحبة، وبدافع من الواجب، وببصيرة تدرك حجم المخاطر التي تنوء بالمسلمين والتي تكاد أن تعصف بأركان دولتهم وتزلزل بنيانها من الداخل

(١) البداية والنهاية: ابن كثير (٦/ ٣٤٧) عزاه التقي الهندي إلى الدارقطني في غرائب مالك والخلعي في الخلعيات. انظر: كنز العمال (١٤١٦٧).

وخاطب الصديق قائلًا: «لمّ سيفك، ولا تفجعنا بنفسك، وارجع إلى المدينة فواللّه لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبداً».

فانظر معي أخي القارئ الكريم إلى هذه الكلمات الحميمات والعبارات النديات التي خرجت تترى من قلب وفم علي بن أبي طالب رضي الله عنه سالكة دربها إلى قلب وأذن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، إنها من أصدق الدلائل على عمق المحبة التي صهرت قلوب الآل والأصحاب، فانعدمت في ظلها الأنا، واختفت في حناياها الأثرة، وبرز فيها الإيثار في أروع معانيه، حتى أضحى الواحد منهم يخاطب صاحبه بقوله: «يا أنا».

ولم تقتصر مشاركة علي رضي الله عنه في حروب الردة في خلافة الصديق رضي الله عنه على حدِّ المشاورة، بل إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أخذ دوره كفارس مقدام وقائد بارز وكان يقوم مع إخوانه من الصحابة بحراسة أنقاب المدينة[(١)] والذود عنها في بداية حروب الردة.

روى الطبري عن القاسم بن محمد قال: مات رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم واجتمعت أسد وغطفان وطيئ على طليحة، إلا ما كان من خواص أقوام في القبائل الثلاث، فاجتمعت أسد بسميراء، وفزارة ومن يليهم من غطفان بجنوب طيبة، وطيئ على حدود أرضهم، واجتمعت ثعلبة بن سعد ومن يليهم من مرة وعبس بالإبرق من الربذة، وتأشب إليهم ناس من بنى كنانة فلم تحملهم البلاد فافترقوا فرقتين، فأقامت فرقة منهم بالإبرق وسارت الأخرى إلى ذي القصة، وأمدَّهم طليحة بحبال، فكان حبال على أهل

(١) النقب: الطريق بين جبلين. (النهاية لابن الأثير: ٥/ ١٠٢).

ذي القصة من بنى أسد ومن تأشب من ليث والديل ومدلج، وكان على مرة بالإبرق عوف بن فلان بن سنان، وعلى ثعلبة وعبس الحارث بن فلان أحد بنى سبيع، وقد بعثوا وفوداً فقدموا المدينة فنزلوا على وجوه الناس فأنزلوهم، ما خلا عباسا، فتحملوا بهم على أبي بكر على أن يقيموا الصلاة وعلى أن لا يؤتوا الزكاة، فعزم اللَّه لأبي بكر على الحق، وقال: لو منعوني عقالًا لجاهدتهم عليه، وكان عقل الصدقة[(١)] على أهل الصدقة مع الصدقة، فردهم فرجع وفد من يلي المدينة من المرتدة إليهم، فأخبروا عشائرهم بقلة من أهل المدينة وأطمعوهم فيها، **وجعل أبو بكر بعدما أخرج الوفد على أنقاب المدينة نفراً علياً والزبير وطلحة وعبد اللَّه ابن مسعود** وأخذ أهل المدينة بحضور المسجد وقال لهم: إن الأرض كافرة وقد رأى وفدهم منكم قلة وإنكم لا تدرون أليلًا تؤتَون أم نهاراً وأدناهم منكم على بريد[(٢)]، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونواعدهم وقد أبينا عليهم ونبذنا إليهم عهدهم، فاستعدوا وأعدوا فما لبثوا إلا ثلاثاً حتى طرقوا المدينة غارة مع الليل وخلفوا بعضهم بذى حسي ليكونوا لهم ردءا فوافوا الغُوَّار[(٣)] ليلًا الأنقاب وعليها المقاتلة ودونهم أقوام يدرجون فنبهوهم وأرسلوا إلى أبى بكر بالخبر فأرسل إليهم أبو بكر أن الزموا أماكنكم ففعلوا، وخرج في أهل المسجد على النواضح[(٤)]

---

(١) عقل الصدقة: ما تعقل به إبل الصدقة وغيرها من حبال ونحوها.

(٢) البريد: مسافة فرسخين وقيل: أربعة، والفرسخ ثلاثة أميال، والميل أربعة آلاف ذراع. (النهاية لابن الأثير: ١/ ١١٦).

(٣) الغُوَّار: مأخوذ من الفعل غار ، والغارة: الجماعة من الخيل إذا أغارت على العدو، والغوار: المقاتلون كثيروا الغارات. (لسان العرب: ٥/ ٣٦).

(٤) النواضح: الإبل التي يُستقى عليها من الآبار. (غريب الحديث لابن سلام: ١/ ٧٠).

إليهم، فانفش[١] العدو، فأتبعهم المسلمون على إبلهم حتى بلغوا ذا حسى فخرج عليهم الردء بأنحاء[٢] قد نفخوها وجعلوا فيها الحبال ثم دهدهوها بأرجلهم في وجوه الإبل فتدهده كل نحى في طوله فنفرت إبل المسلمين وهم عليها ولا تنفر الإبل من شيء نفارها من الأنحاء فعاجت بهم ما يملكونها حتى دخلت بهم المدينة فلم يصرع مسلم ولم يصب[٣].

فانظر رحمك اللَّه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو يأخذ دوره في صفوف المجاهدين في خلافة الصديق ويقوم بحراسة أنقاب المدينة مع إخوانه من الصحابة وتحديداً مع الزبير وطلحة وابن مسعود، ويشاركهم ويشاركونه في حماية المدينة حتى لا يخلص إليها المرتدون.

معركة أجنَادَينِ[٤]:

وهي إحدى معارك الشام التي خاضها المسلمون لدحر الروم، وكانت في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقبيل وفاته ، وبُشر بها أبو بكر رضي الله عنه وهو بآخر رمق[٥]، وتعد معركة أجنادين أولى المعارك الكبيرة التي انتصر فيها المسلمون.

---

(١) انفش: تفرق وانهزم (غريب الحديث الحربي ٢/ ٨٠٤).

(٢) الأنحاء جمع نحى و هو الزق، أي السقاء. (مختار الصحاح: ١٤٨).

(٣) تاريخ الطبري (٢/٤٧٦ - ٤٨٠) وانظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٥ /١٥٨ - ١٦٠) البداية والنهاية لابن كثير (٦/ ٣٤٤ - ٣٤٦).

(٤) أجنَادَينِ: بالفتح ثم السكون، ونون وألف، وتفتح الدال فتكسر معها النون فيصير بلفظ التثنية، وتكسر الدال وتفتح النون بلفظ الجمع، وأكثر أصحاب الحديث يقولون: إنه بلفظ التثنية، ومن المحصلين من يقوله بلفظ الجمع، وهو موضع معروف بالشام من نواحي فلسطين. (معجم البلدان للحموي: ١/ ١٠٣).

(٥) نقله ابن عساكر عن الواقدي. تاريخ دمشق (٢/ ١٠٣).

قال ابن جابر[١]: إن أول وقعة كانت بين المسلمين وبين الروم بأجنادين نصر اللَّه المسلمين فهي إحدى ملاحم الروم التي أبيروا فيها[٢].

وبلغ تعداد الجيش المسلم الذي شارك فيها قرابة عشرين ألف مجاهد ضد جيش الروم والذي كان تعداده قرابة مائة ألف مقاتل والذي كان يقوده أخو الإمبراطور، وكانت أحداث هذه المعركة في جمادى الأولى سنة ١٣هـ[٣].

وفي الاستيعاب أن الأمراء بأجنادين كانوا أربعة وهم: عمرو بن العاص وأبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة كل على جنده، وقد قيل: إن عمرا بن العاص كان عليهم جميعاً يومئذ[٤].

وهو ما رجَّحه غير واحدٍ، فكانت القيادة العامة للجيش الإسلامي لعمرو ابن العاص، وعلى الميمنة معاذ بن جبل، وعلى الميسرة سعيد بن جذيم، وعلى جناح الميمنة يزيد بن أبي سفيان، وعلى جناح الميسرة شرحبيل بن حسنة[٥].

وضمت هذه المعركة أسماء جمع كبير من كبار الصحابة وأعلامهم، ومنهم قطعاً أعلام من آل البيت، فشارك فيها من الصحابة: أبو عبيدة بن

---

(١) ابن جابر: هو عبد الرحمن بن يزيد، الإمام الحافظ فقيه الشام، ولد في خلافة عبد الملك بن مروان، ورأى الكبار ورأى بعض الصحابة فيما ذكر الذهبي. توفي سنة ثلاث وخمسين ومائة، وقيل: أربع وخمسين. (سير أعلام النبلاء للذهبي:٧/ ١٧٦-١٧٧).

(٢) تاريخ دمشق: ابن عساكر (٢/ ١٠٣).

(٣) وقد اختلف المؤرخون في تحديد اليوم الذي كانت فيه هذه المعركة الكبيرة، وقد عني ابن عساكر في تاريخه بجمع هذه الأقوال. راجع: تاريخ دمشق (٢/ ٩٨، ٩٩).

(٤) الاستيعاب: ابن عبد البر (٣/ ١٢٧٠).

(٥) راجع: الفتوحات الإسلامية، صالح العلي، (ص٢٢٩).

الجراح، وخالد بن الوليد، وشرحبيل بن حسنة، وعمرو بن سعيد بن العاص واستشهد فيها هو وأخوه أبان ، وعكرمة بن أبي جهل واستشهد فيها ، وضرار بن الخطاب الفهري واستشهد فيها . . . وغيرهم ، وشارك فيها من آل البيت : الفضل بن العباس، واستشهد فيها في قولٍ راجح، وعبد اللَّه بن الزبير بن عبد المطلب واستشهد فيها، وفيما يلي إلقاء مزيد من الضوء على أحداث تلك المعركة ومن شارك فيها من آل البيت والصحابة.

ذكر ابن الأثير قصة معركة أجنَادَينِ وما دار فيها ومن مات بها من الصحابة فقال:

ذكر وقعة أجنادين، قد ذكرها أبو جعفر عقيب وقعة اليرموك، وروي خبرها عن ابن إسحاق من اجتماع الأمراء ومسير خالد بن الوليد من العراق إلى الشام نحو ما تقدَّم، وقال: فسار خالد من مرج راهط إلى بصرى، وعليها أبو عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان، فصالحهم أهلها على الجزية، فكانت أول مدينة فتحت بالشام في خلافة أبي بكر، ثم ساروا جميعاً إلى فلسطين مدداً لعمرو بن العاص، وهو مقيم بالعربات واجتمعت الروم بأجنادين، وعليهم تذارق أخو هرقل لأبويه، وقيل: كان على الروم القبقلار، وأجنادين بين الرملة وبيت جبرين من أرض فلسطين، وسار عمرو بن العاص حين سمع بالمسلمين فلقيهم، ونزلوا بأجنادين وعسكروا عليهم، فبعث القبقلار عربياً إلى المسلمين يأتيه بخبرهم؛ فدخل فيهم وأقام يوماً وليلة، ثم عاد إليه فقال: ما وراءك؟ فقال: بالليل رهبان، وبالنهار فرسان، ولو سرق

ابن ملكهم قطعوه، ولو زنى رُجِم لإقامة الحق فيهم. فقال: إن كنت صدقتني لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها. والتقوا يوم السبت لليلتين بقيتا من جمادي الأولى سنة ثلاث عشرة فظهر المسلمون وهزم المشركون وقتل القبقلار وتذارق، واستشهد رجال من المسلمين، منهم سلمة بن هشام بن المغيرة، وهبار بن الأسود، ونعيم بن عبد اللَّه النحام، وهشام بن العاص بن وائل، وقيل: بل قتل باليرموك، وجماعة غيرهم. قال: ثم جمع هرقل للمسلمين فالتقوا باليرموك، وجاءهم خبر وفاة أبي بكر وهم مصافون وولاية أبي عبيدة، وكانت هذه الوقعة في رجب هذه سياقة الخبر. وكان فيمن قتل ضرار بن الخطاب الفهري، وله صحبة، وعمرو بن سعيد بن العاص، وهو من مهاجرة الحبشة، وقيل: قتل باليرموك، **وممن قتل: الفضل بن العباس،** وقيل: قتل بمرج الصفر، وقيل: مات في طاعون عمواس، وفيها قتل طليب بن عمير بن وهب القرشي، وقيل: قتل باليرموك شهد بدراً، وهو من المهاجرين الأولين، وفيها قتل عبد اللَّه بن أبي جهم القرشي العدوي، وكان إسلامه يوم الفتح، وفيها قتل **عبد اللَّه بن الزبير بن عبد المطلب** بعد أن قتل جمعاً من الروم في المعركة، وكان عمره يوم مات النبي ﷺ نحو ثلاثين سنة. وفيها قتل عبد اللَّه بن الطفيل الدوسي، وهو الملقب بذي النور، وكان من فضلاء الصحابة، قديم الإسلام، هاجر إلى الحبشة[١].

ويذكر ابن كثير معركة أجنادين في حوادث سنة ١٣هـ[٢].

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير (٢/ ٤١٧ - ٤١٨) وانظر: البداية والنهاية: ابن كثير (٧ / ٣٨).
(٢) البداية والنهاية: ابن كثير (٧ / ٣٨).

وقد روى ابن عساكر في عدد القتلى من قريش والأنصار عن ابن إسحاق قوله: وكانت أجنادين في سنة ثلاث عشرة لليلتين بقيتا من جمادى الأولى، وقتل يومئذ من المرسلين[(١)] ممن ينتمي[(٢)] لنا من قريش أربعة عشر رجلًا ولم يسم لنا من الأنصار أحد أصيب بها.

ومن عظم هذه الموقعة ما ذكره سعيد بن عبد العزيز عنها قائلًا: ثم كانت أجنادين بعد وقعة مرج الصُّفَّر، قال سعيد: التقوا على النهر عند الطاحونة، فقتلت الروم يومئذ حتى جرى النهر وطحنت طاحونتها بدمائهم، فأنزل اللَّه على المسلمين نصره، وقتلت يومئذ أم حكيم أربعة من الروم بعمود فسطاطها.

وعن أبي العوام مؤذِّن بيت المقدس قال: سمعت عبد اللَّه بن عمرو بن العاص يحدِّث في بيت المقدس يقول: شهدنا أجنادين ونحن يومئذ عشرون ألفاً وعلى الناس يومئذ عمرو بن العاص، فهزمهم اللَّه تعالى وتفرقوا، ففاءت فئة إلى فِحل[(٣)] في خلافة عمر بن الخطاب، فسار إليهم عمرو بن العاص في الناس حتى نفاهم عن فِحل[(٤)].

---

(١) ذكر المحقق: في خع (أي في نسخة الخزانة العامة بالرباط بالمغرب) «من المسلمين».

(٢) ذكر المحقق: كذا بالأصل وخع، وفي المطبوعة «سمي لنا».

(٣) فِحل: اسم موضع بالشام، ذكره الحموي في معجمه وقال: فحل بكسر أوله، وسكون ثانيه، وآخره لام: اسم موضع بالشام كانت فيه وقعة للمسلمين مع الروم، ويوم فحل مذكور في الفتوح وأظنه عجميا لم أره في كلام العرب، قتل فيه ثمانون ألفاً من الروم، وكان بعد فتح دمشق في عام واحد . . . وكان يوم فحل يسمى يوم الردغة أيضاً ويوم بيسان. (معجم البلدان للحموي: ٤ / ٢٣٧).

(٤) تاريخ دمشق (٢/ ١٠١- ١٠٢).

وأورد الذهبي في تاريخه قصة هذه المعركة أيضاً وقال: فاستشهد نعيم بن عبد اللَّه بن النحام، وهشام بن العاص، والفضل بن عباس، وأبان بن سعيد. ثم ذكر جملة ممن استشهد فيها نقلًا عن عروة قوله: قتل من المسلمين يوم أجنادين عمرو، وأبان، وخالد بنو سعيد بن العاص بن أمية، والطفيل بن عمرو، وعبد اللَّه بن عمرو الدوسيان، وضرار بن الأزور، وعكرمة بن أبي جهل بن هشام، وسلمة بن هشام بن المغيرة عم عكرمة، وهبار بن سفيان المخزومي، ونعيم بن النحام، وصخر بن نصر العدويان، وهشام ابن العاص السهمي، وتميم وسعيد ابنا الحارث بن قيس. وقال محمد ابن سعد: قتل يومئذ طليب بن عمير، وأمه أروى هي عمة رسول اللَّه ﷺ[(١)].

وأورد البلاذري هذه الأسماء في تأريخه لمعركة أجنادين ومن استشهد بها، وإن كان زاد عليها بعض الأسماء مثل: جندب بن عمرو الدوسي، والحجاج بن الحارث السهمي، والحارث بن الحارث بن قيس.

كما فصل القول فيمن اختلف في استشهاده بها منهم مثل: سلمة بن هشام ابن المغيرة، ويقال: إنه قتل بمرج الصفر، وهبار بن سفيان بن عبد الأسد المخزومي، ويقال: بل قتل يوم مؤتة، ونعيم بن عبد اللَّه النحام العدوى، ويقال: قتل يوم اليرموك، وهشام بن العاص بن وائل السهمي، ويقال: قتل يوم اليرموك، وعمر بن الطفيل بن عمرو الدوسي، ويقال: قتل يوم اليرموك[(٢)].

كما أورد ابن كثير في البداية هذه الأسماء السابقة فيمن شهد أجنادين

(١) تاريخ الإسلام: الذهبي (٣/ ٨٠ - ٨٤).
(٢) راجع: فتوح البلدان: البلاذري (١/ ١٣٥-١٣٦) مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

واستشهد بها وزاد عليها: عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، والحارث بن أوس ابن عتيك رضي الله عنهم[١].

وواضح مما سبق أن البلاذري وابن الأثير والذهبي وابن كثير قد ذكروا مشاركة الآل والأصحاب في معركة أجنادين، وعدوا الفضل بن العباس وعبد اللّه بن الزبير بن عبد المطلب وهما من آل البيت، فيمن استشهد يوم أجنادين مع إخوانهم من الصحابة الكرام، وهذا هو بيت القصيد كما يقال.

ونزيد الأمر وضوحاً عن مشاركة عبد اللّه بن الزبير بن عبد المطلب الهاشمي في هذه المعركة الكبيرة، حيث ذكره عدد من المؤرخين ضمن من استشهد بها.

قال ابن عساكر: عبد اللّه بن الزبير بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي القرشي الهاشمي له صحبة ولا أعرف له رواية استشهد بأجنادين[٢].

وقد ذكر هذا ابن عبد البر في الاستيعاب[٣] وابن حجر في الإصابة[٤] وابن الأثير في أسد الغابة[٥] والصفدي في الوافي بالوفيات[٦] والمحب الطبري في ذخائر العقبي[٧].

---

(١) البداية والنهاية: ابن كثير (٧/ ٣٧ - ٣٨). راجع في أسماء من استشهد في هذه المعركة: سير أعلام النبلاء للذهبي: (١/ ٣١٤ - ٣١٦).
(٢) تاريخ دمشق: ابن عساكر (٢٨/ ١٣٧-١٣٨).
(٣) الاستيعاب: ابن عبد البر (٣ / ٩٠٤ - ٩٠٥).
(٤) الإصابة: ابن حجر (٤ / ٧٧ - ٧٨).
(٥) أسد الغابة: ابن الأثير (٣ / ١٦١).
(٦) الوافي بالوفيات: الصفدي (١٧/ ٩٠ - ٩٤).
(٧) ذخائر العقبي: أحمد بن عبد اللّه الطبري، (ص٢٤٨).

وينقل لنا ابن عبد البر عن أبي الحويرث قصة مقتل **عبد اللَّه بن الزبير بن عبد المطلب** قائلًا: أول قتيل قتل من الروم يوم أجنادين برز بطريق مُعلَّم يدعو إلى البراز، فبرز إليه عبد اللَّه بن الزبير بن عبد المطلب، فاختلفا ضربات، ثم قتله عبد اللَّه بن الزبير، ولم يتعرض لسلبه، ثم برز آخر يدعوه إلى البراز، فبرز إليه عبد اللَّه بن الزبير فتشاولا[(١)] بالرمحين ساعة ثم صارا إلى السيفين فحمل عليه عبد اللَّه فضربه وهو دارع على عاتقه وهو يقول: خذها وأنا ابن عبد المطلب، فأثبته وقطع سيفه الدرع وأسرع في منكبه، ثم ولّى الرومي منهزماً فعزم عليه عمرو بن العاص لا يبارز وقال عبد اللَّه: إني واللَّه ما أجدني أصبر، فلما اختلطت السيوف وأخذ بعضها بعضا وجد في ربضة[(٢)] من الروم وعشرة حوله قتلى وهو مقتول بينهم..[(٣)]. وهذا ما أورده الذهبي وغيره[(٤)].

ولم ينفرد علماء أهل السنة بذكر شهود عبد اللَّه بن الزبير بن عبد المطلب معركة أجنادين، وقصة استشهاده بها، بل هناك من أثبت ذلك أيضاً من غير أهل السنة، وتحديداً من علماء الإمامية.

فقد أورد ذلك أيضاً علي خان صاحب الدرجات الرفيعة فقال: عبد اللَّه ابن الزبير بن عبد المطلب، أمه عاتكة بنت أبي وهب بن عمرو بن عائذ المخزومية، أدرك الاسلام وثبت مع النبي صلى اللَّه عليه وآله فيمن ثبت

---

(١) وفي تاريخ الإسلام: (٣/ ٩٦)، وأسد الغابة: (٣/ ١٦١) «فاقتتلا بالرمحين».

(٢) الربضة: مقتل قوم قتلوا في بقعة واحدة. (النهاية لابن الأثير (٢/ ١٨٥).

(٣) الاستيعاب: ابن عبد البر (٣ / ٩٠٤ - ٩٠٥).

(٤) تاريخ الإسلام: الذهبي (٣/ ٨٠ - ٨٤).

يومئذ، وكان رسول اللَّه يقول له: ابن عمى وحِبي ومنهم من يقول: كان يقول له: ابن أمي، «وروي» لما قدم من مكة على النبي ﷺ ألبسه حلة وأجلسه إلى جانبه، وقال: هو ابن أمي، وكان أبوه يحبني ويبرني ويحسن إلي، وكان أبوه الزبير من أشراف قريش. وقتل عبد اللَّه بن الزبير يوم أجنادين في خلافة أبي بكر شهيداً، ووجد حوله عصبة من الروم قد قتلهم، ثم أثخنه الجراح فمات بها.

-ثم ساق رواية مبارزة عبد اللَّه بن الزبير لفرسان الروم وقوادها وعزم عمرو بن العاص عليه بعدم المبارزة لخوفه عليه ثم استشهاده بعد أن قتل عشرة من الروم-[١].

وتأمل معي أخي القارىء إلى ما فعله عمرو بن العاص مع عبد اللَّه بن الزبير بن عبد المطلب حين عزم عليه عمرو أن لا يبارز، ولك أن تتساءل: ما الذي دعا عمراً إلى أن يفعل هذا أو أن يعزم عليه بعدم العود إلى المبارزة؟.

لو كان الرجل يبغض عبد اللَّه لما فعل هذا؟ ولتركه يبارز دون أن يحادثه أو يخاطبه، بل إنه ربما كان يدفعه للموت دفعاً، ولكن الذي حدث غير هذا إنه أشفق عليه وخشي أن يصيبه مكروه نتيجة انسياقه وراء نشوة انتصاراته السابقة، وعبد اللَّه محق في نشوته، لأنه ما خرج إلا لدحر الكافرين وإعلاء راية الإسلام، وإذ به يحقق ما خرج إليه، ومن الطبيعي أن تأخذ منه الحمية لدينه مأخذاً، عندها أدرك عمرو الخطر المحيط بعبد اللَّه فعزم

(١) الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة: على خان المدنى (١٦٧ - ١٦٨). وراجع: الخصائص الفاطمية ، محمد باقر الكجوري (٢/ ١٣٢).

عليه ألا يبارز من جديد مخافة أن يناله سوء؛ لأنه له محب وعليه حريص، وكيف لا يحبه ولا يحرص عليه وبينهما أخوة الإسلام، ثم هو ابن عم النبي ﷺ، وعمرو يعرف له حقه وقرابته ومكانته؟ ولكن عبد اللَّه مع تقديره لعمرو أبى إلا أن يستمر في جهاده ويطيح بسيفه رقاب المشركين.

وذكر بعض المؤرخين أن الفضل بن العباس استشهد هو الآخر في هذه المعركة كما مرَّ معنا فيما ذكره البلاذري وابن الأثير والذهبي وابن كثير، وإن كان بعضهم قد نقل الاختلاف حول استشهاده بأجنادين، لا شهوده لها.

فقد ورد في طبقات خليفة في ترجمة الفضل: واستشهد بالشام يوم أجنَادَينِ في جمادي الآخرة سنة ثلاث عشرة ويقال: استشهد يوم مرج الصُّفَّر في جمادي الأولى سنة ثلاث عشرة[١].

وقد رجح ابن حجر استشهاده في أجنادين في خلافة الصديق أبي بكر حيث قال: وقال الواقدي: مات في طاعون عمواس وتبعه الزبير وابن أبي حاتم، وقال ابن السكن: قتل يوم أجنادين في خلافة أبي بكر، وقيل: باليرموك، وذكر ابن فتحون أنه وقع في الاستيعاب قتل الفضل يوم اليمامة سنة خمس عشرة وتعقَّبه بأن قال: لا خلاف بين اثنين أن اليمامة كانت أيام أبي بكر سنة إحدى أو اثنتي عشرة، وقال ابن سعد: مات بناحية الأردن في خلافة عمر والأول هو المعتمد وبمقتضاه جزم البخاري فقال: مات في خلافة أبي بكر[٢].

---

(١) طبقات خليفة، (ص٥٤٧). البداية والنهاية: ابن كثير (٧/ ٣٧).
(٢) الإصابة: ابن حجر (٥/ ٢٨٨).

وورجَّح ابن عساكر وفاته في طاعون عمواس وقال: لكن الأظهر أنه مات بناحية الأردن في طاعون عمواس، وذلك في خلافة عمر سنة ١٨هـ، أي بعد معركة أجنادين بخمس سنوات[١].

لكنه على الأظهر قد شارك أيضاً في معركة أجنادين وهذا ما ذكره بعض المؤرِّخين.

ذكر الذهبي في سيَره عن سعيد النوفلي قال: سمعت شيوخنا يقولون: لما انهزمت الروم يومئذ - أي يوم أجنادين- انطلق الفضل بن عباس في مئة نحواً من ميل، فوجد عبد اللَّه مقتولًا في عشرة من الروم قد قتلهم، فقبروه[٢].

وهذه المشاركة ظاهرة في روايات أخرى نصَّت على أن الفضل بعد موت النبي ﷺ خرج مجاهداً بناحية الشام، ومعركة أجنادين كانت بالشام.

وفي الطبقات: قالوا: وكان الفضل بن عباس فيمن غسَّل النبي ﷺ وتولى دفنه، ثم خرج بعد ذلك إلى الشام مجاهداً، فمات بناحية الأردن في طاعون عَمَواس سنة ثماني عشرة من الهجرة، وذلك في خلافة عمر بن الخطاب[٣].

وواضح هنا أن الروايات السابقة قد عدَّت الفضل بن العباس فيمن شارك في معركة أجنادين؛ لأن أجنادين كانت بالشام وكانت من أولى اللقاءات بين الروم والمسلمين، وإن كان هناك من المؤرخين من ذكر أنه توفي في هذه المعركة، وهناك من ذكر أنه وفاته كانت بعدها.

وسواء توفي الفضل في أجنادين أم بعدها، فإن الذي يعنينا هنا أنه شارك

(١) تاريخ دمشق: ابن عساكر (٤٨/ ٣١٩).
(٢) سير أعلام النبلاء: الذهبي (٣ / ٣٨٢).
(٣) الطبقات الكبرى: ابن سعد (٤/ ٥٥).

هو وابن عمه عبد اللَّه بن الزبير بن عبد المطلب بوصفهما من آل البيت مع إخوانهما من الصحابة في معركة أجنادين، وبالتالي فإنه يدخل ضمناً فيما سبق وذكرناه، من حيث إن مشاركته تدل دلالة صادقة وحقيقية على عمق العلاقة الطيبة بين آل البيت والصحابة.

وانظر معي أخي القارئ المنصف إلى الروايات السابقة التي رواها مؤرخوا أهل السنة وغيرهم حتى تتجلى لك الحقيقة ناصعة لا لبس فيها ولا خفاء، ولا تعصُّب فيها ولا جفاء.

إن هذه المعركة الفاصلة اشترك فيها الآل والأصحاب لنصرة الإسلام وإيصال رسالته إلى العالمين، فكان فيها أبو عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وشرحبيل بن حسنة والفضل بن العباس وعبد اللَّه بن الزبير بن عبد المطلب وغيرهم الكثير والكثير.

إن الفضل بن العباس وعبد اللَّه بن الزبير بن عبد المطلب بوصفهما من آل بيت النبي ﷺ قد شاركا في هذه المعركة الكبيرة جنباً إلى جنب مع إخوانهما من الصحابة تاركين موطنهم الذي ألفوه سالكين دروباً مهلكة وصحارى مقفرة، أتراهم جميعاً سلكوا وهم يحملون بين جنوبهم قلوباً مشحونة بالبغض تجاه بعضهم البعض؟

أم ترى الصحابة خرجوا برفقة عبد اللَّه بن الزبير بن عبد المطلب والفضل بن العباس إلى أجنادين وهم طوال طريقهم يفكر كل منهم في تدبير مهلكة لهما؟ إن الذي حدث غير ذلك.

ولك أن تمعن النظر مرة أخرى في صنيع عمرو بن العاص مع عبد اللَّه بن الزبير بن عبد المطلب حين عزم عليه عمرو أن لا يبارز، والرواية أوردتها

مصادر أهل السنة والإمامية على السواء، إن عمرو بن العاص تحرك بدافع من الأخوة وبوازع من المحبة، ولو كانت المسألة مسألة بغض وعداء بين الآل والأصحاب كما يزعم الزاعمون فلربما دفع عمرو بن العاص عبد اللّه بن الزبير إلى الموت دفعاً، هذا إن لم يقتله بنفسه في زحام المعركة وبين صليل سيوفها وتعالي غبارها، ولكن الذي حدث غير هذا، إنه عزم عليه ألا يبارز وفي العزم تمسك واستماتة في تحقيق ما يعزم عليه العازم.

أهذه أخلاق المتباغضين وخصال المتخاصمين باللّه خبروني يا أولي الألباب؟

ثم ألا يمكننا أن نأخذ مغزى من جهاد عبد اللّه بن الزبير والفضل بن العباس في جيش تحت قيادة عمرو بن العاص؟ ألا توجد فيها دلالة على أن الأمور بينهم ما داخلها بغض وما تخلّلها عداء؟

ثم تأمل معي إلى أسماء الصحابة الذين استُشهدوا على ثرى أرض أجنادين إن فيهم: أبان بن سعيد وأخواه خالد وعمرو، ونعيم بن عبد اللّه بن النحام، والطفيل بن عمرو، وعبد اللّه بن عمرو الدوسيان، وضرار بن الأزور، وعكرمة بن أبي جهل، وعمه سلمة بن هشام، وهبار بن سفيان، وصخر ابن نصر، وتميم وسعيد ابنا الحارث بن قيس ﵃ وغيرهم.

بل واستشهد في يوم أجنادين أيضاً طليب بن عمير، وأمه أروى بنت عبد المطلب هي عمة رسول اللّه ﷺ. ألا تدلك مشاركة هذه الأسماء على اللحمة التي كانت بين الصحابة، وعلى الهدف العظيم الذي سعوا لأجله، من غير أن تعكر صفوة عداوة مصطنعة أو بغض زائف تجاه بعضهم بعضاً، وبخاصة آل البيت والصحابة.

الفتوحات الإسلامية في خلافة الفاروق
عمر بن الخطاب رضي الله عنه

كانت خلافة الفاروق عمر رضي الله عنه خلافة خير وبركة وعطاء للمسلمين، فقد كثر فيها الخير، وأُقيم فيها العدل، وقُتلت فيها الفتنة، وكثرت فيها الفتوحات الإسلامية التي كانت تعد إيذاناً بعصرٍ جديدٍ للإسلام، حيث اتسعت في خلافة الفاروق رقعة الدولة الإسلامية، و فيها دحر اللَّه الفرس وأزال ملكهم وقوَّض أركان دولتهم؛ حيث كسرهم المسلمون في معقلهم، وخسر الروم أكبر حامياتهم.

وكان من أشهر الفتوحات والمواقع في خلافة الفاروق عمر:

فتح دمشق- وقعة النمارق- وقعة الجسر- وقعة البويب- وقعة القادسية- وقعة حمص الأولى- وقعة قنسرين- وقعة قيسارية- فتح بيت المقدس- فتح المدائن- وقعة جلولاء- فتح حلوان- فتح تكريت والموصل... فتح الأهواز ومنازر- فتح تستر- غزو بلاد فارس- فتح مصر- فتح الري- غزوة الأكراد[(١)].

وقطعاً كان لآل البيت دور كبير مع إخوانهم من الصحابة في هذه الفتوحات، ويكفينا أن نعلم أن علي بن أبي طالب وهو من أعلام آل البيت كان على رأس مستشاري الفاروق المؤتمنين وناصحيه المحبين،

---

(١) راجع: فتوح البلدان: البلاذري، ج١ (ص١٠٤-، ١٣٥، ١٣٨، ١٦٤، ٢٥٤، ٣٠٥) - البداية والنهاية: (٧/ ١٩-١٣٠).

حيث كان عمر يستشيره في الفتوحات الإسلامية، ويستخلفه على المدينة مرات عديدة وهاتان المسألتان جعلتا علياً في موضع القيادة الجزئية مع الفاروق وبتوليةٍ منه، جعلت له نصيباً غير منقوص ومشاركة تامة في الفتوحات التي كانت في خلافة الفاروق، فهو في موضع القيادة وتحمُّل المسئولية والجيش لا بد له من مسيَّر ومتابع، وناصح ومستشار وقائد.

وعليه فإنه يمكننا أن نعتبر استشارات عمر لعلي رضي الله عنهما في شأن الفتوحات من قبيل مشاركة آل البيت في الفتوحات الإسلامية في الخلافة العُمرية، وكذا استخلاف عمر لعلي مرات عديدة على المدينة يقوم بأمرها ويدير شئونها.

هذا مع علمنا أن آل البيت قطعاً شاركوا إخوانهم من الصحابة في الفتوحات الإسلامية في خلافة عمر الفاروق رضي الله عنه ، إلا أن معتمدنا هو نصُّ المؤرخ كما سبق وبينا، وعذراً أننا صرنا في عصرٍ نبرهن فيه على البدهيات، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه.

وسنلقي مزيداً من الضوء حول قضيتا استشارة الفاروق لعلي واستخلافه له واحدة تلو الأخرى حتى يتضح المقصود.

من استشارات الفاروق عمر لعلي رضي الله عنهما :

بين أيدينا الآن نماذج لاستشارات الفاروق عمر لعلي بن أبي طالب في الفتوحات التي تمت في عهده، ومنها ما يلي:

- استشارة عمر لعلي في المسير إلى العراق بعد أن استخلفه على المدينة:

فقد خرج عمر إلى ماء صرار[١] فعسكر فيه: وذلك قبيل القادسية، وكان

---

(١) صرار: موضع على ثلاثة أميال من المدينة على طريق العراق. (معجم البلدان: ٣/ ٣٩٨).

الفرس قد حشدوا للمسلمين، فجمع عمر الناس فاستشارهم فكلهم أشار عليه بالمسير، وكان علي بن أبي طالب ممن استشارهم عمر بن الخطاب.

فقد ورد في الكامل: لما اجتمع الناس إلى عمر خرج من المدينة حتى نزل على ماء يدعى صراراً، فعسكر به ولا يدري الناس ما يريد أيسير أم يقيم، وكانوا إذا أرادوا أن يسألوه عن شيء رموه بعثمان أو بعبد الرحمن ابن عوف، فإن لم يقدر هذان على علم شيء مما يريد ثلثوا بالعباس بن عبد المطلب، فسأله عثمان عن سبب حركته، فأحضر الناس فأعلمهم الخبر واستشارهم في المسير إلى العراق، فقال العامة: سر وسر بنا معك، فدخل معهم في رأيهم وقال: اغدوا واستعدوا فإني سائر إلا أن يجيء رأي هو أمثل من هذا، ثم جمع وجوه أصحاب رسول اللَّه، ﷺ، وأرسل إلى علي، وكان استخلفه على المدينة، فأتاه وإلى طلحة، وكان على المقدمة، فرجع إليه، وإلى الزبير وعبد الرحمن، وكانا على المجنبتين، فحضرا، ثم استشارهم فاجتمعوا على أن يبعث رجلًا من أصحاب رسول اللَّه، ﷺ، ويرميه بالجنود، فإن كان الذي يشتهي فهو الفتح وإلا أعاد رجلًا وبعث آخر ففي ذلك غيظ العدو.

فجمع عمر الناس وقال لهم: إني كنت عزمت على المسير حتى صرفني ذوو الرأي منكم، وقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلًا فأشيروا علي برجلٍ....[١].

- استشارة الفاروق عمر لعلي حين أراد تقسيم سواد الكوفة وأخذه برأي علي:

ذكر اليعقوبي- من علماء الإمامية- في تاريخه: وشاور عمر أصحاب

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير (١/٤٠٨) القصة رواها الطبري في تاريخه (٣/ ٤٨٠ - ٤٨١).

رسول اللَّه في سواد الكوفة، فقال له بعضهم: تقسمها بيننا، فشاور عليا، فقال: إن قسمتها اليوم لم يكن لمن يجئ بعدنا شيء، ولكن تقرها في أيديهم يعملونها، فتكون لنا ولمن بعدنا. فقال: وفقك اللَّه! هذا الرأي[1].

- استشارة الفاروق لعلي في أن يغزو الروم بنفسه:

ذكر الشريف الرضي- من علماء الإمامية- في نهج البلاغة: ومن كلام له عليه السلام وقد شاوره عمر بن الخطاب في الخروج إلى غزو الروم بنفسه: وقد توكل اللَّه لأهل هذا الدين بإعزاز الحوزة، وستر العورة، والذي نصرهم وهم قليل لا ينتصرون، ومنعهم وهم قليل لا يمتنعون: حي لا يموت، إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك فتلقهم بشخصك فتنكب لا تكن للمسلمين كانفة دون أقصى بلادهم. ليس بعدك مرجع يرجعون إليه. فابعث إليهم رجلًا مجرِّباً، واحفز معه أهل البلاء والنصيحة، فإن أظهر اللَّه فذاك ما تحب، وإن تكن الأخرى كنت ردءا للناس ومثابة للمسلمين[2].

- استشارة الفاروق لعلي في الذهاب إلى قتال الفرس:

فقد ورد في نهج البلاغة تحت عنوان: ومن كلام له«وقد استشاره عمر بن الخطاب في الشخوص لقتال الفرس بنفسه» ما نصه: إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة، وهو دين اللَّه الذي أظهره، وجنده الذي أعده وأمده، حتى بلغ ما بلغ وطلع حيث طلع، ونحن على موعود من اللَّه. واللَّه منجز وعده وناصر جنده، ومكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز

(١) تاريخ اليعقوبي (٢/ ١٥١- ١٥٢).
(٢) نهج البلاغة (٢ / ١٨).

يجمعه ويضمه. فإن انقطع النظام تفرق وذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً، والعرب اليوم وإن كانوا قليلًا فهم كثيرون بالإسلام وعزيزون بالاجتماع، فكن قطباً، واستدر الرحى بالعرب، وأصلهم دونك نار الحرب، فإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا: هذا أصل العرب فإذا قطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك وطمعهم فيك، فأما ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين فإن اللَّه سبحانه هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأما ما ذكرت من عددهم فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة(١).

وهذا النص فيه إشارة إلى عزم عمر رضي الله عنه على الخروج لقتال الفرس بنفسه في نهاوند ونصح الصحابة له ومنهم قطعاً علي بن أبي طالب عليه السلام، وهذا ما أوردته أيضاً مصادر أهل السنة تفصيلًا.

وذلك أن أهل الري وأصبهان وهمذان ونهاوند تعاقدوا وتعاهدوا وقالوا: إن رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم نبي العرب الذي أقام لها دينها مات، وإن ملكهم من بعده ملَكَ يسيراً يعنى أبا بكر ثم هلك، وإن عمر قد طال ملكه ومكثه وتأخر أمره حتى جيَّش إليكم الجيوش في بلادكم وليس بمنقطع عنكم حتي تسيروا إليهم في بلادهم فتقتلوهم، فلما بلغ الخبر أهل الكوفة من المسلمين كتبوا إلى عمر، فلما أخذ عمر الصحيفة مشى بها إلى منبر رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم وهو باك

(١) نهج البلاغة (٢ / ٢٩ - ٣٠).

وجعل ينادى، أين المسلمون أين المهاجرون والأنصار من ههنا من المسلمين؟ فلم يزل ينادى حتى امتلأ عليه المسجد رجالًا، ثم صعد المنبر فحمد اللَّه وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإن الشيطان قد جمع لكم جموعاً كثيرة وأقبل بها عليكم، ألا وإن أهل الري وأصبهان وأهل همذان وأهل نهاوند أمم مختلفة ألوانها وأديانها، ألا وإنهم تعاقدوا وتعاهدوا على أن يسيروا إليكم فيقتلوكم، ألا وإن هذا يوم له ما بعده من الأيام، ألا فأشيروا علي برأيكم، فقام طلحة بن عبيد اللَّه فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، يا أمير المؤمنين فقد حنكتك البلايا وعجمتك التجارب وقد ابتليت يا أمير المؤمنين واختبرت فلم ينكشف شيء من عواقب قضاء اللَّه لك إلا عن خيار وأنت يا أمير المؤمنين ميمون النقيبة مبارك الأمر، فمرنا نطع وادعنا نجب واحملنا نركب، فأثنى عمر على طلحة خيراً ثم جلس، فقام عثمان بن عفان، فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال: يا أمير المؤمنين إني أرى أن تكتب إلى أهل الشام فيسيرون إليك من شامهم، وتكتب إلى أهل اليمن فيسيرون من يمنهم، وتسير أنت بمن معك من أهل هذين الحرمين إلى هذين المصرين، فإنك لو فعلت ذلك كنت أنت الأعز والأكبر وإن هذا يوم له ما بعده من الأيام، وأثنى عليه عمر فجلس، فقام علي بن أبي طالب فحمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال: أما بعد يا أمير المؤمنين فإنك إن تكتب إلى أهل الشام أن يسيروا إليك من شامهم إذا تسير الروم إلى ذراريهم فتسبيهم، وإن تكتب إلى أهل اليمن أن يسيروا إليك من يمنهم إذا تسير الحبشة إلى ذراريهم فتسبيهم، وإن سرت أنت بمن معك من أهل هذين الحرمين إلى هذين المصرين إذا واللَّه انتقضت عليك الأرض من أقطارها وأكنافها وكان واللَّه

يا أمير المؤمنين من تخلف وراءك من العورات والعيالات أهم إليك مما بين يديك من العجم، ولا للّه يا أمير المؤمنين لو أن العجم نظروا إليك عياناً إذاً لقالوا: هذا عمر هذا إريس[١] العرب وكان واللّه أشد لحربهم وجرأتهم عليك، وأما ما كرهت من مسير هؤلاء القوم فإن اللّه أكره لمسيرهم منك وهو أقدر على تغيير ما كره، وأما ما ذكرت من كثرتهم فإنا كنا ما نقاتل مع نبينا بالكثرة ولكنا نقاتل معه بالنصرة من السماء، وأنا أرى يا أمير المؤمنين رأياً من تلقاء نفسي رأيي أن تكتب إلى أهل البصرة فيفترقوا على ثلاث فرق: فرقة تقيم في أهل عهودهم بأن لا ينتقضوا عليهم، وفرقة تقيم من ورائهم في ذراريهم، وفرقة تسير إلى إخوانهم بالكوفة مدداً لهم، فطبق عمر ثم أهل مكبراً يقول: اللّه أكبر اللّه أكبر هذا رأى هذا رأى كنت أحب أن أتابع صدق ابن أبي طالب، لو خرجت بنفسي لنقضت علي الأرض من أقطارها، ولو أن العجم نظروا إلي عياناً ما زالوا عن العرص[٢] حتى يقتلوني أو أقتلهم، أشر عليَّ يا علي بن أبي طالب برجل أوليه هذا الأمر، قال: مالي ولهم هم أهل العراق وفدوا عليك ورأوك ورأيتهم وتوسمتهم وأنت أعلمنا بهم، قال عمر: إن شاء اللّه لأولين الراية غداً رجلًا يكون لأول أسنة يلقاها وهو النعمان بن مقرن المزني، ثم دعا عمر السائب بن الأقرع الكندي فقال: يا سائب أنت حفيظ على الغنائم بأن تقاسمها، فإن اللّه أغنم هذا الجيش شيئاً فلا تمنعوا أحداً حقاً هو له ثكلتك أمك يا سائب، وإن هذا الجيش هلك فاذهب عنى في عرض

---

(١) إريس: ملك (لسان العرب ٦/ ٥).

(٢) العرص: خشبة توضع على البيت عرضاً إذا أرادوا تسقيفه، وتطلق أيضاً على الموضع الواسع الذي لا بناء فيه، ولعل هذا المعنى هو المراد هنا. (راجع: النهاية ٣/ ٢٠٨).

الأرض فلا أنظر إليك بواحدة فإنك تجيئني بذكر هذا الجيش كلما رأيتك[١].

- استشارة عمر لعلي في الذهاب إلى بيت المقدس لما طلب منه ذلك أبو عبيدة رضي الله عنه لعقد الصلح:

فقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق بسنده عن عدي بن سهيل قال: لما استمد أهل الشام عمر على أهل فلسطين استخلف علياً وخرج ممداً لهم فقال له علي: أين تخرج بنفسك؟ إنك تريد عدواً كلباً[٢] فقال: إني أبادر بجهاد العدو موت العباس إنكم لو قد فقدتم العباس لانتقض بكم الشر كما ينتقض الحبل فمات العباس لست سنين خلت من إمارة عثمان فانتقض واللَّه بالناس الشر[٣].

من صور استخلاف الفاروق عمر لعلي على المدينة:

ثبت استخلاف الفاروق عمر لعلي بن أبي طالب على المدينة في مواضع عديدة لعل من أهمها:

- استخلاف عمر لعلي حين خرج إلى ماء صرار وقد ذكرنا ذلك آنفا[٤].

- استخلاف عمر لعلي عند نزوله بالجابية[٥]:

---

(١) الثقات: ابن حبان (٢/ ٢٢٤ - ٢٢٧) - الأخبار الطوال: ابن قتيبة الدينوري، (ص١٣٤)- الكامل: ابن الأثير، (٣/ ٧).

(٢) متكالباً على القتال ومجتمعاً عليه.

(٣) تاريخ دمشق: ابن عساكر (٢٦/ ٣٧٢) وانظر: تاريخ الطبري (٣/ ١٠٤)- الكامل (٢/ ٥٠٠).

(٤) الكامل في التاريخ (١/ ٤٠٨).

(٥) الجابِية: بكسر الباء، وياء مخففة، وأصله في اللغة الحوض الذي يجبى فيه الماء للإبل.. وهي قرية من أعمال دمشق ثم من عمل الجيدور من ناحية الجولان قرب مرج الصُّفَّر في =

وقد مرَّ ذلك معنا[١] حين دعاه أبو عبيدة لفتح بيت المقدس وعقد صلحها.

وقد خرج عمر إلى الشام أربع مرات وقد عدَّها الطبري في تاريخه حيث قال: وجميع ما خرج عمر إلى الشأم أربع مرات، فأما الأولى فعلى فرس، وأما الثانية فعلى بعير، وأما الثالثة فقصر عنها أن الطاعون مستعر، وأما الرابعة فدخلها على حمار فاستخلف عليها وخرج[٢].

- استخلاف عمر لعلي حين خرج إلى الشام الخرجة الأخيرة[٣].

وكان علي رضي الله عنه طيلة حياة عمر رضي الله عنه وفياً ومحباً له ومستشاراً صادقاً فيما استشاره فيه، وكان عمر رضي الله عنه يبادله هذا الحب ويعرف له قدره ومنزلته وسبقه في الإسلام وقرابته من رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم، وكانت بينهما مودة ومحبة وثقة متبادلة تُوِّجت بزواج عمر من أم كلثوم بنت علي وفاطمة رضي الله عنهم، وهذه مسلَّمة تاريخية من المسلمات.

= شمالي حوران، إذا وقف الإنسان في الصنمين واستقبل الشمال ظهرت له، وتظهر من نوى أيضا، وبالقرب منها تل يسمى تل الجابية، فيه حيات صغار نحو الشبر، عظيمة النكاية، يسمونها أم الصويت، يعنون أنها إذا نهشت إنساناً صوت صوتاً صغيراً ثم يموت لوقته، وفي هذا الموضع خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه وخطبته المشهورة، وباب الجابية بدمشق منصوب إلى هذا الموضع، ويقال لها: جابية الجولان أيضاً. (انظر: معجم البلدان للحموي (٢ / ٩١).

(١) تاريخ دمشق: ابن عساكر (٢٦ / ٣٧٢) وانظر: تاريخ الطبري (٣/ ١٠٤)- الكامل: (٢/ ٥٠٠).

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ١٠٣).

(٣) تاريخ الطبري (٣/ ١٦٤).

فتح بيت المقدس :

كان من الفتوحات الهامة التي حدثت في خلافة الفاروق عمر رضي الله عنه فتح بيت المقدس، حيث حاصر المسلمون تحت قيادة أبي عبيدة رضي الله عنه بيت المقدس وضيَّقوا على أهلها حتى أجابوا إلى الصلح بشرط أن يَقدُم عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأرسل أبو عبيدة رضي الله عنه إلى عمر رضي الله عنه يخبره الخبر، واستشار عمر الصحابة فأشار علي بن أبي طالب رضي الله عنه عليه بالمسير، ورأى عثمان بن عفان رضي الله عنه غير ذلك، فأخذ عمر رضي الله عنه برأي علي رضي الله عنه وولَّاه على المدينة وسار إلى الشام وعلى مقدمته العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، ثم صالح النصارى، واشترط عليهم شروطاً ذكرها المؤرخون في معرض حديثهم عن فتح بيت المقدس[١] .

وما يخصنا هنا في بحثنا هو أن هذا الفتح العظيم في خلافة الفاروق قد شارك فيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالرأي والمشورة أولًا حين شاوره في المضي لبيت المقدس فأشار عليه علي بالمضي، ثم ببقائه في المدينة حين استخلفه عليها عمر رضي الله عنه يتولى أمرها ويدير شئونها.

كما شارك العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه في فتح بيت المقدس حيث كان على مقدمة الجيش الذي ذهب مع عمر رضي الله عنه لعقد صلح بيت المقدس وفتحها.

وقد ذكر ابن عساكر في تاريخه مصاحبة العباس بن عبد المطلب للفاروق عمر في الخروج إلى الشام، وأورد ذلك في ترجمته للعباس حيث قال بعد

---

(١) راجع: البداية والنهاية (٧/ ٦٥).

ذكر نسبه وإسلامه: «وقدم الشام مع عمر بن الخطاب»[(١)].

وزاد ابن عساكر في شأن مصاحبة العباس لعمر وملازمته له في خروجه إلى الشام إلى أن تمَّ له ما أراد حيث روى بإسناده عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما دنا عمر من الشام وأخذ طريق أيلة تنحَّى معه غلامه فلما أراد الركوب عمد إلى مركب غلامه وإن عليه لفرواً مقلوباً، فركب وحوَّل غلامه على رحل نفسه وهو على جمل أحمر، وعمر يومئذ متزر بإزار ومرتد بعمامة على حقبيه تحته فرو، وأن العباس لبين يديه على عتيق[(٢)] يتقذى به وكان رجلًا جميلًا، فجعلت البطارقة يسلمون عليه، ويشير أني لست به وأنه ذاك فيسلمون عليه ويرجعون معه حتى انتهى إلى أيلة والجابية وتوافى إليه بها المسلمون وأهل الذمة.

قالوا: وركب عمر من الجابية يريد الأردن بعدما قضى ما أراد وقد توافي إليه الناس ووقف له المسلمون وأهل الذمة، فخرج عليهم على حمار وأمامه العباس على فرس، فلما رآه أهل الكتاب سجدوا له، فقال: لا تسجدوا للبشر واسجدوا للَّه، ومضى في مسيره، وقال القسيسون والرهبان: ما رأينا أحداً قط أشبه بما يوصف من الحواريين من هذا الرجل، ثم دخل الأردن على بعيره[(٣)].

فما أورده ابن عساكر فيه خير دلالة على مشاركة آل البيت للصحابة في

---

(١) تاريخ دمشق: ابن عساكر (٢٦/ ٢٧٣ - ٢٧٤).

(٢) العتيق: الخيار من كل شيء فيقال: فرس عتيق، أي جواد رائع. راجع: مختار الصحاح (٢١٨) القاموس المحيط: (٣/ ٢٦١).

(٣) تاريخ دمشق: ابن عساكر (٢٦/ ٢٧٥).

الفتوحات في خلافة الفاروق، كما ظهر من مصاحبة العباس للفاروق في فتح إيلياء وكتابة الصلح بين المسلمين وأهلها، وهذا فتح عظيم لا شك.

وقد لخص ابن كثير ما ذكر في فتح بيت المقدس وذكر دور كل من علي والعباس مع الفاروق عمر رضي الله عنهم، وقال:

إن أبا عبيدة لما فرغ من دمشق كتب إلى أهل إيليا يدعوهم إلى اللَّه وإلى الإسلام، أو يبذلون الجزية أو يؤذنوا بحرب، فأبوا أن يجيبوا إلى ما دعاهم إليه. فركب إليهم في جنوده واستخلف على دمشق سعيد بن زيد، ثم حاصر بيت المقدس وضيق عليهم حتى أجابوا إلى الصلح بشرط أن يقدم إليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فكتب إليه أبو عبيدة بذلك، فاستشار عمر الناس في ذلك، فأشار عثمان بن عفان بأن لا يركب إليهم ليكون أحقر لهم وأرغم لأنوفهم. وأشار علي بن أبي طالب بالمسير إليهم ليكون أخف وطأة على المسلمين في حصارهم بينهم، فهوى ما قال علي ولم يهو ما قال عثمان. وسار بالجيوش نحوهم واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب وسار العباس بن عبد المطلب على مقدمته، فلما وصل إلى الشام تلقاه أبو عبيدة ورؤوس الأمراء، كخالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، فترجَّل أبو عبيدة وترجَّل عمر، فأشار أبو عبيدة ليقبِّل يد عمر فهمَّ عمر بتقبيل رجل أبي عبيدة، فكفَّ أبو عبيدة فكفَّ عمر، ثم سار حتى صالح نصارى بيت المقدس واشترط عليهم إجلاء الروم إلى ثلاث، ثم دخلها، إذ دخل المسجد من الباب الذي دخل منه رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الإسراء[1].

---

(١) البداية والنهاية: ابن كثير (٧/ ٦٤ - ٦٦).

وروى الطبري رواية تؤكد خروج العباس مع عمر رضي الله عنهما لفتح بيت المقدس: حيث روى بسنده عن رافع بن عمر قال: سمعت العباس بالجابية يقول لعمر: أربع من عمل بهن استوجب العدل الأمانة في المال، والتسوية في القسم، والوفاء بالعدة، والخروج من العيوب، نظف نفسك وأهلك[(١)].

وتوالت بعد ذلك الفتوحات العُمَرية فتحاً تلو آخر، وبالقطع كانت هناك مشاركات للآل مع الأصحاب فيها ولم أحظ بنصٍ للمؤرخين على أسمائهم مجتمعة ولعل ذلك سببه أنها مسألة بدهية لا تحتاج إلى تدليل، وأن همة المؤرخين لم تكن منصبَّة ومركوزة على استقصاء الأسماء، لكن ما سبق فيه خير دليل على مشاركة الآل مع الأصحاب في الفتوحات الإسلامية التي تمت في خلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

* * *

(١) تاريخ الطبري (٣/ ١٦٥).

الفتوحات الإسلامية في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه

لعلنا لا نغالي إذا قلنا: إن خلافة ذي النورين عثمان رضي الله عنه كانت خلافة الخير والرزق والبركة، ففيها عمَّت البركة أرجاء خلافته رضي الله عنه وتناقل الركبان أخبار رحمته، واتسعت رقعة الإسلام في عهده، وكان من أشهر الفتوحات في خلافته: فتح أرمينية، وفتح طرابلس والشام، وفتح جزيرة قبرص، وغزو أفريقية، ومعركة ذات الصواري، وفيما يلي بيان فتوحات عثمان التي شارك فيها الآل والأصحاب رضي الله عنهم .

فتح سُبَيْطِلة[1] بأفريقية :

كان من الفتوحات التي شارك فيها الآل مع الأصحاب فتح سُبَيطِلة من أفريقية في سنة سبع وعشرين للهجرة، حيث ذكر المؤرخون بعض أعلام آل البيت والصحابة في جملة من شارك في هذا الفتح.

وبداية لابد من بيان أن هذا الفتح العظيم دعت الضرورة إليه، وكان لابد منه للمسلمين، فبعد أن فتح عمرو بن العاص مصر ودخل مدينة الإسكندرية التي كانت عاصمة الحكم آنذاك أرسل حملة لفتح برقة وطرابلس سنة ٢٣ هـ وتم لها هذا الفتح، غير أن طرابلس وبرقة سرعان ما أعلنت انفصالها عن الدولة الإسلامية، كما نقل جرجير حاكم أفريقية قاعدة حكمه إلى داخل

---

(١) ذكر الحموي في ضبطه لاسم سبيطلة: «سُبَيطِلة» بضم أوله، وفتح ثانيه، وياء مثناة من تحت، وطاء مكسورة، ولام: مدينة من مدن إفريقية وهي كما يزعمون مدينة جرجير الملك الرومي، وبينها وبين القيروان سبعون ميلًا. (معجم البلدان للحموي: ٣ / ١٨٧).

أفريقية وجعل من مدينة سُبيطلة مقراً لها، حينها كان لا بد للمسلمين من أن يفتحوا هذه المدينة ويقهروا الحكم الروماني فيها، وكانت معركة سبيطلة.

وكانت هذه المعركة الكبيرة بقيادة القائد المسلم عبد اللَّه بن سعد بن أبي سرح الذي تولى أمر مصر خلفاً للقائد عمرو بن العاص، عندها استأذن عبد اللَّه بن سعد خليفة المسلمين عثمان بن عفان في فتح سُبَيطِلة، وكان الأمر جد خطير، فاستشار عثمان من معه من كبار الصحابة فأشاروا عليه بفتحها، وأمده بجيش كبير فيه عدد كبير من أعلام آل البيت والصحابة وأهل مكة، وكان منهم: ابن عباس وابن عمر وابن عمرو بن العاص وابن جعفر والحسن والحسين وابن الزبير رضي الله عنهم، وفيما يلي عرض لوقائع هذه المعركة ومن شارك فيها كما نصَّ عليها المؤرخون.

وعن قصة هذا الفتح العظيم وما دار فيه ومن شارك فيه يقول ابن الأثير:

« إنَّ عبد اللَّه بن سعد لما ولي أرسل إلى عثمان في غزو إفريقية والاستكثار من الجموع عليها وفتحها، فاستشار عثمان من عنده من الصحابة فأشار أكثرهم بذلك، فجهز إليه العساكر من المدينة **وفيهم جماعة من أعيان الصحابة منهم عبد اللَّه بن عباس وغيره** رضي الله عنهم، فسار بهم عبد اللَّه بن سعد إلى إفريقية، فلما وصلوا إلى برقة لقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين وكانوا بها وساروا إلى طرابلس الغرب، فنهبوا من عندها من الروم، وسار نحو إفريقية، وبثَّ السرايا في كل ناحية، وكان ملكهم اسمه جرجير[(١)]، وملكه من طرابلس إلى طنجة،

(١) وفي بعض المصادر ورد أن اسمه جرجيس.

وكان هرقل ملك الروم قد ولَّاه إفريقية فهو يحمل إليه الخراج كل سنة، فلما بلغه خبر المسلمين تجهَّز وجمع العساكر وأهل البلاد فبلغ عسكره مائة ألف وعشرين ألف فارس، والتقى هو والمسلمون بمكان بينه وبين مدينة سُبيطلة يوم وليلة، وهذه المدينة كانت ذلك الوقت دار الملك، فأقاموا هناك يقتتلون كل يوم، وراسله عبد اللَّه بن سعد يدعوه إلى الإسلام أو الجزية فامتنع منهما وتكبَّر عن قبول أحدهما، وانقطع خبر المسلمين عن عثمان فسيَّر عبد اللَّه بن الزبير في جماعة إليهم ليأتيه بأخبارهم، فسار مجدَّاً، ووصل إليهم، وأقام معهم، ولما وصل كثر الصياح والتكبير في المسلمين، فسأل جرجير عن الخبر، فقيل: قد أتاهم عسكر، ففتَّ ذلك في عضده، ورأى عبد اللَّه بن الزبير قتال المسلمين كل يوم من بكرة إلى الظهر فإذا أذن بالظهر عاد كل فريق إلى خيامه...

ثم إن عبد اللَّه بن الزبير قال لعبد اللَّه بن سعد: إن أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد متصلة وبلاد هي لهم ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين ونقاتل نحن والروم في باقي العسكر إلى أن يضجروا ويملوا، فإذا رجعوا إلى خيامهم، ورجع المسلمون ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غرة فلعل اللَّه ينصرنا عليهم، فأحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك، فلما كان الغد فعل عبد اللَّه ما اتفقوا عليه، وأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم وخيولهم عندهم مسرجة ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالاً شديداً، فلما أذن بالظهر هم الروم بالانصراف على العادة فلم يمكنهم ابن الزبير وألحَّ عليهم بالقتال حتى

أتعبهم ثم عاد عنهم هو والمسلمون فكل من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعبا، فعند ذلك أخذ عبد اللَّه بن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين وقصد الروم فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم وحملوا حملة رجلٍ واحدٍ وكبَّروا، فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون، وقتل جرجير؛ قتله ابن الزبير، وانهزم الروم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأخذت ابنة الملك جرجير سبية، ونازل عبد اللَّه بن سعد المدينة فحصرها حتى فتحها ورأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار.... [(١)].

وذكر ابن خلدون في تاريخه فتح سُبيطِلة من أفريقية، وأورد بعض أسماء أعلام آل البيت والصحابة الذين شاركوا في هذا الفتح المبارك ومما أورده في ذلك قوله:

«ثم إن عبد اللَّه بن أبي سرح كان أمره عثمان بغزو إفريقية سنة خمس وعشرين... وأمَّر عقبة بن نافع بن عبد القيس على جندٍ، وعبد اللَّه بن نافع بن الحرث على آخر، وسرحهما، فخرجوا إلى إفريقية في عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة أهلها، ثم إن عبد اللَّه بن أبي سرح استأذن عثمان في ذلك واستمده فاستشار عثمان الصحابة، فأشاروا به فجهَّز العساكر من المدينة، **وفيهم جماعة من الصحابة منهم: ابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو بن العاص، وابن جعفر، والحسن، والحسين، وابن الزبير** رضي الله عنهم ، وساروا

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير (٣/ ٨٨ - ٩١).

مع عبد اللَّه بن أبي سرح سنة ست وعشرين ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة، ثم ساروا إلى طرابلس، فنهبوا الروم عندها، ثم ساروا إلى إفريقية وبثوا السرايا في كل ناحية، وكان ملكهم جرجير يملك ما بين طرابلس وطنجة تحت ولاية هرقل ويحمل إليه الخراج، فلما بلغه الخبر جمع مائة وعشرين ألفاً من العساكر ولقيهم على يوم وليلة من سُبيطلة دار ملكهم، وأقاموا يقتتلون ودعوه إلى الإسلام أو الجزية، فاستكبر **ولحقهم عبد الرحمن بن الزبير** مدداً بعثه عثمان لما أبطأت أجنادهم، وسمع جرجير بوصول المدد ففتَّ في عضده. . . . . - وساق الخبر السابق-[1].

ويزيد ياقوت الحموي في معجم البلدان الأمر وضوحاً في شأن من كان حضر معركة سُبيطلة من آل البيت والصحابة ويقول:

وأما فتحها- أي أفريقية- فذكر أحمد بن يحيى بن جابر أن عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ولى عبد اللَّه بن سعد بن أبي سرح مصر وأمره بفتح إفريقية، وأمدَّه عثمان بجيش فيه **معبد بن العباس بن عبد المطلب، ومروان بن الحكم بن أبي العاص، وأخوه الحارث بن الحكم، وعبيد اللَّه بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد اللَّه بن عمرو بن العاص، وعبد اللَّه بن الزبير بن العوام، والمسور بن مخرمة . . . وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وعبد اللَّه وعاصم ابنا عمر بن الخطاب، وبسر بن أبي أرطأة العامري، وأبو ذؤيب الهذلي الشاعر** رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ، وذلك في سنة ٢٩ وقيل: سنة ٢٨، وقيل: ٢٧، ففتحها عنوة وقتل بطريقها، وكان يملك ما بين طرابلس إلى طنجة،

---

(١) تاريخ ابن خلدون: (٢/١٢٨- ١٣٠) راجع: كتاب الفتوح، أحمد بن أعثم الكوفي، (٢ / ٣٦٠ - ٣٦٢).

وغنموا واستاقوا من السبي والمواشي ما قدروا عليه، فصالحهم عظماء أفريقية على ثلاثمائة قنطار من الذهب على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم، فقبل ذلك منهم...[١].

تعقيب:

ومن مجموع الروايات السابقة بعامة، ورواية ابن خلدون بخاصة، يتضح لنا أن مجموعة من كبار آل البيت والصحابة قد اشتركوا في لحمة واحدة في فتح مدينة سبيطلة من مدن أفريقية، وقد ذكرت الروايات مجموعة من الأسماء الشهيرة من أعلام آل البيت والصحابة:

فمن الآل: الحسن والحسين وابن جعفر- ابن أبي طالب- وابن عباس رضي الله عنهم وهم من الأصحاب أيضاً فقد جمعوا بين شرفي الصحبة والقربى، وأما من حاز شرف الصحبة ممن شارك في هذه المعركة فمنهم: عبد اللَّه ابن عمر وعبد اللَّه بن عمرو بن العاص وابن الزبير وعبد اللَّه بن سعد بن أبي سرح وعبد الرحمن بن أبي بكر والمسور بن مخرمة، وعبد الرحمن ابن زيد بن الخطاب. وكان ممن شارك أيضاً عبيد اللَّه بن عمر رضي الله عنهم وقد ولد عبيد اللَّه في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم[٢] وعاصم بن عمر بن الخطاب وقد ذكر ابن حجر أنه ولد قبل وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بسنتين[٣].

ولك أن تمعن معي أخي القارىء في هذه الأسماء ففيها أبناء لعلي

---

(١) معجم البلدان: الحموي (١/ ٢٢٩). وانظر: تاريخ اليعقوبي (٢ / ١٦٥- ١٦٦).
(٢) الإصابة: (٥/ ٤١).
(٣) الإصابة: (٥/ ٣). وانظر: الاستيعاب (٢/ ٧٨٢).

وللعباس وللصديق أبي بكر وللفاروق عمر قد شاركوا جميعاً في هذه المعركة العظيمة، فهؤلاء الآل العظام والصحابة الكرام قد تعانقت قطرات دمائهم المسالة على ثرى أفريقية كما تعانقت أجسادهم وقلوبهم، رجاء هدف واحد وغاية واحدة ألا وهي نشر الإسلام في ربوع الدنا عن طريق تأمين طريق دعوته حتى تصل للعالمين.

ومن أجل هذا الهدف العظيم تركوا الأهل والبلدان وفارقوا الأحباب والخلان وجابوا الفيافي والقفار والوديان والأنهار في بلاد لا أنيس لهم فيها ولا جليس ولا ناصر ولا معين إلا رب العالمين.

ولك أن تتخيل معي أخي القاريء المنصف مدى الأهوال التي لقيها الآل والأصحاب في طريقهم الطويل من المدينة إلى سُبيطلة بأفريقية، أترى أنهم جابوا هذا الطريق الطويل واقتحموا الخطوب والدروب وصاحبوا الأهوال والكروب وهو يحملون بين جنوبهم قلوباً يملؤها الغل والحقد والبغضاء والشحناء تجاه بعضهم البعض؟ أهذا أمر يتخيل فضلًا عن أن يعقل أو يقبل؟ ثم أتراهم اقتحموا هذه الأهوال العظام وهذا الطريق الموحش الطويل ولم يحدث بينهم كلام ولا سلام، ألم يأكلوا من مزود واحد، ويشربوا من إناء واحد ويصلوا صلاة واحدة قد تراصّت فيها أبدانهم، وتآخت فيها قلوبهم، وعلت فيها أصواتهم بالدعاء إلى المولى جل وعلا بالنصرة والتمكين؟ أيمكن في هذا الطريق الطويل أن يجانب عبد اللَّه بن الزبير الحسن والحسين رضي الله عنهم وهو ابن الزبير بن العوام بن خويلد أخي خديجة بنت خويلد أم فاطمة وجدة الحسن والحسين رضي الله عنهم، ثم هو مَن جدته لأبيه؟ إنها صفية بنت عبد المطلب عمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأمه أسماء

ذات النطاقين بنت الصديق أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؟ أتراهم دخلوا معركة سُبيطلة الفاصلة وكل منهم يتمنى الموت لصاحبه؟ أهذه أخلاق جيش يمكَّن له وينتصر في بلاد لم يألفها وسهول لم يعرفها؟ أهذا أمر يعقل؟ أهذا أمر يقبل؟ الإجابة متروكة لك أخي القارئ الكريم.

* * *

فتوح أفريقية واستشهاد معبد وعبد الرحمن ابني العباس فيها

توالت فتوحات المسلمين في أفريقية في زمن الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه بقيادة القائد المجاهد عبد اللَّه بن سعد بن أبي السرح رضي الله عنه، ولم تقتصر مشاركة آل البيت على فتح سُبيطلة بل إنهم قد شاركوا في غيرها، وقتل منهم على ثرى أفريقية معبد بن العباس بن عبد المطلب، وعبد الرحمن بن العباس بن عبد المطلب على اختلاف فيه، وإليك ما ذكره العلماء في هذا الصدد.

ورد في الاستيعاب في ترجمة عبد الرحمن بن العباس بن عبد المطلب:

عبد الرحمن بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ولد على عهد رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم، وقتل بإفريقية شهيداً هو وأخوه معبد بن العباس في زمن عثمان بن عفان مع عبد اللَّه بن سعد بن أبي سرح هذا قول مصعب وغيره، وقال ابن الكلبي: قتل عبد الرحمن بن العباس بالشام[١]. وجزم ابن حجر باستشهاده في أفريقية[٢].

وفي الاستيعاب أيضا في ترجمة معبد بن العباس بن عبد المطلب:

معبد بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي يكنى أبا العباس، ولد على عهد رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم ولم يحفظ عنه، قتل بإفريقية

(١) الاستيعاب: ابن عبد البر (٢ /٨٣٨) و أسد الغابة: ابن الأثير (٣/ ٣٠٤).
(٢) الإصابة: ابن حجر (٦/ ٣٣).

شهيداً سنة خمس وثلاثين في زمن عثمان، وكان غزاها مع ابن أبي سرح، وأمه أم الفضل لبابة بنت الحارث أخت ميمونة زوج النبي ﷺ وهى أم الفضل(١).

وفي الإصابة في ترجمة معبد بن العباس: معبد بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي أحد الإخوة، قال ابن عبد البر: ولد في عهد النبي ﷺ ولم يسمع منه، واستشهد بإفريقية في خلافة عثمان سنة خمس وثلاثين، وقيل: استشهد بها بعد ذلك في خلافة معاوية، وذكر الدارقطني في كتاب الإخوة أن علياً ولَّاه مكة(٢).

وفي البداية والنهاية: معبد بن العباس بن عبد المطلب بن عم رسول اللَّه ﷺ، قتل شاباً بأفريقية من بلاد المغرب(٣).

وورد في الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة في ترجمة معبد بن العباس:

معبد بن العباس بن عبد المطلب أمه أم الفضل أيضاً، ولد على عهد رسول اللَّه ﷺولم يحفظ عنه شيئاً، وقتل بإفريقيا(٤).

ومما سبق يتبين لنا استشهاد معبد بن العباس على أرض أفريقية في خلافة عثمان في جيش عبد اللَّه بن أبي السرح، كما ذكر ابن عبد البر وابن كثير وابن حجر، وإن كان ابن حجر ذكر رأياً آخر مفاده أنه توفي في أفريقية ولكن في عهد معاوية إلا أنه ذكر هذا الرأي بصيغة التمريض وهي «قيل» وهي

---

(١) الاستيعاب: ابن عبد البر (٣ / ١٤٢٧) وطبقات خليفة: (ص٥٣٠).
(٢) الإصابة: ابن حجر (٦/ ٢٠٧).
(٣) البداية والنهاية: ابن كثير (٧ / ٢٤٨).
(٤) الدرجات الرفيعة: على خان المدني، (ص١٥٢).

صيغة لا تفيد جزماً بل إنها مرجوحة بما سبقها، أما بالنسبة لأخيه عبد الرحمن بن العباس فقد اختلف في مشاركته وحكى ابن عبد البر هذا الاختلاف، وجزم ابن حجر باستشهاده في أفريقية، وهذا ما يرجحه الباحث، وسواء أكان مقتله في أفريقية أم في الشام فإن موطن الاستدلال واحد ألا وهو خروجه للمشاركة في الفتوحات مع إخوانه من الصحابة رضي الله عنهم .

وفي هذه المشاركة دلالة على سلامة صدورهم ونقاء سرائرهم، فما أخرجهم إلا هدف عظيم فارقوا من أجله بلادهم وأبناءهم وخرجوا مع إخوان لهم في الدين يجمعهم الحب وتؤلف بينهم المودة والرحمة، فكانت قلوبهم أبعد ما تكون عن البغضاء والشحناء تجاه بعضهم البعض .

وعلى من يريد أن يثبت العكس أن يأتي بالدليل، وأنَّى له ذلك؟

فتح طَبَرِستَان ونواحيها «جُرجان وطُمَيسَة»:

كان من الفتوحات التي شارك فيها الآل والأصحاب معا لنصرة الإسلام وامتزجت فيها دماؤهم وآمالهم فتح طبرستان ونواحيها كجُرجان وطُميسة، وكان هذا الفتح من الفتوحات صعبة المنال؛ نظراً لحصانة تلك البلاد ومنعتها ووعورة مسالكها ودروبها، وبخاصة جُرجَان وطُميسَة، فقد فتح المسلمون هذه الناحية من بلاد خراسان مرات عديدة، وفي كل مرة كان ينكث أهلها في عهودهم.

وكان بداية فتحها الأول في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أرسل إليها سويد بن مقرن رضي الله عنه ليفتحها - على اختلاف بين العلماء في ذلك الفتح-[1] .

---

(١) حكى الطبري في تاريخه هذا الاختلاف، وذكر أن من المؤرخين من قال إن فتحها الأول =

وذكر الذهبي وابن الأثير وابن كثير قصة الفتح الأول لجرجان وما دار فيه في أحداث سنة اثنتين وعشرين من إرسال عمر رضي الله عنه إلى نعيم بن مقرن رضي الله عنه يأمره بإرسال أخيه سويد رضي الله عنه لفتح قومس، ثم مسير سويد نحو قومس وأخذها سلماً ، ومنها إلى طبرستان وجرجان ومصالحته للجميع وكتابته لأهل كل بلد كتاب أمانٍ وصلح(١) .

ويظهر أن أهل هذه المنطقة نقضوا عهدهم مع سويد بن مقرن رضي الله عنه فاضطر المسلمون إلى فتحها بعد ذلك في خلافة عثمان رضي الله عنه ، وبعدها أيضاً .

وسنُعنى هنا بالفتح الذي تمَّ في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، لأنه الفتح الذي نصَّ المؤرخون فيه على مشاركة الآل مع الأصحاب، وهذا الفتح قد سبقه فتح في خلافة عمر بن الخطاب، إلا أن أهل هذه المنطقة كثيراً ما كانوا ينقضون عهودهم ومواثيقهم.

ذكر الحموي في معجمه أمر تلك البلاد وطبيعتها قائلًا: كانت بلاد

= كان في خلافة عمر بقيادة سويد بن مقرن وهذا الظاهر من رواية سيف بن عمر، ومنهم من ذكر أن هذه الناحية لم يغزها أحد حتى قام عثمان بن عفان رضي الله عنه فغزاها سعيد بن العاص سنة ثلاثين، وهذا قول علي بن محمد المدائني. ورواية علي بن المدائني صحيحة، (انظر: صحيح وضعيف تاريخ الطبري٣/ ٣١٥- دار ابن كثير- دمشق- بيروت، ط١: ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م). ولعل هناك وجهاً للتوفيق بين أقوال العلماء في أول من غزا طبرستان ونواحيها، بأن من قال منهم: إن سعيداً هو أول غاز لها إشارة إلى الغزو الذي صاحبه قتال؛ لأن غزو سويد بن مقرن في خلافة عمر كان سلماً دون قتال. تاريخ الطبري (٣/ ٣٢٢-٣٢٣).

(١) انظر: تاريخ الإسلام: الذهبي (٣/ ٢٤٢) - الكامل في التاريخ: ابن الأثير (١/ ٤٦٠) - البداية والنهاية: ابن كثير (٧ / ١٣٨).

طبرستان في الحصانة والمنعة على ما هو مشهور من أمرها، وكانت ملوك الفرس يولونها رجلًا ويسمونه الأصبهبذ فإذا عقدوا له عليها لم يعزلوه عنها حتى يموت، فإذا مات أقاموا مكانه ولده، إن كان له ولد، وإلا وجهوا بأصبهبذ آخر، فلم يزالوا على ذلك حتى جاء الإسلام وفتحت المدن المتصلة بطبرستان، وكان صاحب طبرستان يصالح على الشيء اليسير فيُقبل منه لصعوبة المسلك، فلم يزل الأمر على ذلك حتى ولى عثمان بن عفان رضي الله عنه، سعيد بن العاص الكوفة سنة **٢٩** هـ وولى عبد اللَّه بن عامر ابن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس البصرة[١].

أما عن وقائع الفتح وما دار فيه فيخبرنا بها الإمام الطبري موضِّحاً من شارك من آل البيت والصحابة في هذا الفتح حيث يروي بسنده عن حبش ابن مالك قال: غزا سعيد بن العاص من الكوفة سنة ثلاثين يريد خراسان، ومعه: **حذيفة بن اليمان وناس من أصحاب رسول اللَّه** صلى الله عليه وآله وسلم، ومعه **الحسن والحسين وعبد اللَّه بن عباس** وعبد اللَّه بن عمر وعبد اللَّه ابن عمرو بن العاص وعبد اللَّه بن الزبير رضي الله عنهم، وخرج عبد اللَّه بن عامر من البصرة يريد خراسان فسبق سعيدا ونزل أبرشهر، وبلغ نزوله أبرشهر سعيدا، فنزل سعيد قومس وهي صلح صالحهم حذيفة بعد نهاوند، فأتى جرجان فصالحوه على مائتي ألف، ثم أتى طميسة وهي كلها من طبرستان متاخمة جرجان، وهي مدينة على ساحل البحر وهي في تخوم جرجان، فقاتله أهلها حتى صلَّى صلاة الخوف، فقال لحذيفة: كيف صلَّى رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم؟ فأخبره، فصلَّى بها سعيد صلاة الخوف وهم

(١) معجم البلدان: الحموي (٤/ ١٤-١٥).

يقتتلون[١]، وضرب يومئذ سعيد رجلًا من المشركين على حبل عاتقه فخرج السيف من تحت مرفقه. . .[٢]

وروى الطبري - أيضاً- بسنده عن حنش بن مالك التغلبي قال: غزا سعيد سنة ثلاثين فأتى جرجان وطبرستان معه عبد اللَّه بن العباس وعبد اللَّه بن عمر وابن الزبير وعبد اللَّه بن عمرو بن العاص فحدثني علج[٣] كان يخدمهم قال: كنت آتيهم بالسُّفرة[٤] فإذا أكلوا أمروني فنفضتها وعلقتها فإذا أمسوا أعطوني باقيه. . . . .[٥]

ويزيد البلاذري الأمر وضوحاً ويذكر أن الحسن والحسين رضي الله عنهما كانا ممن شارك في هذا الفتح، مع أنه لم يذكر ذلك جزماً بل وردت عبارته بصيغة التمريض حيث قال:

ولَّى عثمان بن عفان رضي الله عنه سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية الكوفة في سنة تسع وعشرين، فكتب مرزبان طوس إليه وإلى عبد اللَّه بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، وهو على البصرة،

---

(١) روى أحمد في مسنده بسنده عن ثعلبة بن زهدم اليربوعي قال: كنا مع سعيد بن العاص بطبرستان فقال: أيكم يحفظ صلاة الخوف مع رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم، فقال حذيفة: أمنا فقمنا صفاً خلفه وصفاً موازي العدو، فصلى بالذين يلونه ركعة، ثم ذهبوا إلى مصاف أولئك، وجاء أولئك فصلى بهم ركعة ثم سلم عليهم. مسند أحمد: ح (٢٣٤٣٧)، والحاكم في المستدرك: ح (١٢٤٥) وأبو داود في السنن: ح (١٢٤٨) وصحَّحه الشيخ شعيب والشيخ الألباني.

(٢) تاريخ الطبري (٣ / ٣٢٣ - ٣٢٤).

(٣) العلج: الرجل الشديد الغليظ. الصحاح (١/ ٣٣٠) - مقاييس اللغة (٤/ ١٢٢).

(٤) السُّفرة: طعام يتخذ للمسافر. الصحاح (٢/ ٦٨٦).

(٥) تاريخ الطبري (٣ / ٣٢٤).

يدعوهما إلى خراسان، على أن يملكه عليها أيهما غلب وظفر. فخرج ابن عامر يريدها، وخرج سعيد، فسبقه ابن عامر، فغزا سعيد طبرستان، **ومعه في غزاته فيما يقال: الحسن والحسين أبناء علي بن أبي طالب عليهم السلام**.
وقيل أيضا: إن سعيدا غزا طبرستان بغير كتابٍ أتاه من أحد، وقصد إليها من الكوفة، واللَّه أعلم، ففتح سعيد طميسة ونامنة، وهي قرية، وصالح ملك جرجان على مائتي ألف درهم... [1].

ويؤكد ابن كثير مشاركة الحسن والحسين مع العبادلة الأربعة في هذا الفتح ويروي في ذلك بعض الروايات حيث قال في البداية والنهاية في أحداث سنة ثلاثين من الهجرة:

فيها افتتح سعيد بن العاص طبرستان.. فذكر المدائني أن سعيد بن العاص ركب في جيشٍ فيه **الحسن والحسين، والعبادلة الأربعة، وحذيفة ابن اليمان** رضي الله عنهم، **في خلق من الصحابة**، فسار بهم فمرَّ على بلدان شتى يصالحونه على أموال جزيلة، حتى انتهى إلى بلد معاملة جرجان - ثم ساق خبر الفتح- إلى أن قال:

ثم نقض أهل جرجان ما كان صالحهم عليه سعيد بن العاص، وامتنعوا عن أداء المال الذي ضربه عليهم - وكان مائة ألف دينار، وقيل: مائتي ألف دينار، وقيل: ثلاثمائة ألف دينار - ثم وجّه إليهم يزيد بن المهلب بعد ذلك[2].

(١) فتوح البلدان: البلاذري (٢ / ٤١١- ٤١٢).
(٢) البداية والنهاية: ابن كثير (٧ / ١٧٣ - ١٧٤).

وأكد ابن الأثير مشاركة الحسن والحسين وابن عباس وعبد اللَّه بن عمر بن الخطاب وعبد اللَّه بن عمرو بن العاص وحذيفة بن اليمان وابن الزبير رضي الله عنهم في فتح طبرستان سنة ثلاثين في خلافة عثمان[١].

وأورد الذهبي في تاريخه رواية عن مشاركة الحسن بن علي مع عبد اللَّه بن الزبير في الشخوص إلى خراسان مع سعيد بن العاص حيث قال: قال أبو عبيد اللَّه الحاكم: أجمع مشايخنا على أن نيسابور فتحت صلحاً، وكان فتحها في سنة إحدى وثلاثين. ثم روى بإسناده إلى مصعب بن أبي الزهراء أن كنارى صاحب نيسابور كتب إلى سعيد بن العاص والي الكوفة، وإلى عبد اللَّه بن عامر والي البصرة، يدعوهما إلى خراسان ويخبرهما أن مرو قد قتل أهلها يزدجرد، **فندب سعيد بن العاص الحسن ابن علي وعبد اللَّه بن الزبير لها،** فأتى ابن عامر دهقان فقال: ما تجعل لي إن سبقت بك قال: لك خراجك وخراج أهل بيتك إلى يوم القيامة، فأخذ به على قومس، وأسرع إلى أن نزل على نيسابور، فقاتل أهلها سبعة أشهر ثم فتحها، فاستعمله عثمان عليها أيضاً[٢].

فهذه الرواية وإن لم تحو تفاصيل فتح جرجان إلا أنها تنبىء عن مشاركة للحسن مع ابن الزبير بتوجيهٍ من سعيد بن العاص في الشخوص إلى خراسان مروراً بجرجان وطميسة، ومع أن النية والوجهة كانت إلى خراسان إلا أن ابن عامر والي البصرة سبقهم إليها.

وفي تاريخ جرجان: باب ذكر من دخل جرجان من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير (٣/١٠٩- ١١١).
(٢) تاريخ الإسلام: الذهبي (٣ / ٣٦٣ - ٣٦٤).

منهم أبو عبد اللَّه الحسين بن علي رضي الله عنه وعبد اللَّه بن عمر رضي الله عنه ، وحذيفة ابن اليمان رضي الله عنه ، وسعيد بن العاص رضي الله عنه ، وسويد بن مقرن رضي الله عنه ، وعبد اللَّه بن أبي أوفى رضي الله عنه ، وأبو هريرة رضي الله عنه ، وعبد اللَّه بن الزبير رضي الله عنه ، ويقال: الحسن بن علي رضي الله عنه ، وسواد بن قطبة ويقال: سوادة ابن قطبة رضي الله عنه ، وسماك بن مخرمة رضي الله عنه وهند بن عمرو رضي الله عنه ، وعتيبة ابن نهاس رضي اللَّه عنه وعن جميع الصحابة[١] .

تعقيب:

ومن الروايات والنصوص السابقة يتضح لنا أن فتح طبرستان وجرجان المقصود هنا هو الفتح الذي تمَّ في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه في سنة ثلاثين للهجرة؛ لأنه من الواضح أن هذه المنطقة قد أُعيد فتحها أكثر من مرة؛ نتيجة أن أهلها قد نقضوا الصلح أكثر من مرة فأغزوا مراراً، فقد غزاها سويد بن مقرن في خلافة الفاروق عمر وصالح أهلها، ولعل هذا هو سبب الاختلاف في تأكيد من غزاها وافتتحها.

إلا أن الذي يعنينا هنا هو الفتح الذي كان في خلافة عثمان سنة ٣٠ هـ وتمت فيه مشاركة نفر من آل البيت والصحابة رضي الله عنهم في هذا الفتح[٢] رغم مشقة الطريق وعسرته ووعورته والتي ظهرت بادية في جُلِّ الروايات

(١) تاريخ جرجان: حمزة بن يوسف السهمي، (ص٤٦).

(٢) ولا يعني هذا أن الفتح الذي كان في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يشارك فيه الآل مع الأصحاب بل إن آل البيت قطعا كان لهم دور مع الصحابة في هذا الفتح وغيره، إلا أن المعتمد كما سبق ذكره إنما هو نصُّ المؤرخين على أسماء من حضر الفتح من الآل والأصحاب.

والنصوص التي تحدثت عن هذا الفتح، ولا أدل على ذلك من أن هذه البلاد أهلكت كثيراً من جيش مصقلة بن هبيرة والذي ولَّاه معاوية رضي الله عنه وأرسله ليفتح هذه البلاد مرة أخرى، وأوغل مصقلة بجيشه في مسالكها ودروبها ولما همَّ بالرجوع وتجاوز المضايق والعقاب أخذها عليه وعلى جيشه العدو عند انصرافه للخروج ودهدهوا عليه الحجارة والصخور من الجبال، فهلك أكثر ذلك الجيش، وهلك مصقلة، فضرب الناس به مثلًا فقالوا: لا يكون هذا حتى يرجع مصقلة من طبرستان، فكان المسلمون بعد ذلك إذا غزوا هذه البلاد تحفظوا وتحذروا من التوغل فيها[1].

وهذا ما حدث أيضاً مع محمد بن الأشعث بن قيس الكندي حين ولَّاه عبيد اللَّه بن زياد بن أبي سفيان طبرستان. فصالحهم وعقد لهم عقداً، ثم أمهلوا له حتى دخل، فأخذوا عليه المضايق وقتلوا ابنه أبا بكر وفضخوه[2]، ثم نجا. فكان المسلمون يغزون ذلك الثغر وهم حذرون من التوغل في أرض العدو[3].

كما يتضح أيضاً أن مشاركة أعلام آل البيت مع الصحابة رضي الله عنهم في الفتح الذي بين أيدينا بدأت مع بداية الحملة العسكرية بقيادة سعيد بن العاص رضي الله عنه في فتح طبرستان وما والاها وصولًا إلى جرجان.

واتضح أيضاً أنه كان من الأسماء التي شاركت في فتح كل من طبرستان

(١) معجم البلدان: الحموي (٤/ ١٧).

(٢) الفضخ: الشدخ. وكسر كل شيء أجوف نحو الرأس والبطيخ. الصحاح (١/ ٤٢٩). لسان العرب (٣/ ٤٥).

(٣) فتوح البلدان: البلاذري (٢/ ٤١٢).

وجرجان، والذي كان في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه والتي ذكرتها الروايات والنصوص السالفة وغيرها:

الحسن والحسين وعبد اللَّه بن العباس وهم من الآل رضي الله عنهم ، وعبد اللَّه بن عمر وابن الزبير وعبد اللَّه بن عمرو بن العاص وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهم وغيرهم من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

إن هذه الشخصيات الكريمة خرجت لفتح طبرستان ونواحيها من جُرجان وطميسة في خلافة عثمان بن عفان الخليفة الثالث، وفي خروجهم إقرار بخلافته وانصياع لأمره، إنهم خرجوا سالكين طرقاً وعرة ودروباً مهلكة لنصرة الإسلام، مضحِّين بأنفسهم وأرواحهم، أفتراهم خرجوا معاً وقلوبهم مشحونة بالبغض والكراهية لبعضهم البعض، أم أن الإخلاص هو المحرِّك لهم والمحبة صاحبتهم من أول خطوة خطوها كل يفدي صاحبه بنفسه ويقدِّم نحره دون نحره؟ إنهم خرجوا إلى بلاد نائية تاركين أوطانهم التي على ثراها ولدوا وبين جبالها وسهولها نشأوا وتربوا، ما خرجوا إلا لإعلاء كلمة الإسلام ورفع رايته، وكأني بهم والخطر يحدق بهم من كل صوب وحدب، والموت يلاعب أجفانهم في كل خطوة يخطونها وكل بلدة يعبرونها، وكأني بهم والصحابة يلتفون بالحسن والحسين وابن عباس يحمونهم من أعين الغدر حتى لا يخلص إليهم شر ولا يصيبهم مكروه، وكأني بهم ولسان حالهم يقول: يكفينا فخراً أنكم خرجتم معنا فلا خير فينا إن أصابكم مكروه وفينا عين تطرف أو قلب ينبض، أين هذا البغض وأين هذه الشحناء المفتراة التي يزعم الزاعمون أنها كانت بين الآل والأصحاب؟.

وانظر معي أخي القارئ الكريم إلى جملة وردت في رواية الطبري تظهر فيها بعض دلائل القربى بين الآل والأصحاب، حيث قال:

غزا سعيد سنة ثلاثين فأتى جرجان وطبرستان معه عبد اللَّه بن العباس وعبد اللَّه بن عمر وابن الزبير وعبد اللَّه بن عمرو بن العاص فحدثني علج[(١)] كان يخدمهم قال: **كنت آتيهم بالسُّفرة[(٢)] فإذا أكلوا أمروني فنفضتها وعلقتها فإذا أمسوا أعطوني باقيه[(٣)]**.

إنهم خرجوا في جيش واحد وعبروا طريقاً واحداً ينتظرهم الموت في كل خطوة خطوها وأكلوا من مزود واحد وليس مرة واحدة، إن الرواية تشعر بالعود والتكرار، كما يظهر من لفظة: «آتيهم» أهذا شأن المتباغضين وديدن المتخاصمين؟

سأترك الإجابة لك أخي القارئ المنصف وأنا على يقين أنك لن تحيد عن الحق ولن يحيد عنك الحق.

❊ ❊ ❊

---

(١) العلج: الرجل الشديد الغليظ. الصحاح (١/ ٣٣٠). - مقاييس اللغة (٤/ ١٢٢).

(٢) السُّفرة: طعام يُتخذ للمسافر. الصحاح (٢/ ٦٨٦).

(٣) تاريخ الطبري (٣ / ٣٢٤).

الفتوحات الإسلامية في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

يرى بعض الدارسين للتاريخ الإسلامي أن خلافة علي بن أبي طالب كانت خالية من الفتوحات الإسلامية نتيجة انشغال علي رضي الله عنه بالفتن والخلافات الداخلية التي كانت بدايتها في أواخر خلافة عثمان رضي الله عنه واستمرت طيلة خلافة علي بن أبي طالب وخلافة ولده الحسن.

ويرى الندوي أن المؤرخين لم ينصفوا هذا الجانب من سيرة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بياناً وشرحاً، وبقي مطموراً- إلى حدٍ كبير- في مادة زاخرة من أخبار الحروب الداخلية في العراق والشام[(١)].

وفيما يلي ذكر بعض من الفتوحات في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه على اعتبار أن أي فتح أو تثبيت لسلطان المسلمين في البلاد التي فتحت سابقاً إنما هو فتح شارك فيه الآل يمثلهم علي بن أبي طالب قائداً عاماً وخليفة للمسلمين وموجِّهاً لهم.

ورد في تاريخ الطبري تحت عنوان: سبب توجيهه إياه إلى فارس:

لما قتل ابن الحضرمي واختلف الناس على علي، طمع أهل فارس وأهل كرمان في كسر الخراج، فغلب أهل كل ناحية على ما يليهم، وأخرجوا عمالهم.

فاستشار علي بن أبي طالب رضي الله عنه الناس في رجلٍ يوليه فارس حين امتنعوا

---

(١) المرتضى للندوي: (ص١٩٧).

من أداء الخراج، فقال له جارية بن قدامة: ألا أدلك يا أمير المؤمنين على رجلٍ صليب الرأي عالم بالسياسة كاف لما ولى، قال: من هو؟ قال: زياد، قال: هو لها، فولاه فارس وكرمان ووجهه في أربعة آلاف فدوخ تلك البلاد حتى استقاموا.

وقال الشعبي: لما انتقض أهل الجبال وطمع أهل الخراج في كسره وأخرجوا سهل بن حنيف من فارس، وكان عاملا عليها لعلى، قال ابن عباس لعلي: أكفيك فارس، فقدم ابن عباس البصرة ووجه زياداً إلى فارس في جمع كثير فوطئ بهم أهل فارس فأدوا الخراج[1].

وقال ابن الأثير في أحداث السنة التاسعة والثلاثين للهجرة تحت عنوان: ذكر ولاية زياد بن أبيه بلاد فارس.

وفي هذه السنة ولَّى علي زياداً كرمان وفارس، وسبب ذلك أنه لما قتل ابن الحضرمي واختلف الناس على علي، طمع أهل فارس وكرمان في كسر الخراج، فطمع أهل كل ناحية وأخرجوا عاملهم، وأخرج أهل فارس سهل بن حنيف، فاستشار علي الناس فقال له جارية بن قدامة: ألا أدلك يا أمير المؤمنين على رجل صلب الرأي عالم بالسياسة كافٍ لما ولي؟ قال: من هو؟ قال: زياد. فأمر علي ابن عباس أن يولي زياداً، فسيره إليها في جمع كثير، فوطىء بهم أهل فارس، وكانت قد اضطرمت، فلم يزل يبعث إلى رؤويسهم يعد من ينصره ويمنيه ويخوف من امتنع عليه، وضرب بعضهم ببعض، فدل بعضهم على عورة بعضٍ، وهربت طائفة،

(١) تاريخ الطبري (٤ / ١٠٥).

وأقامت طائفة، فقتل بعضهم بعضاً، وصفت له فارس ولم يلق منهم جمعاً ولا حرباً، وفعل مثل ذلك بكرمان. ثم رجع إلى فارس وسكن الناس واستقامت له، ونزل اصطخر، وحصن قلعة تسمى قلعة زياد قريب اصطخر ثم تحصن فيها بعد ذلك منصور اليشكري، فهي تسمى قلعة منصور، وقيل: إن ابن عباس أشار بولايته[١].

ولم تقتصر المشاركات الحربية في خلافة علي رضي الله عنه على حد حماية الثغور بل كانت فيها فتوحات كخلافة من سبقه، نعم كانت قليلة ومعدودة مقارنة بفتوحات الخلفاء الثلاثة قبله، إلا أن سببها كان معروفاً حيث كانت الفتن التي انقسم فيها المسلمون وأريقت بسببها دماء إلى أن قيض اللّه لها الحسن بن علي فتنازل عن الخلافة بعد موت أبيه إلى معاوية بن أبي سفيان وسمي العام الذي تنازل فيه الحسن لمعاوية بعام الجماعة.

ففي العام التاسع والثلاثون من هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أرسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه الحارث بن مرة العبدي أحد قواده لفتح بلاد السند، فظفر بهم وأخذ منهم غنائم كثيرة، وبقي غازياً إلى أن جمعوا حشودهم وأحاطوا بجيش الحارث بن مرة فقتلوه بأرض القيقان هو ومن معه إلا قليلاً سنة ٤٢ أيام معاوية.

ورد في تاريخ خليفة في فتح السند: جمع الحارث بن مرة العبدي جمعاً أيام علي وسار إلى بلاد مكران فظفر وغنم، وأتاه الناس من كل وجه، فجمع له أهل ذلك الثغر جنداً، فقتل من كان معه إلا عصابة يسيرة، فلم يغز الثغر

(١) الكامل: ابن الأثير (٢/ ٣٨٢).

حتى كان أيام معاوية[١].

وفي فتوح البلدان ذكر البلاذري محاولة المسلمين لفتح بلاد السند في خلافة علي رضي الله عنه حيث قال:

فلما كان آخر سنة ثمان وثلاثين وأول سنة تسع وثلاثين في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه توجَّه إلى ذلك الثغر الحارث بن مرة العبدي متطوعاً بإذن علي رضي الله عنه ، فظفر وأصاب مغنماً وسبياً، وقسم في يوم واحد ألف رأس، ثم إنه قتل ومن معه بأرض القيقان، إلا قليلًا[٢].

وهذا ما ذكره الذهبي في تاريخ الإسلام في أحداث سنة **٣٩**هـ[٣]، وابن الأثير في الكامل في أحداث نفس السنة[٤].

بل وأوردته مصادر الإمامية: في أعيان الشيعة: غزو السند قال: وفيها- سنة **٣٩**- توجَّه الحارث بن مرة العبدي إلى بلاد السند غازياً متطوعاً بأمر أمير المؤمنين علي فأصاب غنائم وسبياً كثيراً وقسم في يوم واحد ألف رأس[٥].

ومما يجدر ذكره هنا أن هذه البلاد استعصت فترات طويلة على المسلمين الفاتحين نظراً لوعورة أرضها وبُعد مكانها وسعة أرجائها، فقد كانت هناك محاولات قبل خلافة علي لفتحها.

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط: (ص١٥١).
(٢) فتوح البلدان: البلاذري (٣/ ٥٣١). وانظر: معجم البلدان للحموي (٤/ ٤٢٣).
(٣) تاريخ الإسلام: الذهبي (٣/ ٥٨٣).
(٤) الكامل في التاريخ: ابن الأثير (٣/ ٣٨١).
(٥) أعيان الشيعة: محسن الأمين (١/ ٥٢٩).

فقد حاول عثمان بن عفان رضي الله عنه فتحها في خلافته ووجَّه إليها من يأتيه بأخبارها إلا أن هذه المحاولة لم تكتمل؛ نظراً لوعورة أرض تلك البلاد.

جاء في فتوح البلدان: فلما ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه وولى عبد اللَّه بن عامر بن كريز العراق كتب إليه يأمره أن يوجه إلى ثغر الهند من يعلم علمه وينصرف إليه بخبره. فوجه حكيم بن جبلة العبدي. فلما رجع أوفده إلى عثمان، فسأله عن حال البلاد فقال: يا أمير المؤمنين! قد عرفتها وتنحرتها. قال: فصفها لي: قال: ماؤها وشل، وثمرها دقل، ولصها بطل. إن قل الجيش فيها ضاعوا، وإن كثروا جاعوا. فقال له عثمان: أخابر أم ساجع؟ قال: بل خاير. فلم يغزها أحدا[(١)].

ومن بعد علي حاول معاوية في خلافته أن يفتح هذا الثغر فأرسل المهلب ابن أبي صفرة سنة أربع وأربعين لفتحه ودارت مقتلة عظيمة، ثم ولى عبد اللَّه ابن عامر في زمن معاوية بن أبي سفيان عبد اللَّه بن سوار العبدي، ويقال ولاه معاوية من قبله ثغر الهند. فغزا القيقان فأصاب مغنماً، ثم وفد إلى معاوية وأهدى إليه خيلًا قيقانية، وأقام عنده، ثم رجع إلى القيقان فاستجاشوا الترك. فقتلوه، وولى زياد بن أبي سفيان في أيام معاوية سنان بن سلمة ابن المحبق الهذلي. فأتى الثغر، ففتح مكران عنوة ومصرها، وأقام بها، وضبط البلاد، وقال ابن الكلبي: كان الذي فتح مكران حكيم بن جبلة العبدي. ثم استعمل زياد على الثغر راشد بن عمرو الجديدي من الأزد. فأتى مكران، ثم غزا القيقان فظفر، ثم غزا الميد فقتل. وقام بأمر الناس

---

(١) فتوح البلدان: البلاذري (٣/ ٥٣٠).

سنان بن سلمة. فولاه زياد الثغر. فأقام به سنتين....[١].

وهكذا توالت جيوش المسلمين لفتح بلاد السند وكانوا كلما استقر لهم الأمر انتفض أهل الثغر وقاتلوا المسلمين، وقد آثرت ذكر هذه المحاولات قبل وبعد خلافة علي ﵁ حتى لا يظن ظان السوء بعلي ﵁، أو ينتقص أحد من قدره وقدرته على إدارة الأمور في خلافته، وليُعلم أن هذه البلاد كانت لها طبيعة خاصة نظراً لوعورة أرضها وسعتها وبُعد مكانها وقلة خيراتها.

وهكذا فلم تخل خلافة علي بن أبي طالب ﵁ من فتح شارك فيه الآل يمثلهم علي بن أبي طالب خليفة وقائداً عاماً ومسيّراً للجيوش، وابن عباس منفذاً لأمره، والأصحاب الذين قامت الفتوحات على أكتافهم إما مشورة كجارية بن قدامة والذي أشار على علي بتولية زياد ابن أبيه والمشاورة مشاركة، وإما جهاداً وقتالاً، وتضحية في سبيل دينهم بأرواحهم وما ملكت أيديهم، ومعهم جمع كبير من التابعين، لعل في مقدمتهم زياد ابن أبيه[٢]، والحارث بن مرة العبدي، حتى فتحوا بالإسلام قلوب العباد قبل الثغور والبلاد، وما كانت مهمتهم لتنجح لولا توفيق اللّه لهم ثم المحبة التي ملأت قلوبهم وسرت بين جوانحهم وظهرت بادية في مقالهم وفعالهم بعد أن اعتمدوا على ربهم.

---

(١) فتوح البلدان: البلاذري (٣/ ٥٣١-٥٣٣).

(٢) زياد بن أبيه مختلف في صحبته فقد ذكره ابن حجر في المختلف فيهم، والراجح أنه ليس بصحابي. (الإصابة: ٢/ ٥٢٨).

وعلى ضوء ما سبق فإن المسلمين الفاتحين آلًا وأصحاباً لم يتخلوا عن واجب نشر الإسلام والدفاع عنه حتى في أحلك الظروف وأصعب الأوقات، الأمر الذي جعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد ذلك يفتقدهم ويتساءل متوجعاً عنهم فيقول كما نسب إليه في نهج البلاغة:

أين القوم الذين دُعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرأوا القرآن فأحكموه، وهُيجوا إلى القتال فولهوا وله اللقاح إلى أولادها، وسلبوا السيوف أغمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً وصفاً صفاً، بعض هلك وبعض نجا. لا يبشرون بالأحياء، ولا يعزون عن الموتى، مره العيون من البكاء[١]، خمص البطون من الصيام، ذبل الشفاه من الدعاء، صفر الألوان من السهر، على وجوههم غبرة الخاشعين، أولئك إخواني الذاهبون. فحق لنا أن نظمأ إليهم ونعض الأيدي على فراقهم[٢].

إن هذه العبارات النديات إنما هي بمثابة تجديد عهد على حبٍ متأصل في القلب، وشوق إلى أناس أحبهم علي رضي الله عنه حباً ملك فؤاده وتمكَّن من سويداء قلبه، إنهم أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مرآة قلب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعن إخوانه من الآل والأصحاب، ألا فليتق ربه من يحاول أن يدعي عداءً زائفاً بين الآل والأصحاب، وليستحي من مقالته تلك هذا إن كان في أوردته دماء، أو كان عنده بقايا حياء.

---

(١) المرة مرض في العين لترك الكحل، ومره العيون: كناية عن تعبها من شدة البكاء. (انظر: النهاية ٤/ ٣٢٢).

(٢) نهج البلاغة: خطب الإمام علي (١/ ٢٣٤ - ٢٣٥).

الفتوحات الإسلامية في خلافة معاوية ﵁

حفلت خلافة أمير المؤمنين معاوية ﵁ بالكثير من الفتوحات التي اخترقت حدود آسيا وقرعت أبواب أوربا وتحدت أعتى حصونها لإزالة قوى الشرك وأساطين الشر، ومهَّدت للتعرف على دين اللَّه تعالى بصورته النقية دون تلبيس الملبسين أو خلط الحاقدين أو تزوير المفترين، وكان من جملة هذه الفتوحات فتح القسطنطينية، وفتح سمرقند، وقد خصصناهما بالذكر لنصِّ المؤرخين على مشاركة الآل والأصحاب فيهما، وفيما يلي بيان ذلك:

حصار القسطنطينية :

مدينة القسطنطينية هي أكبر معاقل الروم، وكانت عاصمة ملكهم، ومع أن المسلمين استطاعوا إفقاد الروم أهم معاقلهم في الشام ومصر إلا أن دولة الروم كانت باقية لم يمسها سوء، وكانت الروم بهذا تمثل خطراً كبيراً على الدولة الإسلامية، فالمسلمون استطاعوا بعون اللَّه أن يخترقوا عاصمة الملك الفارسي، وهزموا كسرى على أرضه في فارس وقوضوا سلطانه وأزالوا ملكه الطاغي، إلا أن الروم لا زالت باقية تهدد الدولة الإسلامية، وقد أدرك النبي قبل ذلك بكثير أهمية فتح هذه المدينة مدينة القسطنطينية، حيث قال ﷺ: أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم[(١)].

(١) رواه البخاري: كتاب الجهاد، باب ما قيل في قتال الروم، ح (٢٩٢٤).

ولقد أدرك خلفاء المسلمين هذا التوجيه النبوي وأدركوا حجم المخاطر التي يمكن أن تحدق بالدولة الإسلامية إن ظلت الروم على قوتها وتماسكها، فوجهوا هممهم تباعا إلى غزو القسطنطينية مدينة قيصر وعاصمة ملكه إلا أن الأمر تهيأ في خلافة معاوية بن أبي سفيان، الذي كان مدركاً بدوره لأهمية غزو الروم في معقلهم، لأنه كان يرى أن الخطر الأكبر يتمثل في الدولة البيزنطية، لذا فقد قرر أن يغزو الروم في عقر دارهم.

وساعده على ذلك أنه كان موجوداً بالشام منذ مطلع الفتوحات في عهد الصديق أبي بكر ﵁ ، وأصبح والياً عليه ولمدة عشرين سنة تقريباً، وهو يشكل مع مصر خط المواجهة الرئيسي مع الدولة البيزنطية، فطول إقامة معاوية بالشام أكسبته خبرة واسعة بأحوال البيزنطيين وسياستهم وأهدافهم مما أعانه على أن يعرف كيف يتعامل معهم[١].

وبالفعل أعدَّ معاوية للأمر عدته من الاهتمام بصناعة السفن في مصر والشام والاستيلاء على الجزر الواقعة في شرق البحر المتوسط، وتحصين الأطراف الشمالية للشام لتكون سنداً للجيش الإسلامي الزاحف إلى القسطنطينية.

وتم حصار القسطنطينية مرتين في عهد معاوية، المرة الأولى في سنة ٤٩هـ وشارك معه مجموعة من آل البيت والصحابة، منهم: الحسين بن علي وعبد اللَّه بن عباس، وعبد اللَّه بن عمر وعبد اللَّه بن عمرو وعبد اللَّه بن الزبير، وأبو أيوب الأنصاري الذي استشهد ودفن عند سور القسطنطينية،

---

(١) راجع: العالم الإسلامي في العصر الأموي، (ص٢٤١)، نقلًا عن: الصلابي، معاوية بن أبي سفيان، (ص٣٦١).

والمرة الثانية في سنة ٥٤هـ واستمر الحصار إلى نحو سنة ٦٠هـ وكاد أن ينجح ويؤتي ثماره لولا أن استعمل البيزنطيون ما أسموه بالنار الإغريقية.

وفيما يلي إلقاء الضوء على حصار القسطنطينية وتحديداً الأول منه، ومن شارك في هذا الحصار من آل البيت والصحابة من خلال ما ذكره المؤرخون.

ورد في تاريخ الطبري في حوادث سنة تسع وأربعين: (وفيها) كانت غزوة يزيد بن معاوية الروم حتى بلغ قسطنطينية ومعه **ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري**[١].

وذكر ابن الأثير غزو القسطنطينية في خلافة معاوية وقال:

ذكر غزوة القسطنطينية في هذه السنة -٤٩- وقيل: سنة خمسين، سير معاوية جيشاً كثيفاً إلى بلاد الروم للغزاة وجعل عليهم سفيان بن عوف وأمر ابنه يزيد بالغزاة معهم، فتثاقل واعتل، فأمسك عنه أبوه فأصاب الناس في غزاتهم جوع ومرض شديد فأنشأ يزيد يقول:

ما أن أبالي بما لاقت جموعهم   بالفرقدونة من حمى ومن موم

إذا اتكأت علي الأنماط مرتفقا   بدير مران عندي أم كلثوم

وأم كلثوم امرأته، وهي ابنة عبد اللَّه بن عامر. فبلغ معاوية شعره فأقسم عليه ليلحقن بسفيان في أرض الروم ليصيبه ما أصاب الناس فسار ومعه جمع كثير أضافهم إليه أبوه، **وكان في هذا الجيش ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري وعبد العزيز بن زرارة الكلابي وغيرهم** فأوغلوا في بلاد الروم حتى بلغوا القسطنطينية فاقتتل المسلمون والروم في بعض الأيام

(١) تاريخ الطبري (٤/ ١٧٣).

واشتدت الحرب بينهم، فلم يزل عبد العزيز يتعرض للشهادة فلم يقتل، فأنشأ يقول:

قد عشت في الدهر أطواراً على طرقٍ ... شتى فصادفت منها اللين والبشعا

كلا بلوت فلا النعماء تبطرني ... ولا تخشعت من لأوائها جزعا

لا يملأ الأمر صدري قبل موقعه ... ولا أضيق به ذرعا إذا وقعا

ثم حمل على من يليه فقتل فيهم وانغمس بينهم فشجره الروم برماحهم حتى قتلوه رَحِمَهُ اللَّهُ، فبلغ خبر قتله معاوية فقال لأبيه: واللَّه هلك فتى العرب فقال: ابني أو ابنك قال: ابنك فآجرك اللَّه فقال:

فإن يكن الموت أودى به ... وأصبح مخ الكلابي زيرا

فكل فتى شارب كأسه ... فإما صغيراً وإما كبيرا

ثم رجع يزيد والجيش إلى الشام وقد توفي أبو أيوب الأنصاري عند القسطنطينية فدفن بالقرب من سورها فأهلها يستسقون به وكان قد شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول اللَّه ﷺ وشهد بصفين مع علي وغيرها من حروبه[1].

وفي البداية والنهاية ذكر ابن كثير في حوادث سنة ٤٩هـ:

سنة تسع وأربعين فيها غزا يزيد بن معاوية بلاد الروم حتى بلغ قسطنطينية ومعه جماعات من سادات الصحابة **منهم ابن عمر وابن عباس وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري** رضي الله عنهم . وقد ثبت في صحيح البخاري أن رسول اللَّه

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير (٣ / ٤٥٨ - ٤٥٩).

ﷺ قال: «أول جيش يغزون مدينة قيصر مغفور لهم «فكان هذا الجيش أول من غزاها، وما وصلوا إليها حتى بلغوا الجهد. وفيها توفى أبو أيوب خالد ابن زيد الأنصاري، وقيل: لم يمت في هذه الغزوة بل بعدها سنة إحدى أو ثنتين أو ثلاث وخمسين كما سيأتي»[١].

وقد ذكر ابن عساكر الحسين بن علي رضي الله عنهما فيمن شهد غزو القسطنطينية في خلافة معاوية رضي الله عنه حيث قال في ترجمته للحسين رضي الله عنه :

الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف أبو عبد اللّه سبط رسول اللّه ﷺ وريحانته من الدنيا حدث عن النبي ﷺ وعن أبيه . . . ووفد على معاوية وتوجه غازياً إلى القسطنطينية في الجيش الذي كان أميره يزيد بن معاوية[٢].

وفي البداية والنهاية: ولما توفي الحسن كان الحسين يفد إلى معاوية في كل عام فيعطيه ويكرمه، وقد كان في الجيش الذين غزوا القسطنطينية مع ابن معاوية يزيد في سنة إحدى وخمسين[٣].

وكما هو واضح مما سلف فإن هناك عدداً من أعيان الصحابة وآل البيت قد شارك في غزوة القسطنطينية، لدرجة أن ابن عساكر قد عدَّ الحسين بن علي فيمن شهد وشارك في هذا الفتح الذي لم يقدر اللّه له أن يتم.

وهناك من لا يعجبه هذا الكلام على الإطلاق لأنه يرى فيه إثبات أفضلية

(١) البداية والنهاية: ابن كثير (٨ / ٣٦).
(٢) تاريخ دمشق: ابن عساكر (١٤ / ١١١).
(٣) البداية والنهاية: ابن كثير (٨ / ١٦١).

لمعاوية ﵁ وابنه يزيد، وتحديداً ليزيد؛ لأنه قاد الجيش الذي قام بأول غزو وحصار للقسطنطينية، وبالتالي فإنه يدخل في الحديث الذي رواه البخاري بسنده عن النبي ﷺ أنه قال: أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم[1]. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى لأن الكلام السابق يشير إلى قيادة يزيد بن معاوية لجيش فيه عبد اللَّه بن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري، بل والحسين بن علي ﵃ حسب ما ذكره ابن عساكر في ترجمته للحسين ابن علي في تأريخه لدمشق.

ووجه الاستنكار عند أصحاب هذا التوجه أنه كيف يتسنى للحسين وابن عباس ﵃ أن يخرجا في جيش يقوده يزيد؟ إن هذا يحوي ضمناً رضاهم بشخصه وولايته على الحرب، وهذا أمر يرفضه أصحاب هذا التوجه.

وما يخصنا هنا هو مشاركة الحسين وابن عباس ﵃ مع إخوانهم من الصحابة ﵃ في حصار القسطنطينية عاصمة دولة الروم، وفي هذا ما فيه من إثبات الصلة الطيبة والمودة والرحمة التي كانت بين الآل والأصحاب ﵃.

* * *

---

(١) رواه البخاري: كتاب الجهاد، باب ما قيل في قتال الروم، ح (٢٩٢٤).

فتح سمرقند واستشهاد قثم بن العباس رضي الله عنهما

كان من الفتوحات العظيمة التي كانت فيها بصمات آل البيت مع الصحابة واضحة، فتح سمرقند، في خلافة معاوية رضي الله عنه وكان ذلك في سنة ٥٦هـ وفيها توجه سعيد بن عثمان والي خرسان من قبل معاوية إلى سمرقند والتقى فيها مع الترك ودارت معركة كبيرة شارك فيها آل البيت مع الصحابة، وكان قثم بن العباس بن عبد المطلب[١] أحد شهداء هذا الفتح العظيم، وقد نصَّ المؤرخون على ذلك.

ورد في فتوح البلدان في قصة هذا الفتح ما يلي: ثم ولى معاوية سعيد بن عثمان بن عفان خراسان فقطع النهر وكان أول من قطعه بجنده، فكان معه رفيع أبو العالية الرياحي، وهو مولى لامرأة من بنى رياح، فقال: رفيع أبو العالية رفعة وعلو. فلما بلغ خاتون عبوره النهر حملت إليه الصلح، وأقبل أهل السُّغد[٢] والترك وأهل كش ونسف وهي نخشب إلى سعيد في مئة ألف وعشرين ألفا، فالتقوا ببخارى، وقد ندمت خاتون على أدائها الإتاوة ونكثت العهد. فحضر عبد لبعض أهل تلك الجموع فانصرف بمن معه، فانكسر الباقون، فلما رأت خاتون ذلك أعطته الرهن وأعادت

(١) قُثَم بضم القاف وفتح الثاء المثلثة على وزن عمر، يقال: رجل قثم إذا كان كثير العطاء وجموعاً للخير. وفي الصحاح: قثم اسم رجل معدول عن قاسم وهو المعطي، ويقال للرجل إذا كان كثير العطاء. انظر: الصحاح للجوهري (٥/ ٢٠٠٥)- الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة: السيد على خان المدنى، (ص١٥٢).

(٢) السُّغد: ناحية كثيرة المياة نضرة الأشجار، وفيها قرى كثيرة بين بخارى وسمرقند. (معجم البلدان للحموي: ٣/ ٢٢٢).

الصلح، ودخل سعيد مدينة بخارى، ثم غزا سعيد بن عثمان سمرقند، فأعانته خاتون بأهل بخارا. فنزل على باب سمرقند وحلف أن لا يبرح أو يفتحها ويرمى قهندزها، فقاتل أهلها ثلاثة أيام، وكان أشد قتالهم في اليوم الثالث. ففقئت عينه وعين المهلب بن أبي صفرة.

ويقال إن عين المهلب فقئت بالطالقان. ثم لزم العدو المدينة، وقد فشت فيهم الجراح. وأتاه رجل فدله على قصر فيه أبناء ملوكهم وعظمائهم. فسار إليهم وحصرهم. فلما خاف أهل المدينة أن يفتح القصر عنوة ويقتل من فيه طلبوا الصلح. فصالحهم على سبع مئة ألف درهم، وعلى أن يعطوه رهناً من أبناء عظمائهم، وعلى أن يدخل المدينة، ومن شاء يخرج من الباب الآخر: فأعطوه خمسة عشر من أبناء ملوكهم، ويقال أربعين، ويقال ثمانين. ورمى القهندز فثبت الحجر في كوته. ثم انصرف. فلما كان بالترمذ حملت إليه خاتون الصلح. وأقام على الترمذ حتى فتحها صلحا. ثم لما قتل عبد اللَّه ابن خازم السلمي أتى موسى ابنه ملك الترمذ فأجاره وألجأه وقوما كانوا معه، فأخرجه عنها وغلب عليها، وهو مخالف. فلما قتل صارت في أيدي الولاة. ثم انتقض أهلها ففتحها قتيبة بن مسلم.....

وكان قثم بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه مع سعيد بن عثمان، فتوفى بسمرقند. ويقال: استشهد بها. فقال عبد اللَّه بن العباس حين بلغته وفاته: شتان ما بين مولده ومقبره. فأقبل يصلى. فقيل له: ما هذا؟ فقال: أما سمعتم اللَّه يقول: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾[١].

---

(١) فتوح البلدان: البلاذري (٣/٥٠٧ - ٥٠٩).

وفي تاريخ اليعقوبي: وولَّى معاوية خراسان بعد عبد الرحمن بن زياد سعيد بن عثمان بن عفان، فقطع النهر، وصار إلى بخارى، فطلبت خاتون ملكة بخارى الصلح، فأجابها إلى ذلك، ثم رجعت عن الصلح، وطمعت في سعيد، فحاربهم سعيد، فظفر، وقتل مقتلة عظيمة. وسار إلى سمرقند، فحاصرها، فلم يكن له طاقة بها، فظفر بحصن فيه أبناء الملوك، فلما صاروا في يده طلب القوم الصلح، فحلف ألا يبرح حتى يدخل المدينة، ففتح له باب المدينة، فدخلها، ورمى القهندز بحجر، وكان معه قثم بن العباس بن عبد المطلب فتوفي بسمرقند. فلما بلغ عبد اللَّه بن عباس موته قال: ما أبعد ما بين مولده ومقبره، مولده بمكة، وقبره بسمرقند، فانصرف سعيد بن عثمان إلى معاوية، فولى معاوية مكانه أسلم بن زرعة(١).

ويقول ابن كثير: قثم بن العباس بن عبد المطلب كان أشبه الناس برسول اللَّه ﷺ، تولى نيابة المدينة في أيام علي، وشهد فتح سمرقند فاستشهد بها(٢)، وذكر في موضع آخر خبر استشهاده بصُغد(٣) سمرقند سنة ٥٦هـ(٤).

وأورد هذا ابن سعد في طبقاته(٥) والصفدي في وافيه(٦) و السمعاني في أنسابه: وزاد الأمر تفصيلًا بقوله: قتل-قثم- بسمرقند، ثم حمل منها إلى

---

(١) تاريخ اليعقوبي (٢/ ٢٣٧).
(٢) البداية والنهاية: ابن كثير (٨ / ٨٥).
(٣) صُغد سمرقند: موضع بسمرقند ذو أنهار وبساتين. (تاج العروس ٥/ ٦٢).
(٤) البداية والنهاية: ابن كثير (٨ / ٨٥).
(٥) الطبقات الكبرى: ابن سعد (٧ / ٣٦٧).
(٦) الوافي بالوفيات: الصفدي (٢٤/ ١٥٠).

مروان بمرو ودفن بالجصين بقرب بريدة[١].

وذكر الجصاص في أحكام القرآن: وروى شريك عن أبي إسحاق قال: قدم قثم بن العباس على سعيد بن عثمان بخراسان وقد غنموا، فقال: أجعل جائزتك أن أضرب لك بألف سهم؟ فقال: اضرب لي بسهم ولفرسي بسهم[٢].

وقال ابن عبد البر في ترجمته لقثم: مات قثم بن العباس بسمرقند واستشهد بها وكان خرج إليها مع سعيد بن عثمان بن عفان زمن معاوية[٣]. ونقله عنه ابن أبي الحديد في شرحه على نهج البلاغة[٤].

وفي كتاب طرائف المقال: قثم بن العباس بن عبد المطلب.. قبره بسمرقند.. وكان والياً من جانب أمير المؤمنين عليه السلام في مكة وقيل: في المدينة، ثم ذهب في زمان معاوية إلى سمرقند ففاز بالشهادة[٥].

ومما سبق يتضح أن قثم بن العباس كان ممن شهد فتح سمرقند وهذا هو الذي يعنينا، وإن كان هناك اختلاف بعد ذلك في موضع وفاته، فجمهرة العلماء والمؤرخين ذكروا أنه توفي بسمرقند، وكان منهم ابن حبان في الثقات[٦] وابن الأثير في أسد الغابة[٧] وصححه المزي في تهذيب

(١) الأنساب: السمعاني (٤/ ٣٠٥).
(٢) أحكام القرآن: الجصاص (٣/ ٧٦).
(٣) الاستيعاب: ابن عبد البر (٣/ ١٣٠٤).
(٤) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد (١٦/ ١٤٠).
(٥) طرائف المقال: علي البروجردي (٢/ ١٠٣).
(٦) الثقات (٣ / ٣٣٧).
(٧) أسد الغابة (٤/ ١٩٧).

الكمال[١] والذهبي في سير أعلام النبلاء[٢] وابن حجر في الإصابة[٣] والخوئي في معجم رجال الحديث[٤] ومحمد الأنصاري في معجم الرجال والحديث[٥].

وهناك من ذكر أنه توفي في مرو، وقد وحكى ابن حبان هذا الخلاف في موضع وفاة قثم ولم يفصل فيه[٦].

وسواء استشهد قثم رضي الله عنه في فتح سمرقند أم لم يستشهد أو دفن بسمرقند أم بمرو إلا أن الذي يعنينا هنا أنه شارك في هذا الفتح الكبير، والذي كان في خلافة معاوية رضي الله عنه وتحت إمرة سعيد بن عثمان بن عفان، وفي هذا من الدلالات ما فيه، فقثم رضي الله عنه من صغار الآل، ومعاوية رضي الله عنه الخليفة آنذاك من خيرة الصحابة، ومعنى أن قثماً شارك في فتح في خلافة معاوية أي أنه ارتضاه خليفة، ومعنى أنه كان تحت إمرة سعيد بن عثمان أي أنه ارتضاه أميراً عليه، وسعيد بن عثمان هو ابن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهذا فيه خير دلالة على سلامة قلوبهم من البغضاء والشحناء، وعلى المودة التي سادت بين الآل والأصحاب.

وبين أيدينا نص يوضح أن آل البيت كانوا حراصاً على المشاركة في الفتوحات الإسلامية مع إخوانهم من الصحابة نشراً للإسلام ورفعاً لرايته

---

(١) تهذيب الكمال (٢٣ / ٥٣٨).

(٢) سير أعلام النبلاء: الذهبي (٣/ ٤٤١).

(٣) الإصابة (٥/ ٣٢١).

(٤) معجم رجال الحديث: الخوئي (١٥/ ٧٩).

(٥) معجم الرجال والحديث: محمد الأنصاري (١/ ١٨٠).

(٦) مشاهير علماء الأمصار: ابن حبان، (ص٢٨).

وطلباً للثواب والأجر.

ورد في شرح نهج البلاغة: يقال: ما رئي قبور إخوة أكثر تباعداً من قبور بنى العباس رحمهم الله تعالى: قبر عبد اللَّه بالطائف، وقبر عبيد اللَّه بالمدينة، وقبر قثم بسمرقند، وقبر عبد الرحمن بالشام، وقبر معبد بأفريقية[1].

وبعد: فقد كشفت لنا المشاركات التي تمت بين الآل والأصحاب في الفتوحات السابقة عن مدى العلاقة الطيبة التي كانت بين الآل والأصحاب، ومع أن هذه الموارد ليست الوحيدة، فهناك قطعاً غيرها، لأن الفتوحات من أساسها قامت على أكتاف الآل والأصحاب، بل وقبلها الغزوات التي كانت في حياة النبي ﷺ.

وما قصدنا من بحثنا في هذا الجانب إلا الكشف عن صورة من صور العلاقة الطيبة التي سادت أجواء آل البيت والصحابة، والمحبة التي صهرت قلوبهم تجاه بعضهم البعض، والتي نحن منها على يقين، بناء على آي الذكر الحكيم، وسنة سيد المرسلين، وسيرة آله وأصحابه الغر الميامين رضي الله عنهم، وهدَى من كان الحق بغيته وأنار به قلبه وبلَّغه مُنيته.

* * *

(١) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد (١/ ٣٤١)- الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة: علي خان المدني (ص١٤٢). وراجع: الاستيعاب، ابن عبد البر (١/ ١٩٦).

الفصل الثاني

شبهات حول فتوحات الآل والأصحاب

مدخل: «بين يدي الفصل»

كان من العقبات التى وقفت فى وجه المد الإسلامى وحالت بين المسلمين ووحدتهم هو اجتماع أعداء الإسلام صفاً واحداً للقضاء على الإسلام، وبث روح التفرقة بين المسلمين؛ للحيلولة بينهم وبين مبادئ دينهم العظيم.

فمنذ أحقابٍ طويلة وأعداء الإسلام يكيدون له، ويضعون المخططات، ويحيكون المؤامرات، ويجمعون قواهم لكسر شوكته، وإسقاط رايته، ودحر أهله فى كل ميدان، وهالهم ما عاينوه من قوة الإسلام الذاتية التى جعلته يثبت أمام عواصفهم الهوجاء كالطود الراسخ، وأفزعهم- كذلك- ما شاهدوه من اتحاد المسلمين على مبادئ دينهم، وتماسكهم وثباتهم أمام أعدائهم.

من هنا: أدرك أعداء الإسلام أنه لا سبيل للقضاء على الإسلام طالما ظل المسلمون متحدين على مبادئه وشرائعه ومجتمعين تحت رايته؛ ولذا عملوا - دون كلل - على زرع روح التفرقة بين المسلمين، وبذر بذور الشقاق والنزاع بينهم، وتشكيكهم في ثوابت دينهم وشرائعه محاولة منهم لإحداث صدعٍ فى الصف الإسلامى، وإنهاكٍ للقوى الإسلامية، وصرف لغير المسلمين عن الدخول في الإسلام.

وفي سبيل هذا الهدف الذي أعلنه أعداء الإسلام تارة، واستبطنوه تارة أخرى فى حربهم على المسلمين، وتمزيقهم لصفوفهم لم يرعوا فيه إلَّا

ولا ذمة، ولم يعرفوا طريقاً من شأنه أن يقربهم إلى أهدافهم إلا وسلكوه، أياً كان هذا الطريق وأياً كانت دناءته وخِسَّته، فليس لشرف الخصومة عندهم أى وزنٍ يُذكر.

ويحدثنا محمد على علوبة عن بعض الصور أو الطرق التى سلكها أعداء الإسلام في تعاملهم مع المسلمين لتحقيق مآربهم قائلًا: «إنهم- أى الأعداء- دسُّوا لهم فى السياسة، ودسُّوا لهم فى التاريخ، ودسُّوا لهم فى العلم والرواية، ودسُّوا لهم فى النظريات الفلسفية، والقضايا الغيبية، وفتحوا لهم آفاق الشك والريب فيما لديهم وشغلوهم بالجدل والخصام حتى أنهكوا قواهم، وأوهنوا عقولهم، وحطموا أعصابهم، وأفقدوهم الثقة بأنفسهم، والتعويل على مواهبهم، ثم اقتطعوا أوطانهم قطعة بعد قطعة، واقتسموها فيما بينهم غنائم باردة، فى صورة الاستعمار أحياناً والحماية أحياناً، والوصاية أحياناً، ومناطق النفوذ أحياناً، وفتح الأسواق أحياناً، وهكذا من كل ما برر به الغاصبون غصبهم، وجعلوه ستاراً على مطامعهم وشهواتهم»[(١)] .

وهذا النص يبرز لنا أحد الأساليب العدائية التى استخدمها- ولا يزال يستخدمها- أعداء الإسلام للقضاء عليه ونهب ثروات بلاده بعد تشتيتهم وإضعافهم، وهذا الأسلوب هو ما يُعرف بالاستشراق[(٢)] وهو: «اتجاه فكرى يعنى بدراسة الحياة الحضارية للأمم الشرقية بصفة عامة، ودراسة

(١) مجلة رسالة الإسلام: (السنة الأولى ـ العدد الأول) (ص٦).

(٢) كلمة استشراق لا نكاد نجد لها ذكراً في معاجمنا اللغوية، مما يدل على أنها كلمة ليست عربية بل هي مولَّدة عصرية إلا أنها قد تكون منحوتة ومشتقة من مادة شرق والتي تدل في اللغة العربية على إضاءة وفتح. (معجم مقاييس اللغة: ابن فارس، ٣/ ٢٦٤).
أما عن المعنى الاصطلاحي للاستشراق فهو: دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون =

الإسلام والعرب بصفة خاصة، وكان فى بداية ظهوره مقتصراً على دراسة الإسلام وحضارته، واللغة العربية وآدابها، ثم بعد ذلك اتسعت مجالاته ليشمل دراسة الشرق كله لغاته، وأديانه، وتقاليده، وآدابه. . . ولكن أهم ما اعتنى به المستشرقون فى دراساتهم هو الدين الإسلامى واللغة العربية»[١].

والاستشراق فى حقيقته ما هو إلا صورة من صور الفكر المناوئ للإسلام، حيث لم يكن المستشرقون فى أغلب أمرهم إلا امتداداً للحرب التى ابتلي بها الإسلام والمسلمون عبر تاريخهم الطويل، ولقد قدّم المستشرقون بحوثاً ودراسات كان لها أثر ظاهر فى شق الصف الإسلامي وعرقلة مسيرة الدعوة الإسلامية في الغرب ولو نسبياً.

وعلى حدِّ تعبير شيخنا محمد البهي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين قال: «لا يعرف العقل ولا المنطق حدًّا لما يقوم به المستشرقون من تحريف للتاريخ الإسلامي وتشويه لمبادئ الإسلام وثقافته، وإعطاء المعلومات الخاطئة عنه وعن أهله، وكذلك يجاهدون بكل الوسائل لينتقصوا من الدور الذى لعبه الإسلام فى تاريخ

= من أهل الكتاب للإسلام والمسلمين من شتى الجوانب؛ عقيدة وثقافة وشريعة وتاريخاً وتنظيماً بهدف تشويه الإسلام وتشكيك المسلمين فيه، وفرض التبعية للغرب عليهم، ومحاولة تبريرها عن طريق نظريات تدعي العلمية والموضوعية. (راجع: رؤية إسلامية للاستشراق، ص٩)، أحمد عبد الحميد غراب، نقلًا عن: من افتراءات المستشرقين على الأصول العقدية، (ص١٧)، عبد المنعم فؤاد، طبعة مكتبة العبيكان - الرياض، سنة ١٤٢٢هـ.

(١) موقف المسلم من الدراسات الاستشراقية: محمد علوى المالكى، ص٧٠٦، نقلًا عن: بين الإسلام والغرب ضراوة أحقاد ومرارة حصاد، على محمد عبد الوهاب، (ص١٩٧، ١٩٨) بتصرف - دار كابى للنشر، ط١: سنة ١٤١٦هـ. ١٩٩٦م.

الثقافة الإنسانية»[١].

وبهذا يتضح جلياً أن أعداء الإسلام لم يعد يكتفون فى محاربته وتمزيق أمته بالوسائل التقليدية القديمة التى تثار فيها الدماء بين الطرفين، بل عمدوا إلى أساليب أخرى أشد أثراً وأمضى فاعلية، ومن هذه الوسائل التى اعتمدوها أسلوب الغزو الفكرى الذى تعددت طرقه ومحاوره وكان أبرزها المحور الاستشراقى الذى يعتمد أساساً على وضع بذور الشك والريبة بين المسلمين، ليصرفوهم عن دينهم، ويمزقوا أمتهم ويحولوها إلى شيع وأحزاب ودويلات تتحارب فيما بينها.

أى أن الروح العامة التى سيطرت على المنهج الاستشراقى فى معظم الحالات، وعلى أكثر المستشرقين. . . كانت روحاً عدائية للإسلام تقوم على دراسة الإسلام لغة وعقيدة وشريعة وقرآناً وسنة وحضارة وتاريخاً للهجوم عليه[٢].

ومن الإنصاف القول: بأن هناك قلة قليلة من المستشرقين استطاعت الإفلات والانعتاق من أسر التقاليد الاستشراقية المستقرة منذ أمدٍ بعيد، واتسمت دراساتهم في بعض جوانبها بالنزاهة والحيدة والوقوف إلى جانب الحق، بل إن بعضهم ليشعر بالحرج والخجل من موقف غيرهم ممن سار فى ركب الاستكبار والعدوان.

---

(١) مجلة الأزهر الجزء السابع ص٥٢٥ سنة ١٣٧٩هـ، نقلًا عن: التآمر على التاريخ الإسلامي، أبو الوفا أحمد عبد الآخر، (ص ٦٦).

(٢) دراسات فى الفكر الإسلامى المعاصر: محمد عبد اللّه الشرقاوى، محمد السيد الجليند. (ص١١) بتصرف، ط: دار الثقافة العربية، سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٩٦م.

يقول وايلد: والأقبح من ذلك أنه يوجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين، سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه فى سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين، وهذا واقع مؤلم، لابد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة[١].

ومهما يكن من أمرٍ فإن الذى يعنينا هو أن الأكثرية الساحقة من المستشرقين لم تخل مؤلفاتهم من الدس والافتراء على الإسلام، ومن بذر بذور الشقاق والفرقة بين المسلمين، وأنهم أسلموا قيادهم لبني جلدتهم من المستعمرين، والذين تركزت جهودهم على التشكيك في مبادىء الإسلام وشرائعه لصرف المسلمين عن دينهم؛ لأنه يربيهم على الحرية، وينمى فيهم روح العزة والكرامة والإخاء، ويدعوهم إلى العمل لهداية غيرهم من غير المسلمين، والذين ينشؤون على هذا النحو لا يسهل استعبادهم.

وعليه فالحركة الاستشراقية بمثابة المصنع الذي يعدُّ الشبهات حول الإسلام وتشريعاته وتاريخه ليضعها بين أيدي المبشرين الذين لا يفتأون ينشرونها بين المسلمين وغيرهم؛ بقصد صرف غير المسلمين عن الدخول في الإسلام، وتشكيك المسلمين في ثوابت دينهم وأصوله بقصد صرفه عنه أو على الأقل إماتة الدين في قلبه وحصره بمجموعة من المراسم والأشكال الخالية من مضامينها وأهدافها، والذي حدث وللأسف أن تأثر بإفكهم بعض من ينتسب إلى الإسلام كما سنوضحه فيما بعد.

وكانت الفتوحات الإسلامية في قائمة- بل على رأس- الأمور التي تعرض لها الفكر الاستشراقي، وأخذ ينشر حولها الأراجيف والأباطيل.

(١) دراسات فى الفكر الإسلامى المعاصر: (ص١٣) بتصرف.

لقد وجه المستشرقون وأضرابهم كثير من الشبهات إلى الفتوحات الإسلامية سواء تلك التي خاضها الآل والأصحاب أو التي تلتها، وحاولوا من خلال هذه الشبهات سلخ الفتوحات عن هويتها وإخراجها عن مضمونها وإفقادها أعزّ أهدافها، كعادتهم في التشكيك فى الثوابت الإسلامية، سالكين جميع السبل لتشويه العطاء الحضاري للمسلمين، وتبعهم وللأسف في شبهاتهم بعض من ينتسب إلى الإسلام، فتلقوا ما ذكره المستشرقون وتلقفوه، وصاروا يتخرصون به في كل ساحة وميدان ظناً منهم أنهم بهذا قد حققوا بغيتهم في سلب الصحابة الكرام والآل العظام مآثرهم في الفتوحات الإسلامية، وأسقطوا مكانتهم في قلوب محبيهم، وأنى لهم ذلك؟

تنبيه وبيان:

يجدر بنا أن ننبه هنا إلى أن شبهات المستشرقين حول الفتوحات الإسلامية والتي سنتعرض لها بمزيد من البيان والتفصيل والرد تشمل فتوحات الآل والأصحاب في المقام الأول، وتشمل كذلك فتوحات من جاء بعدهم.

وعليه فتعلُّق الشبهات بفتوحات الآل والأصحاب آكد، وذكرها والرد عليها واجب؛ لأنها في صميم بحثنا.

وشبهات الفتوحات كثيرة إلا أننا سنخص بالذكر هنا أكثرها انتشاراً وأقواها أثراً، وتحديداً تلك التي رددها خلف المستشرقين بعض من ينتسب إلى الإسلام، لنكشف عن التمازج الخطير الذي حدث بين المستشرقين ومن تأثر بهم عن عمدٍ لخدمة أهداف يصبون إليها وهي كالتالي:

أولًا: شبهة دموية فتوحات الآل والأصحاب وإكراهها الناس على اعتناق الإسلام

أرجع كثير من المستشرقين السبب في انتشار دعوة الإسلام في فترةٍ وجيزةٍ من عمر الزمن إلى استعمال المسلمين الفاتحين، وبخاصة جيل الآل والأصحاب، للقوة والبطش لإكراه الناس على الدخول في الإسلام.

لقد وقف أعداء الإسلام حيارى أمام واقع التاريخ الإسلامي وأمام حقيقة انتشار الإسلام الذي أضاء بنوره معظم أرجاء العالم المتحضر آنذاك وخلال بضع سنين، وحتى يسلب هؤلاء الأعداء من الإسلام علامات صدقه ودلالة إعجازه المستمدة من حقيقة انتشاره السريع وحتى يحجبوا عظمة انتشاره الدالة على صدقه وانتهى رأيهم بل انتهت مؤامراتهم بتعليل انتشار الإسلام بعلل باطلة، ومن أكثر هذه الأقوال شيوعا أن الإسلام انتشر بالسيف[١].

والمطالع والمتابع لأدبيات كثير من المستشرقين سيجد ولأول وهلة أنهم اتخذوا من فتوحات الآل والأصحاب ومن جاء بعدهم غطاءً لوصم الدعوة الإسلامية بالعنف والشدة لصرف أنظار الغربيين عن الدخول فيها، وقد دأب الفكر الغربي المتعصب دائماً إلى وصم الدين الإسلامي بالإرهاب والعنف، وتشويه تاريخ الأمة الإسلامية وتصويره على أنه تاريخ صراع وحروب وفتن، وقد أثار هذه الافتراءات نفر من المستشرقين.

---

(١) التآمر على التاريخ الإسلامي: أبو الوفا أحمد عبد الآخر، (ص١٧٤، ١٧٥).

- يقول توماس أرنولد: «ولم ينجحوا - أي المسلمون - في نشر الإسلام فيما وراء بيئتهم إلا عن طريق الاضطهاد والإكراه على التحول إلى هذا الدين»[١].

- ويقول المستشرق هوجان جاك سيديو: «إن المسلمين أصحاب عقيدة ولكنهم توسلوا بالتعصب الأعمى وأخضعوا الناس لمبادئهم بالقهر والإرغام وبحار الدم والقسوة وإنهم كانوا يحملون القرآن الكريم بأحدى يديهم والسيف باليد الأخرى»[٢].

- ويقول المستشرق جولد زيهر فى كتابه: «العقيدة والشريعة في الإسلام» «وإنه ليصح لنا أن نضيف أنه بعد انتصارات محمد ﷺ الحربية التي لم يشاهدها الرسول محمد ﷺ، وجدت أمام أعيننا رقعة فسيحة كبيرة للإسلام جاوزت حدود الوطن وقد فتحت بقوة السيف»[٣].

وعلى نفس الوتر عزف المستشرق نلسون فنجده يقول بلا حياء: «وأخضع سيف الإسلام شعوب أفريقية وآسيا شعبا بعد شعب»[٤].

وهذا طعن واضح وصريح في فتوحات الآل والأصحاب، فما شُرع في

---

(١) الدعوة إلى الإسلام بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية: توماس أرنولد، (ص٢٨٥)، ط٣: مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، سنة ١٩٧٠م.

(٢) بحث بعنوان: (الفتوحات بين دوافعها الإسلامية ودعاوى المستشرقين) جميل عبد اللَّه المصري، (ص٧٣) بحث منشور فى مجلة المنهل السعودية العدد السنوي رقم (٤٧١)، وانظر: التآمر على التاريخ الإسلامي، أبو الوفا أحمد عبد الآخر، (ص١٧٤، ١٧٥).

(٣) العقيدة والشريعة في الإسلام: المستشرق جولد زيهر، (ص٣٥).

(٤) التبشير والاستعمار في البلاد العربية: مصطفى الخالدي، عمر فروخ، (ص٤١)، ط٢: المكتبة العصرية- بيروت، سنة ١٩٥٧م.

فتح أفريقية وآسيا إلا في عهدهم وبجهودهم، حيث فتحوا قطاعات واسعة من هذه البلاد، ونشروا في أرجائها نور التوحيد بأخلاقهم قبل أقوالهم.

ويعلنها المستشرق كارل بروكلمان صريحة بقوله: «يتحتم على المسلم أن يعلن غير المسلمين بالعداوة حيث وجدهم، لأن محاربة غير المسلمين واجب دينى»[(١)].

ومثل هذا التشويه والافتراء والتشكيك قد ردده عدد من المستشرقين المتعصبين لا سيما فى: «دائرة المعارف الإسلامية» والتى تناولت هذا الموضوع بشىء من التوسع إذ يقول المستشرق ماكدونلد حول «مادة الجهاد»:

«إن الإسلام انتشر بالسيف. . . . وهو فرض كفاية على المسلمين، وكاد الجهاد أن يكون ركناً سادساً من أركان الدين أو فرض عين»[(٢)].

وتعد شبهة انتشار الإسلام بحد السيف من أخطر افتراءات المستشرقين على الإسلام على الإطلاق، وأن هذه الفرية لم يسلم منها حتى رؤساء الكنيسة، ففي عام ٢٠٠٦م صرح بابا الفاتيكان «بندكيت السادس عشر» بهذه الفرية الظالمة في إحدى محاضراته[(٣)] مدعيا أن محمداً نبي الإسلام

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية المستشرق كارل بروكلمان، (ص٧٨) بإيجاز.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية تصنيف أصدرها أئمة المستشرقين فى العالم «النسخة العربية» «مادة الجهاد» (٧/ ١٨٨) ط دار المعرفة - بيروت، لبنان.

(٣) عقدت المحاضرة المذكورة فى جامعة هاتسبورج بجنوب ألمانيا وكانت بعنوان: (العقيدة، العقل، والدين) وخصص البابا الجزء الأكبر منها للهجوم على الثوابت الإسلامية. انظر: هذا هو الإسلام (حوار هادئ مع بابا الفاتيكان) محمد سيد طنطاوى، (ص٢٥) هدية مجلة الأزهر السنة (٧٩) الجزء (١١) ذو القعدة ١٤٢٧هـ ديسمبر ٢٠٠٦م. وانظر: شبهات المستشرقين حول التراث الإسلامي، (ص٣٢٧).

أمر بنشر الإسلام بحد السيف، وأنه لم يأت إلى العالم إلا بكل ما هو سيئ وشرير، وأن الدين الإسلامي قام على الإكراه والعنف وحد السيف، وكان من نص مزاعمه ما يلي:

أرني ما الجديد الذي أتى به محمد ولن تجد سوى كل ما هو سيئ وغير إنساني مثل أنه أوجب نشر الاعتقاد الذي يعلمه بحد السيف واستشهد بابا الفاتيكان «بندكيت السادس عشر» بما قاله أحد القساوسة:

إن دين الصليب نشأ في الأرض دون سيف ولا قهر، ودين الإسلام إنما ظهر بالسيف والقهر في الأرض، وقاتل نبي الإسلام الأمم وغلبهم، وكان سبباً في تغيير شريعة النصارى وتكفيرهم... فقاتل جميع الأمم وغلبهم بسيفه، وإنما جاء المسيح ابن مريم هيناً ضعيفاً ولم يقاتل أحداً، فأخذ وصلب فى مرضاتنا فهو إلهنا، وخالقنا ورازقنا[١].

وهذا النص هو الآخر يحوي طعناً في فتوحات الآل والأصحاب بخاصة، والفتوحات الإسلامية بعامة.

- ويقول المستشرق الأمريكي واشنجتون ايرفنج: القاعدة السادسة والأخيرة من قواعد العقيدة الإسلامية هي الجبرية، وقد أقام محمد اعتماده على هذه القاعدة لنجاح شئونه الحربية[٢].

---

(١) هذا هو الإسلام (حوار هادئ مع قداسة بابا الفاتيكان)محمد سيد طنطاوى، (ص١٠) هدية مجلة الأزهر السنة (٧٩) الجزء (١١) ذو القعدة ١٤٢٧هـ ديسمبر ٢٠٠٦م.
وانظر: الإسلام فى مواجهة التحديات، محمد عمارة (ص٢٢٤، ٢٢٥)، ط١: نهضة مصر سنة ٢٠٠٧م.

(٢) المستشرقون والإسلام، زكريا هاشم، (ص٤٣).

وواضح هنا أن هذا المستشرق وأضرابه يرمون من كلامهم هذا إلى وصم الإسلام بالجبرية التي اعتمدها النبي ﷺ- على حدِّ تعبيره- كقاعدة لنشر الإسلام وتحديداً في الشئون الحربية، إكراه الناس على اعتناق الإسلام[١].

إن هذه كلها محاولات فاشلة ترمي إلى توهين عرى الإسلام وتقويض حصنه الذي عزَّ على الخطوب، وقَهَر القوى كلها، وثبت في وجه المحن والكروب، كما أنها ترمي إلى تشويه صورته وصرف أهله عنه، وضرب قاماته وأعلامه المتمثلين في آل بيت النبي ﷺ وأصحابه.

وهذا الكلام ليس بمستغرب عن هؤلاء القوم، ولكن الغريب أن يظهر أحد ممن ينتمي إلى الإسلام ويقرر مثل هذا الكلام الساقط من كل وجه زاعماً أن الفتوحات الإسلامية التي حدثت في خلافة الفاروق عمر بن الخطاب اتسمت بالدموية والعنف، وأنها شوهت سمعة الإسلام وأعطت نتائج سلبية معكوسة.

فقد ذكر الأحمدي الميانجي: أن فتوحات عمر بن الخطاب كانت خاطئة وكان لها نتائج سلبية معكوسة... فإنه هاجم البلاد وأدخلهم في الإسلام بالسيف والقهر، ولذلك كره الناس الإسلام واتهموه بأنه دين السيف والقوة لا دين المنطق واللين، وصار ذلك سبباً لكثرة أعداء الإسلام، فإذن فتوحات عمر شوهت سمعة الإسلام وأعطت نتائج سلبية معكوسة، ولو لم يغصب أبو بكر وعمر وعثمان الخلافة من صاحبها الشرعي: الإمام علي عليه السلام، وكان الإمام يتسلم مهام الخلافة بعد الرسول مباشرة لكان يسير بسيرة الرسول ويقتفي أثره ويطبق منهاجه الصحيح، وكان ذلك

---

(١) راجع: المستشرقون والإسلام، زكريا هاشم، (ص٤٣).

موجباً لدخول الناس في دين الإسلام أفواجاً ولكانت رقعة الإسلام تتسع حتى تشمل وجه الكرة الأرضية، ولكن لا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم(١).

وهذا بلا شك طعن جلي في الفتوحات العُمرية، والتي شارك فيها الآل والأصحاب رضي الله عنهم.

والأمثلة والشواهد على وجود مثل هذه الشبهة كثيرة، وما ذُكر غيض من فيض وقليل من كثير.

الرد على الشبهة:

إن هذه الشبهة قديمة قد لاكتها كثير من الألسنة التي ملأها الحقد والحسد، فادعت أن الإسلام انتشر بحدِّ السيف تحت وطأة الإكراه والعنف، وأن المسلمين أكرهوا غيرهم على الدخول في دينهم.

وكان أولى بالمستشرقين أن يقدموا بين يدي هذه الشبهة دليلًا واحداً ولو ضعيفاً يؤيد دعواهم، حتى يضفوا على كلامهم مسحة من المنهجية العلمية ولو زائفة أو مصطنعة، إلا أنهم أعجز وأقل من أن يفعلوا ذلك.

إنهم بما فعلوه ويفعلونه أرادوا تأسيس منهج يخالف المتعارف عليه والثابت والمقرر لدى أرباب العلم، منهج يتنكر لحقائق التاريخ ومسلماته بدل أن يتحاكم إليها، ويتنكر للحجة والدليل بل ويصادمهما، ويبني فرضيات على أوهام وخيالات، ثم ينشئ عليها أحكاماً وإن شئت فقل أوهاماً.

---

(١) مواقف الشيعة: الأحمدي الميانجي (٣ / ١٢١ - ١٢٢).

وهذا المنهج الاستشراقى العدائى ليس بغريب على أمثال هؤلاء فهم يختارون من بين كتب التاريخ الإسلامي ما يريدون ويتركون ما يشاؤون بدون رقيب، فإذا لم يجدوا فى الروايات ما يفيدون منه أطلقوا العنان لخيالاتهم المريضة فافترضوا أحداثاً ومواقف لا أساس لها في الواقع، اللَّهم إلا في خيالهم المريض؛ ليقرروا ما يريدون تقريره، ويبرزوا النتائج التي تخدم أهدافهم مغمضين أعينهم وعقولهم عما يشوبها من الخطأ البيِّن، فهم لا يهتمون بتوثيق بياناتهم بالمصادر المعتمدة بل قد يطعنون فى تلك المصادر أو يتجاهلونها تماماً، وهذه هي منهجيتهم المعتمدة؛ تزوير الحقائق وقلب المضامين، واتباع منهجية التدليس والافتراء.

وعليه فهذه الشبهة لا أساس لها من الصحة، فهي شبهة تكذبها نصوص الشريعة، ويكذبها الواقع والتاريخ والعقل والمنطق، بل ويكذبها كثير من المنصفين من غير المسلمين، وكما يقال: **الحق ما شهدت به الأعداء**.

لماذا هذه الشبهة؟

إن السرَّ وراء تمسُّك المستشرقين بهذه الشبهة عبر أزمان طويلة يرجع في الأغلب إلى ثلاثة أمور: أولها: الإشارة إلى أن الإسلام لم يكن فيه من العقائد والمباديء والتشريعات ما يجذب الآخرين إليه.

وثانيها: طعنهم في الآل والأصحاب الذين أقاموا صرح الدين مع نبيهم، ووصمهم بالقسوة والعنف وحمل الناس بالإكراه على اعتناق الإسلام، تنفيراً للناس عن اتباعهم والعمل بسيرهم وأخلاقهم.

وثالثها: إدراك المستشرقين لأهمية الجهاد في الإسلام وصلته القوية بالدعوة الإسلامية، وأهمية موقعه إذا استيقظ في نفوس المسلمين وأصبح

له أثر بالغ في حياتهم وواقعهم، لما له من مقدرة بالغة على حمل شريعة الإسلام السمحة إلى الشعوب المقهورة، وأنه إذا أدرك المسلمون هذا فلن تقف أي قوة بالغة ما بلغت من الأهمية فى وجه الدفع الإسلامي؛ ولذا ينبغي القيام بأي عمل يحول بين المسلمين وإدراك هذا الأمر الجلل، بغية إيقاف المد الإسلامي.

من أجل ذلك كله وغيره وجه المستشرقون سهامهم إلى الفتوحات الإسلامية بعامة وفتوحات الآل والأصحاب بخاصة.

والجهاد فى اللغة: مأخوذ من الجهد والطاقة والمجاهدة والمشقة يقال: جاهد يجاهد جهاداً ومجاهدةً إذا استفرغ وسعه وبذل طاقته وتحمل المشاق في مقاتلة العدو ومدافعته، ويقال جهد في الأمر جهدا أي جد وطلب حتى وصل إلى الغاية، وجاهد العدو مجاهدة وجهادا أى قاتله، والجهاد شرعاً: بذل الجهد في قتال الكفار، ويطلق أيضاً على مجاهدة النفس والفساق والمقصود به الحرب في العصر الحديث وهى القتال المسلح بين دولتين فأكثر شريطة أن تكون إحدى الدولتين المتقابلتين مسلمة، وقد فرض اللَّه فريضة الجهاد في السنة الثانية من الهجرة النبوية[(١)].

وعليه فإنه يجب علينا أن نقرر أن الجهاد باب من أبواب الدعوة الإسلامية وأنه إنما شرع لإزالة الحواجز التي تقف في وجه هذه الدعوة، وتمنع وصولها إلى الناس فهو آخر درجاتها وأعلى مستوياتها، ولا يعني هذا

---

(١) راجع: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف: مانع بن حماد الجهنى (٢/ ١٠٣٩- ١٠٤١) الموسوعة الإسلامية العامة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، (ص١٣٨٥، ١٣٨٦).

بحالٍ من الأحوال أن الجهاد باب من أبواب إكراه الناس على الدخول في الإسلام.

لا إكراه في الدين:

إن الإسلام لا يكره أحداً على اعتناقه وما يرضى المسلمون أن يكون العالم كله على دينهم بالإكراه والعنف، إن مسلماً واحداً مؤمناً بدينه عن قناعة وتبصُّر لهو خير من آلافٍ مؤلفة من المسلمين المكرَهين.

والقرآن الكريم دستور المسلمين الخالد يقرر مبدأ حرية الاعتقاد في آيات بينات منها:

يقول اللَّه تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ويقول تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

ويقول تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٠ - ٢١].

ويقول تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧].

ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

فهذه النصوص القرآنية تؤكد بما لا يدع مجالًا للشك أن مبدأ الإكراه على اعتناق الإسلام مبدأ مرفوض إسلامياً، وأن حرية العقيدة مكفولة للجميع، شريطة أن تصل إليهم الدعوة الإسلامية نقية واضحة، ثم بعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

فليس لأحدٍ بمقتضى هذه النصوص الربانية المحكمة أن يُكره الناس على دخول الإسلام إكراهاً، ولكن يدعوهم بالحجة النيرة والكلام السديد الحسن، فإن أسلموا عن طواعية واقتناع كان خيراً وبركةً، وإن أبوا إلا المكث على دينهم المنزَّل من السماء تركوا وشأنهم طالما لم يعتدوا على المسلمين.

يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى: لا إكراه في الدين: «أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيّن واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحداً على الدخول فيه، بل من هداه اللَّه للإسلام، وشرح صدره، ونور بصيرته، دخل فيه علي بينة، ومن أعمى اللَّه قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً»[١].

كما أن المتأمل فى الآيات القرآنية فى طريقة دعوة أهل الكتاب إلى هداية الإسلام يلحظ فيها أنها دعوة تعتمد على الإقناع بالمنطق وبيان الحجة ثم

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (١/ ٣٨٣).

تجادلهم بالتى هى أحسن قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

يقول الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: « إن كثيراً من أهل الكتاب يزعم أن محمداً ﷺ وأمته إنما أقاموا دينهم بالسيف لا بالهدى والعلم والآيات، فإذا طلبوا العلم والمناظرة فقيل لهم: ليس لكم جواب إلا السيف كان هذا مما يقرر ظنهم الكاذب، وكان هذا من أعظم ما يحتجون به عند أنفسهم على فساد الإسلام وأنه ليس دين رسول من عند اللَّه، وإنما هو دين ملك أقامه بالسيف، ومن المعلوم أن السيف، لاسيما سيف المسلمين وأهل الكتاب، هو تابع للعلم والحجة، بل وسيف المشركين هو تابعٌ لآرائهم واعتقادهم، والسيف من جنس العمل، والعمل أبداً تابع للعلم والرأي، وحينئذٍ فبيان دين الإسلام بالعلم وبيان أن ما خالفه ضلالٌ وجهل هو تثبيت لأصل دين الإسلام، واجتناب لأصل غيره من الأديان التي يقاتل عليها أهلها، ومتى ظهرت صحته وفساد غيره كان الناس أحد رجلين.

١- إما رجل تبيَّن له الحق فاتبعه، فهذا هو المقصود الأعظم من إرسال الرسل.

٢- وإما رجلٌ لم يتبعه فهذا رجلٌ قامت عليه الحجة، إما لكونه لم ينظر في آثار أعلام الإسلام، أو نظر وعلم، فاتبع هواه أو قصر. . . فقيام الحجة أنصر وأعذر»[(١)].

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ابن تيمية (١/ ٢٤٤-٢٤٥) بتصرف يسير، دار العاصمة - الرياض، ط١: سنة ١٤١٤هـ.

تاريخ الغزوات والفتوحات خير شاهد:

إن تاريخ الفتوحات الإسلامية لا توجد فيه أدنى صورة على الإكراه والقسر على الدخول في الإسلام، ولا يوجد فيه ولو حتى مثال واحد لأناس اعتنقوا الإسلام تحت وطأة الإكراه أو التعذيب، إنه صورة حية للتسامح والرحمة.

إن المسلمين حينما فتحوا البلاد لم يتدخلوا قط في شئون دينها، ولم يرغموا أحداً قط على تغيير عقيدته، ولم يثبت التاريخ واقعة واحدة أُكره فيها أحد على الإسلام، فالسيف لا يفتح قلباً.

ولقد روى زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية: أسلمي أيتها العجوز تسلمي، إن اللَّه بعث محمداً بالحق، قالت: أنا عجوز كبيرة والموت إليَّ قريب، فقال عمر: اللَّهم اشهد، وتلا: لا إكراه في الدين[1].

وعليه فالإكراه على اعتناق الإسلام مرفوض رفضاً تاماً في شريعة الإسلام، إذ أن العقيدة محلها القلب ولا تستطيع أية قوة أن تغير ما استقر في القلب إلا بالحجة والإقناع والمنطق، وهذا لا يكون إلا بالرفق وعن طريق الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

إن تاريخ الفتوحات خير شاهد على أن الإسلام لم ينتشر بحد السيف، بل إنه انتشر بعقيدته الصافية التي صقلت النفوس وربت الأرواح وقوّت الأبدان،

---

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٢٨٠). ورواه البيهقي في الكبرى: كتاب الطهارة، باب التطهر في أواني المشركين، ح (١٣١) بدون زيادة «وتلا: لا إكراه في الدين»، والدار قطني في السنن بدون هذه الزيادة أيضاً. كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء أهل الكتاب، ح (٢).

فخرَّجت رجالًا في قمة الإخلاص لعقيدتهم، فسعوا يبلغونها إلى العالمين بأخلاقهم، وحالهم قبل مقالهم، وقد باعوا أنفسهم لدينهم فكتب اللَّه لهم النصر والتمكين.

تاريخ الدعوة الإسلامية شاهد على بطلان هذه الشبهة:

كما أن تاريخ الدعوة الإسلامية شاهد على بطلان هذه الفرية، فالدعوة في المرحلة المكية لم تحمل سلاحاً ولم تدخل معركة ومع ذلك آمن بها من آمن رغم ضراوة الإرهاب والعنت والاضطهاد والأذى الذي كان يحيقه المشركون بمن يعتنق الإسلام فأين هو هذا السيف؟

ويضاف إليه أن الفترة التي نشطت فيها الدعوة إلى الإسلام والتي شهدت إقبال الناس على اعتناق الإسلام هي تلك الفترة التي اتسمت بالاستقرار والبعد عن الحرب، ففترة السلم بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة شهدت إسلام الكثير من الناس لدرجة جعلت بعض المؤرخين يقول: إن من دخل الإسلام في تلك الفترة كانوا أكثر ممن دخلوه في المدة التي تقرب من عشرين عاماً منذ بدء الدعوة حتى تلك الفترة[١].

ولو كان الإسلام يكره الناس على اعتناقه فلم أبرم الرسول ﷺ العهود والمواثيق مع اليهود في المدينة، وماذا كان يمنعه من أن يكرههم على اعتناق الإسلام أو أن يبيدهم عن آخرهم علماً بأن المسلمين كانوا القوة الأولى في الجزيرة العربية والرسول رجل الدولة الأول ولو أراد لفعل وما

---

(١) راجع: الإسلام، أحمد شلبي (ص١٩٥)، ظاهرة انتشار الإسلام: محمد فتح اللَّه الزيادي، (ص١٩٦).

عصاه أحد، إنه لا شيء يمنعه من ذلك إلا الأمر الإلهي: لا إكراه في الدين[١].

ثم إنه يلاحظ في حروب المسلمين وفتوحاتهم أن الدعوة لا تنتشر ولا يعلو شأنها إلا بعد أن تغمد السيوف وتخمد جذوة الحرب، وتضع الحرب أوزارها لما يرى من أخلاق المسلمين الفاتحين وما يعلم من تعاليم دينهم.

كما أن هناك كثير من البقاع التي لم يصل إليها المسلمون كجيش وإنما وصل إليها آحادهم من التجار والمسافرين الذين استطاعوا بسلوكهم وأخلاقياتهم أن يقدموا لأهل هذه الأقطار صورة مشرقة عن الإسلام جذبت الناس إليه في شوق ولهفة، مثل أندونيسيا وغيرها، فلم يُرفع فيها سيف ولم ترق فيها قطرة دم.

يقول الشيخ السيد سابق: «إن الأمة الإسلامية هي الأمة المنتدبة من قبل اللَّه لإعلاء دينه، وتبليغ وحيه وهى منتدبة كذلك لتحرير الأمم والشعوب... وكانت مكانتها من غيرها مكانة الأستاذ من التلاميذ، وما دام أمرها كذلك فيجب عليها أن تحافظ على كيانها الداخلي، وتكافح لتأخذ حقها بيدها وتجاهد لتتبوأ مكانتها التى وضعها اللَّه فيها، ولا يوجد دين من الأديان دفع بأهله إلى خوض غمار الحروب، وقذف بهم إلى ساحات القتال فى سبيل اللَّه، والحق فى سبيل المستضعفين من أجل الحياة الكريمة غير الإسلام»[٢].

---

(١) راجع: ظاهرة انتشار الإسلام: محمد فتح اللَّه الزيادي، (ص٢٠٩) بتصرف.

(٢) فقه السنة: السيد سابق (٣/ ٤٠) بتصرف.

وهنا يجب أن نلتفت إلى حقيقة هامة ألا وهي أن المسلمين الفاتحين ما نقلوا الإسلام إلى الناس ولكنهم نقلوا الناس إلى الإسلام، فلم يكن النصر العسكري عندهم أعظم مطلوب، بل كان الانتصار الأكبر انتصار العقيدة.

«إن الفتح الإسلامي لم ينحسر عن عزيزٍ وذليلٍ، بل انحسر عن تحريرٍ وعلمٍ وطمأنينة ووحدة في العقيدة والمنهج، بعقيدة ربانية أصبح بها صاحبُ القافلة وحامي الظعينة يعتقد في نفسه أنه مدار الكون ومحوره»[(١)].

ومن ينظر بعمق في تاريخ دعوة الإسلام وانتشاره يجد أن الإسلام لم ينتشر انتشاراً واسعاً في البلاد التي فتحها المسلمون إلا بعد مدة من الزمن، حين زالت الحواجز بين الناس والدعوة، واستمعوا إلى المسلمين في جو هادئ مسالم، وعاينوا أحوالهم وأخلاقهم بعيداً عن صليل السيوف وقعقعة الرماح؛ لأن السيف المسلط على رقبة الإنسان كثيراً ما يحول بينه وبين قبول دعوة صاحب السيف، وذلك لأن الإنسان مجبول على النفور مما يقهره ويذله.

ثم لنا أن نتساءل: أين هو هذا السيف أمام المغول الذين انقضوا على العالم الإسلامي كالصخرة تنقض من علٍ، ثم ما لبث أن عادوا إلى بلادهم مسلمين؟.

إنه مما لا شك فيه أن المسلمين خاضوا حروبا متعددة، ودانت لهم دول وشعوب، وانتشر الإسلام في هذه الدول وبين تلك الشعوب بالحجة والمنطق.

---

(١) في التاريخ الإسلامي: شوقي أبو خليل، (ص٢٧٨).

وكان من خصائص ذلك الانتشار:

- عدم إبادة الشعوب.
- جعلوا العبيد حكاماً.
- لم يفتحوا محاكم تفتيش.
- ظل اليهود والنصارى والهندوك فى بلادهم.
- تزاوجوا من أهل تلك البلاد وبنوا أُسراً وعائلات على مرِّ التاريخ.

- ظل إقليم الحجاز مصدر الدعوة الإسلامية فقيراً إلى عصر البترول في الوقت الذى كانت الدول الاستعمارية تجلب خيرات البلاد المستعمرة إلى مراكزها.

- تعرَّضت بلاد المسلمين لشتى أنواع الاعتداءات «الحروب الصليبية - الاستعباد فى غرب إفريقيا - إخراج المسلمين من ديارهم فى الأندلس وتعذيب من بقى منهم فى محاكم التفتيش» ونخلص من هذا كله أن تاريخ المسلمين نظيف وأنهم يطالبون خصومهم بالإنصاف والاعتذار، وأنهم لم يفعلوا شيئاً يستوجب ذلك الاعتذار حتى التاريخ المعاصر(١).

الإسلام دعوة ذاتية يخاطب العقل بالحجة والبرهان:

إن شبهة انتشار الإسلام بالسيف تشير إلى أنه لم يكن في الإسلام من المبادئ ما يجتذب إليه الناس، فهم لم يقبلوه عن طواعية واقتناع، ولكن

(١) راجع: حقائق الإسلام في مواجهة حملات المشككين، إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، (ص٢٩٣).

كيف إذاً بقي الناس مسلمين؟ وحتى حين شنت الحرب ضدهم كمسلمين وفي بعض البقاع لفترات طويلة؟ ولو أن أي دعوة أخرى أو فلسفة لاقت جزءاً مما لاقاه الإسلام في عقيدته وبنيه من حملات متعددة الوسائل والاتجاهات وحرب شاملة ولا دولة حالياً فوق ذلك تحميه، ما كانت لتبقى إلا في بطون التاريخ(١).

إن الإسلام فتح أتباعه البلدان بالعقيدة الصافية الواضحة والأخلاق الفاضلة والتشريع المواكب والملائم، بل والمصلح لكل الأعصار والأمصار، ولذا نجد أنه عندما انحسر سلطان الإسلام السياسي والعسكري، بقي ابن البلاد التي فتحت يحمد اللَّه على نعمة الإسلام.

إن إقبال الشعوب على الإسلام كان بسبب ما لمسوه في الإسلام نفسه، فهو النعمة العظيمة، وما لمسوه من المسلمين من التخلق بأخلاق الإسلام والالتزام بأحكامه وأوامره ونواهيه، ولما لمسوه في القادة والجند الذين كانوا يقومون بالدعوة بالتطبيق العملي، فتميزت مواقفهم بأنبل المواقف التي عرفها التاريخ العالمي، فقد كان الخلفاء والقادة يوصون جندهم بالاستعانة باللَّه، والتقوى وإيثار أمر الآخرة على الدنيا والإخلاص في الجهاد، وإرادة اللَّه في العمل، والابتعاد عن الذنوب(٢).

ثم لنا أن نتساءل: ماذا يقول أولئك الذين يدعون أن الإسلام انتشر بالقوة وحد السيف عن أولئك الذين يدخلون في دين الإسلام أفواجاً من شتى أنحاء

---

(١) نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي: عبد الرحمن الحجي، (ص٨٠).
(٢) دواعي الفتوحات الإسلامية ودعاوى المستشرقين، (ص٥٥)، نقلًا عن: الفتح الإسلامي للصلابي، (ص١٦٨).

الأرض على تفاوت ثقافاتهم واختلاف جنسياتهم، وتحديداً في تلك الفترة الزمنية التي ضعف فيها المسلمين وتخاذلوا عن أداء واجبهم المناط بهم. أيمكن لهؤلاء أن يدعوا أن المسلمون أكرهوا تلك الأعداد الغفيرة للدخول في دينهم؟

إن التاريخ شاهد على أن الناس حينما يقفوا على حقيقة الإسلام بروعة معانيه وجمال أفكاره وتصوراته، وكمال تشريعه الواسع المتين، يقبلون عليه في تسارع وتزاحم ورغبة، وهذه حقيقة ظاهرة للعيان وقد تحدث عنها التاريخ بإسهاب وإفاضة، وكشفت عن صدقها التجارب عبر الأجيال والأحقاب، فإنه ما كان الإسلام لينكشف بعقيدته وتعاليمه الكاملة فيطلع عليه العالمون حتى يقبلوا عليه أيما إقبال؛ ليدخلوا في حومته راضين راغبين أفواجاً[١].

«إن هذا الإنصاف الإسلامي لغير المسلمين نابع من طبيعة الإسلام ومن سعة أفقه وقوة عقيدته وسماحة مبادئه والثقة بكل ذلك، ويمكن القول: إن تسامح العقيدة والمبدأ يسير طردياً مع سعة أفقها وقوتها، ولذلك فاق الإسلام كل ماعداه»[٢].

ويمكننا أن نلخص الأسباب التي ساعدت على انتشار الإسلام في فترة وجيزة من الزمن فيما يلي:

---

(١) انظر: افتراءات على الإسلام والمسلمين، أمير عبد العزيز، (ص١٣).
(٢) نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي: عبد الرحمن الحجي، (ص٧٧).

- وضوح العقيدة الإسلامية وبساطتها وسهولة شعائرها وتعاليمها وسماحة مبادئها.

- السلوك الإسلامي الحميد الذي كان يمارسه الصحابة والفاتحون أينما حلوا ونزلوا.

- اشتمال الإسلام على مبادئ سامية تعد بمثابة الدواء الشافي لكل الأمراض التي عانت وتعاني منها البشرية.

- إقرار مبدأ التسامح والحرية الدينية، وممارسة ذلك عملياً.

- الخُلق الكريم والسيرة الطاهرة التي كان عليها النبي ﷺ وأصحابه الكرام.

- الحماسة الشديدة التي أظهرها المسلمون الفاتحون في سبيل نشر دينهم وإيصال تعاليمه للناس بالتي هي أحسن(١).

إن الإسلام جاء رحمة للعالمين، وجاء ليحرر الرقيق لا ليشرع الرق، وما عرف الإسلام الإكراه على عقيدته، ولا أقر إبادة الشعوب وما عرفها، وما قاتل أتباعه إلا الجنود في ميادين المعارك.

حتى الجهاد نفسه والحرب ما أقرها الإسلام إلا لفسح المجال أمام العقيدة لتصل إلى الشعوب، وإزالة كل الحواجز التي تقف بين الدعوة والناس من قوى مختلفة سواء كانت ملوكاً أو حكومات أو أفراداً باغين... فالمهم هو أن يصل الإسلام إلى الشعوب ثم بعد ذلك لهم الخيار في اعتناقه أو رفضه

---

(١) راجع: ظاهرة انتشار الإسلام، محمد فتح اللّه الزيادي، (ص١٦٤).

فهم أحرار في ذلك وهم محاسبون أيضاً على ذلك الخيار، كل نفس بما كسبت رهينة[١].

لقد وجد السيف بالفعل ولكنه لم يكن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم، وإنما كان لرد المعتدين والمحافظة على الدولة الإسلامية وعلى المسلمين، كما كان إزالة العقبات التي تقف في طريق الدعوة الإسلامية[٢].

وعليه فإن السلام في الإسلام هو القاعدة والأصل، والحرب ضرورة يفرضها الدفع الحضاري من الحق للباطل، ومن الخير للشر؛ حتى لا تفسد الأرض، وحتى يتم التمكين فيها لرسالات السماء ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ**﴾ [البقرة: ٢٥١]. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠- ٤١].

والمولى جل وعلا يخاطب نبيه بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

إن هذا البيان القرآنى بإطاره الواسع الكبير، الذى يشمل المكان كله فلا يختص بمكان دون مكان، والزمان بأطواره المختلفة وأجياله المتعاقبة فلا يختص بزمان دون زمان، والحالات كلها سلمها وحربها فلا يختص

---

(١) ظاهرة انتشار الإسلام: محمد فتح اللَّه الزيادي، (ص٥٠، ١٥١).
(٢) نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي: عبد الرحمن الحجي (ص ٧٨).

بحالة دون حالة، والناس أجمعين مؤمنهم وكافرهم عربهم وعجمهم فلا يختص بفئة دون فئة؛ ليجعل الإنسان مشدوهاً متأملاً فى عظمة التوصيف القرآنى لحقيقة نبوة سيد الأولين والآخرين﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ رحمة عامة شاملة، تجلت مظاهرها فى كل موقف لرسول اللَّه ﷺ تجاه الكون والناس من حوله[١].

تشريع الجهاد في الإسلام ينفي هذه الفرية:

إن الباعث على الجهاد في الإسلام إنما هو دفع الأذى، وتمكين الدعوة، ومقاومة الشر، ومكافحة الطغيان، ولم يكن ثمة إكراه على دين، أو قهر على إيمان.

والناظر لتشريع الجهاد ليجد أن الإسلام شرعه لعدة أمور منها:

- إعلاء كلمة اللَّه تعالى لحديث أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَم وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ: مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ[٢].

- الدفاع عن المسلمين وصدِّ الطغيان وردِّ العدوان الواقع أو المنتظر: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

- تأمين طريق الدعوة ومنع الفتنة، أي الدفاع عن حرية الإنسان في اختيار

(١) راجع: حقائق الإسلام في مواجهة حملات المشككين، (ص٢٦٥).

(٢) رواه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا، ح (٢٦٥٥).

الدين الذي يشاء ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٣٩].

والجهاد فى الإسلام حرب مشروعة عند كل العقلاء من بنى البشر، وهى من أنقى أنواع الحروب من جميع الجهات:

١- من ناحية الهدف.

٢- من ناحية الأسلوب.

٣- من ناحية الشروط والضوابط.

٤- من ناحية الإنهاء والإيقاف.

٥- من ناحية الآثار أو ما يترتب على هذه الحرب من نتائج[١].

إن الجهاد فى سبيل اللَّه تعالى «يتسم بنبل الغاية والوسيلة معا، والآثار والثمار المتولدة عن هذا الجهاد متناسقة تماماً فى هذا السياق من النبل والوضوح، ويمكن إجمالها فيما يلى:

١ - إزالة الطواغيت الجاثمة فوق صدور الناس، وهو الشر الذي يؤدي إلى الإفساد في الأرض بعد إصلاحها.

٢ - إقرار العدل والحرية لجميع الناس مهما كانت عقائدهم.

٣- تقديم القضايا العامة على المصلحة الشخصية.

٤- تحقيق قوة ردع مناسبة لتأمين الناس في أوطانهم.

---

(١) راجع: حقائق الإسلام في مواجهة حملات المشككين، (ص٢٦٥).

٥- تربية النفس على الشهامة والنجدة والفروسية[١].

وعلى ضوء ما سبق فلقد كانت الفتوحات الإسلامية حروباً أخلاقية هدفت إلى إزالة الطواغيت وإقرار الحق والعدل، واستنقاذ الأبرياء من أسْرِ الجبابرة المتألهين، كما مر معنا من قول ربعي بن عامر حين دخل على رستم قائد الفرس وسأله مَن بحضرة رستم فقالوا له: «**ما جاء بكم؟ فقال: اللَّه ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه**»[٢].

فحروب المسلمين تقيدت بمبادئ الحق والعدالة والرحمة مع المغلوبين والمحاربين، وهذا أمر واضح لمن يقرأ تاريخ الفتوحات الإسلامية، ولا يقدح فيه ما يثيره الحاقدون بين آونة وأخرى من الطعن في الفتوحات ووصمها بما ليس فيها.

ويؤكد الدكتور عبد الصبور مرزوق أن افتراءات المستشرقين وأذنابهم حول الجهاد الإسلامي لا تثبت أمام الحقائق العلمية بقوله:

«أكذوبة كبيرة ظلت وما تزال ينسبها الظالمون للرسول ﷺ ولرسالته وعقيدته وهي أكذوبة أن الإسلام انتشر بالسيف، وأنه دين إرهابٍ وعنفٍ، وأنه دموي إلى آخر قائمة المقولات الظالمة التي تدين الإسلام وتدين ماضيه العظيم ثم تزرع الكراهية له ولأتباعه، ورداً على هذه

---

(١) حقائق الإسلام في مواجهة حملات المشككين، الشبهة الخامسة والستون (الإسلام انتشر بالسيف ويحبذ العنف) (ص٢٧٢).
(٢) البداية والنهاية: ابن كثير (٧ / ٤٧).

الأكذوبة الكبرى أعرض ما يلي:

أولًا: سجل التاريخ أن حصيلة الغزوات العشرين التى ردَّ بها رسول اللَّه ﷺ عدوان المشركين ومن تحالف معهم من اليهود، من الشهداء والقتلى لم يزيدوا على (٣٨٦) ثلاثمائة وستة وثمانين شهيداً، منهم (٢٠٣) هم قتلى المشركين (١٨٣) هم شهداء المسلمين، بينما الحروب الدينية داخل النصرانية بين الكاثوليك والبروتستانت والتى دامت أكثر من قرنين قد أبيد فيها ٤٠٪ من شعوب وسط أوربا حوالى عشرة ملايين.

ثانياً: البلاد التي دخلها الإسلام وانتشر فيها من غير أن يرجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب «أي دون قتال أو إكراه أو غزو بأي لون» هذه البلاد أكثر بكثير مما دخلوا فيه في الجزيرة العربية وفي شمال إفريقيا.

ثالثاً: قضية استخدام السيف في جملتها ليست جريمة نكراء إذا وضعت في ضوابطها التي وضعها الإسلام على السيف قبل الشروع في استخدامه وهي:

١- لم يستخدم السيف لإكراه أحد على الإسلام ولكن استخدم لدفع من يحولون دون إبلاغ الدعوة.

٢- دفع العدوان على بيت من بيوت اللَّه أو التصدي لمن يحولون بين الناس وبين أن يقوموا بعبادتهم.

٣- إن استخدام القوة تم في الإطار الذي حددته آيات القرآن دفاعاً عن المستضعفين ودفعاً للظالمين.

٤- استخدام القوة في أطر تبعد بها عن العنف والوحشية، فمثلًا لا يتم

قتال غير المقاتلين، ولا الشيخ الكبير المتقدم في السن، ويرتقي الإسلام بالنهي عن الإجهاز على جريح، فلا يجوز إتمام قتله»[١].

وعلى الرغم من كون الحرب مشروعة في الإسلام إلا أنه شرع لأتباعه آداباً لا يتخلفوا عنها قبل وأثناء وبعد المعركة، مما يدل على رفعة الهدف وسمو الغاية وأن السيف إنما هو استثناء يقع ضمن ضوابط حددها، وفيما يلي الحديث عنها:

آداب الجهاد في الإسلام وأخلاقياته:

لقد وضع الإسلام للجهاد آداباً ترعى وأخلاقاً تصان، وحذر النبي ﷺ من عدم الالتزام بها، ومن جملة هذه الآداب ما يلي:

١- تحرير النفس من الأطماع:

وتبدأ آداب الجهاد في الإسلام قبل المعركة، فقبل المعركة يجب على المسلم المجاهد أن يحرر نفسه من كل الأطماع، وألا يخرج مقاتلًا من أجل أي مصلحة شخصية، سواء كانت تلك المصلحة من أجل نفسه أو من أجل الطائفة التي ينتمي إليها، أو من أجل أي عرض دنيوي آخر، وينبغي أن يتقيد بالشروط التي أحلَّ اللَّه فيها الجهاد، وأن يجعل ذلك لوجه اللَّه تعالى، وإلا فإن جهاده مردود عليه إن لم يخلص نيته وسريرته لربه، ويكون من أول من تسعَّر بهم النار يوم القيامة كما روى الترمذي بسنده عن أبي هريرة في أول من تسعَّر بهم النار يوم القيامة، وفيه:

---

(١) سيد رسل اللَّه وأباطيل خصومه: عبد الصبور مرزوق، (ص٤٩، ٥٠) باختصار وتصرف إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، سنة ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

ويؤتى بالذي قتل في سبيل اللَّه فيقول اللَّه له فيماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت فيقول اللَّه تعالى له: وتقول له الملائكة: كذبت ويقول اللَّه بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذاك، ثم ضرب رسول اللَّه ﷺ على ركبتي فقال: يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق اللَّه تسعَّر بهم النار يوم القيامة(١).

٢- ردُّ العدوان يكون بقدر العدوان:

لقد وضع الإسلام للحرب آداباً ومعايير منها أن يكون رد العدوان بمثل ما حدث به العدوان، وذلك حتى لا يستبيح الناس فى الحرب غير المباح، ولأن الحرب فى الرؤية الإسلامية هى جراحات استثنائية يجب الوقوف فى آلياتها ومقاصدها ونطاقها عند المداواة للداء الذي فرضها دون الآليات والمقاصد التي توسع أبوابها فتحول الداء إلى أدواء؛ ولذلك جاء القرآن الكريم متحدثاً عن هذه الضوابط قال تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٤٩].

والأصل فى القتال هو مقاتلة المقاتلين من الأعداء المعتدين وليس قتالا ولا قتل النساء والأطفال وعموم غير المقاتلين وعن هذه الشمائل للفروسية الإسلامية تحدثت وصايا الرسول ﷺ(٢).

---

(١) رواه الترمذي: كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة، ح (٢٣٨٢) وقال: هذا حديث حسن غريب، وصحَّحه الألباني.

(٢) الإسلام فى مواجهة التحديات: محمد عمارة، (ص٢٣٠) .

٣- عدم تمني لقاء العدو:

ثم هناك قبل الجهاد- أيضاً- عدم تمني لقاء العدو، حيث كان من أبرز توصيات النبي لأصحابه عدم تمني لقاء العدو، وكان من قوله ﷺ: «لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا»[١].

لقد كان النبي ﷺ حريصاً على منع القتال حتى بعد أخذ الأهبة له، وكان يوصي أصحابه بهذا ليعلمهم أن القتال ليس الأصل، وإنما الأصل الدعوة.

٤- الدعوة إلى الإسلام قبل القتال:

والمقصود بالدعوة إلى الإسلام، أي دعوة المحاربين إلى الدخول في الإسلام، وتخييرهم بين ثلاث: إما الإسلام أو الجزية أو القتال.

والدعوة أصل إسلامي يجب على المسلمين الوفاء به، وحينما تقف أمامها العقبات يكون الجهاد والذي لا يخلو في بدايته من الدعوة ذاتها قبل خوض غماره ونزال ساحته، فالجهاد إنما هو لتأمين طريق الدعوة ومنع الفتنة.

والإسلام بهذا يوضح لأتباعه حقيقة رسالتهم وأنهم أصحاب رسالة وحملة أمانة وعليهم ألا ينسوا هذا حتى وهم في أحلك ظروفهم.

روى البخاري بسنده عن سهلٍ، قال: قال النبي ﷺ يوم خيبر: «لأُعطينَّ الراية غداً رجلًا يفتح اللَّه على يديه، يحب اللَّه ورسوله، ويحبه اللَّه ورسوله»، فبات الناس ليلتهم: أيهم يُعطى، فغدوا، كُلُّهم يرجوه، فقال: «أين عليٌّ؟»، فقيل: يشتكي عَيْنَيْهِ، فبصق في عينيه، ودعا له؛ فبرأ، كَأَنْ

---

(١) رواه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الصبر عند القتال، ح (٢٨٣٣). ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كراهية تمنى لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء، ح (٤٦٤٠).

لم يكن به وَجَعٌ، فأعطاه، فقال: أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: «أُنْفُذْ على رِسْلِكَ حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فواللَّه لأَنْ يَهْدِيَ اللَّه بك رجلًا، خيرٌ لك من أن تكون لك حُمْرُ النَّعَمَ»[١].

وروى أحمد في مسنده عن ابن عباس قال: ما قاتل رسول اللَّه ﷺ قوماً قط إلا دعاهم[٢].

وروى مسلم في صحيحه وابن ماجه في سننه عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ خَيْراً فَقَالَ: اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِ اللَّه. . . وَإِذَا أَنْتَ لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلَاثِ خِلَالٍ أَوْ خِصَالٍ فَأَيَّتُهُنَّ أَجَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَام فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ أَنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَأَنَّ عَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، وَإِنْ أَبَوْا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا أَنْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ فَسَلْهُمْ إِعْطَاءَ الْجِزْيَةِ، فَإِنْ فَعَلُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ

---

(١) رواه البخاري: كتاب الجهاد والسِّير، باب فضل من أسلم على يديه رجل، ح (٣٠٠٩).

(٢) رواه أحمد: مسند عبد اللَّه بن العباس، ١/٢٣٦، ح (٢١٠٥). وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وعبد الرزاق في المصنف: كتاب الجهاد، باب دعاء العدو، ح (٩٤٢٧) والطبراني في الكبير: ح (١١١٠٦).

عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ وَقَاتِلْهُمْ...»[(١)].

إن طريق الدعوة إلى الإسلام إذا كان مفتوحاً خالياً من العقبات والسدود ومن حكام الظلم وولاة الجور الذين يقلقهم أمر الإسلام فيحجبون نوره عن رعيتهم ويضعون أمام دعوته العقبات والعراقيل خوفاً على سلطانهم، أقول: إذا كان الطريق مفتوحاً والحرية قائمة فلا مجال للجهاد، أما إذا أقيمت الحدود والسدود، والموانع والحوائل فإنه يكون الجهاد، ولكنه جهاد الملتزم بتعاليم دينه والمنضبط بأوامر شرعه، فلا جهاد قبل دعوة وإعلان، وتخييرٍ وبيان.

إن مبدأ الدعوة إلى الإسلام قبل القتال إنما هو مبدأ إسلامي أصيل طبَّقه النبي ﷺ بنفسه وأوصى به أصحابه، مرسِّخاً إياه في قلوبهم، ومنبهاً لهم أن يكونوا فيه قدوة لمن بعدهم من المسلمين الفاتحين.

إنه مبدأ أعمله النبي ﷺ بنفسه وطبَّقه من بعده أصحابه حتى يعلنوها للبشرية جمعاء أن الإسلام إنما هو دين السلام والتسامح وليس من أولياته أن يزهق الأرواح، ولا أن يبعثر الدماء وينثر الأشلاء، إنما هو سلم لمن سالم وحرب على من حارب.

عندما شرع اللَّه تعالى الجهاد للمسلمين، وأمر به نبيّه ﷺ، وذلك من أجل حماية المسلمين، وحماية الدعوة الإسلامية، أمر المسلمين قبل الحرب وبعدها بالدعوة لأنّها الأصل، وهي المهمّة الأولى لهم.

---

(١) رواه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ح (٤٦١٩) وابن ماجه: كتاب الجهاد، باب وصية الإمام، ح (٢٨٥٨).

٥- التخلُّق بأخلاق الإسلام في الحرب:

ومن هذه الأخلاق:

- عدم الغدر والغلول.
- تجنب المثلة والإحراق بالنار.
- تجنب قتل الضعفاء «الأطفال والنساء والشيوخ».
- عدم قطع الشجر والنخل.

ذكرنا سابقا أن الدعوة إلى الإسلام تسبق الحرب، فإذا لم تُجد الدعوة ولم يتقبلها خصوم الإسلام، ولم يختاروا من إحدى البدائل الأخرى، وتحديداً الجزية، يكون عندها القتال، وهنا يدخل المسلمون مرحلة أخرى لها قيمها وآدابها وأخلاقها، فليست كل وسيلة مباحة، وليس كل مخالف حلال الدم، فالغاية في الإسلام لا تبرر الوسيلة. إن الإسلام لا يأمر أتباعه بالتشفي والانتقام، بل يأمرهم بأن يدافعوا عن أنفسهم وينتصروا لمبادئهم دون أن يخرجوا عن حدود إنسانيتهم.

إن تعاليم الإسلام تأبى الوحشية المروعة، فلا دفن على قيد الحياة، ولا إحراق بالنار، ولا سحق للعظام، ولا تمثيل بالجثث.

وتعاليم الشريعة ووصايا النبى ﷺ فى الحرب خير دليلٍ على ذلك.

روى مسلم في صحيحه وابن ماجه في سننه عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ خَيْراً فَقَالَ اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغْزُوا

وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَمْثُلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيداً . . .[(١)].

- وروى البخاري في قصة عكل وعرينة قول قتادة: «بلغنا أن النبي ﷺ بعد ذلك كان يحثُّ على الصدقة وينهى عن المثلة»[(٢)].

وعن حنظلة الكاتب قال: غزونا مع رسول اللَّه ﷺ. فمررنا على امرأة مقتولة قد اجتمع عليها الناس. فأخرجوا له. فقال: «ماكانت هذه تقاتل فيمن يقاتل» ثم قال لرجل «انطلق إلى خالد بن الوليد فقل له: إن رسول اللَّه ﷺ يأمرك يقول: لا تقتلن ذرية ولا عسيفاً»[(٣)].

وبين أيدينا نموذجاً من وصايا الخلفاء الراشدين لأمراء جيوشهم:

روى البيهقي بسنده عن صالح بن كيسان قال: لما بعث أبو بكر رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان إلى الشام على رُبع من الأرباع خرج أبو بكر رضي الله عنه معه يوصيه ويَزيد راكب وأبو بكر يمشي، فقال يزيد: يا خليفة رسول اللَّه، إما أن تركب وإما أن أنزل، فقال: ما أنت بنازلٍ وما أنا براكب، إني أحتسب خُطاي هذه في سبيل اللَّه، يا يزيد إنكم سَتَقدمون بلاداً تؤتون فيها بأصنافٍ من الطعام فسمُّوا اللَّه على أولها واحمدوه على آخرها، وإنكم ستجدون أقواماً قد حبسوا أنفسهم في هذه الصوامع

---

(١) رواه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ح (٤٦١٩) وابن ماجه: كتاب الجهاد، باب وصية الإمام، ح (٢٨٥٨).

(٢) رواه البخاري: كتاب المغازي، باب قصة عكل وعرينة، ح (٣٩٥٦).

(٣) رواه ابن ماجه في سننه: كتاب الجهاد، باب الغارة والبيات وقتل النساء والصبيان، ح (٢٨٤٢) والبيهقي في الكبرى: كتاب الجهاد، باب ترك قتل من لا قتال فيه، ح (١٨٦٢١). والعسيف أي الأجير، أو المملوك المستهان به الذي اعتسف ليخدم أي قهر. (معجم مقاييس اللغة: ٤/ ٣١٢).

فاتركوهم وما حبسوا له أنفسهم، وستجدون أقواماً قد اتخذ الشيطان على رؤوسهم مقاعد، يعني الشمامسة، فاضربوا تلك الأعناق، ولا تقتلوا كبيراً هرماً ولا امرأةً ولا وليداً، ولا تخربوا عُمراناً، ولا تقطعوا شجرة إلا لنفع، ولا تعقرنَّ بهيمة إلا لنفع، ولا تحرقن نخلًا ولا تُغرقنَّه، ولا تَغدر، ولا تُمثِّل، ولا تَجبُن، ولا تغلُلُ، ولينصرن اللَّه من ينصره ورسله بالغيب إن اللَّه قوي عزيز، استودعك اللَّه أُقرئك السلام، ثم انصرف[١].

إن وصية أبي بكرالصِّدِّيق رضي الله عنه لجيشه هذه لم تكن ناتجة عن اجتهاده الشخصي وإنما هي وصية نابعة من القرآن الكريم الذي هذب النفوس ووضع القواعد والأسس التي تنظم كل شئون الحياة وعلى رأسها شئون الحرب.

«فإذا كان الإسلام أباح الحرب كضرورة من الضرورات فإنه يجعلها مقدرة بقدرها؛ فلا يقتل إلا من يقاتل فى المعركة، وأما من تجنَّب الحرب فلا يحل قتله أو التعرض له بحال.. وقد فرض الإسلام حظراً كاملًا على اللجوء إلى الأساليب غير الإنسانية التى كانت تتبع فى الحروب فى جزيرة العرب وسواها قبل الإسلام، وليس أدل على ذلك من التوجيهات والتوصيات التى أصدرها النبى الكريم صلى الله عليه وآله وسلم والخلفاء الراشدون من بعده»[٢].

إن المسلمين الفاتحين عندما خرجوا من بلادهم خرجوا يريدون نشر الإسلام وإيصال نوره للعالمين، وتحركوا بتعاليم جهادهم، ففتحوا بلاداً

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب السير، باب ترك قتال من لا قتال فيه، ح (١٨٦١٤).

(٢) دور الجهاد فى نشر الإسلام: معاذ عبد اللَّه أبو غزاله، (ص٢٦)، ط١: دار الطباعة المحمدية -القاهرة، سنة ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

شاسعة ودانت لهم شعوب وأمم؛ لأنهم كانوا يجرون في تعاملهم معهم وفق تعاليم الشريعة القائمة على العدل والرحمة والحق والنصفة.

إن الإسلام بهذا يرسم لأتباعه الهدف من القتال وهو أن يكون في سبيل اللَّه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

والطريقة المثلى لتحقيق هذا الهدف هو أن يقاتلوا الذين يرفعون السلاح ويشتركون في الحرب ولا يجب أن يتجاوزهم القتال إلى غيرهم من النساء والصغار والشيوخ ويلحق بهم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في الصوامع.

يقول ابن كثير مفسراً هذه الآية السابقة: أي قاتلوا في سبيل اللَّه ولا تعتدوا. . أي قاتلوا في سبيل اللَّه، ولا تعتدوا في ذلك ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي، كما قاله الحسن البصري: من المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ، الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومقاتل بن حيان وغيرهم[١].

إن الإسلام جاء رحمة للجميع وبخاصة الضعفاء، وحتى الأشجار والنخيل شملتهم رحمة الإسلام في ساحات الوغى.

٦- الجنوح للسلم إذا ما جنح لها الأعداء غير مخادعين:

قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٨٢).

هذه حكمة بالغة من القرآن، بل هذه معجزة من معجزاته الخالدة، وهى أدل دليل على أنه لم يشرع الحرب لذاتها، ولكن لأنها من عوامل الاجتماع التي لابد منها ما دام الإنسان فى عقليته ونفسيته المأثورتين عنه، غير أنه لم ينف أن يحدث تطور عالمى يتفق فيه على إبطال الحرب فصرح بهذا الحكم قبل حدوثه ليكون حُجة لأهله من ناحية، وليدل على أنه لا يريد الحرب لذاتها من ناحية أخرى، ولو كان يريدها لذاتها لما نوه لهذا الحكم.

وماذا بعد الحرب؟

ولا ينتهي الجهاد في الإسلام بمجرد إخضاع الكافرين واستئصال شوكتهم، بل إنه مستمر حتى بعد القتال، ولكن جهاد من نوعٍ آخر، إنه جهاد النفس، وهو الجهاد الأكبر.

فيجب على المسلم أن يجاهد نفسه الجهاد الأكبر؛ حتى لا يتحول الفارس المجاهد إلى شخصٍ مؤذٍ لمجتمعه أو لجماعته أو للآخرين، وبالرغم من أن لفظة الجهاد إذا أطلقت انصرف الذهن إلى معنى القتال فى سبيل اللَّه. إلا أن الرسول ﷺ قد أسماه بالجهاد الأصغر، وسمى الجهاد المستمر بعد القتال بالجهاد الأكبر؛ لأن القتال يستمر ساعات أو أيام، وما بعد القتال يستغرق عمر الإنسان كله.

إذن فالحرب في الإسلام ليست حرباً انتقامية تقوم على التشفي والعدوان، وليست حرباً توسُّعية تهدف إلى السيطرة على مقدرات البلاد والعباد، إنها حرب ذات هدف نبيل ومشروع، غايتها إزهاق الباطل والتمكين في الأرض لدين اللَّه، حتى يصل نوره إلى العالمين.

روى مسلم في صحيحه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

مَا مِنْ غَازِيَةٍ أَوْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فَتَغْنَمُ وَتَسْلَمُ إِلَّا كَانُوا قَدْ تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أُجُورِهِمْ، وَمَا مِنْ غَازِيَةٍ أَوْ سَرِيَّةٍ تُخْفِقُ وَتُصَابُ إِلَّا تَمَّ أُجُورُهُمْ[(١)].

ولذا نرى موقف النبى ﷺ مع مشركي مكة عند الفتح حين قال لهم: ما ترون أني صانع بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء[(٢)].

والخلاصة: أن السيف الذي شهره المسلمون هو لإزالة العقبات التي تحول بين الآخرين ونور الإسلام ولا مجال للإكراه في حمل الناس على الإسلام.

وعليه فلا يصح بحال من الأحوال وصم الفتوحات الإسلامية بالدموية، ونظرة واحدة لخسائر الحرب العالمية الأولى تدلنا على حجم الخسائر البشرية، فيكفينا أن نعلم أن حجم هذه الخسائر بالأرواح بلغ تقريباً أكثر من (٨٠) مليون قتيلاً، وأكثر من ضعف هذا العدد من الجرحى، أما أهم الخسائر المادية فقد وقعت في الأراضي التي دارت فيها المعارك حيث أتلفت المحاصيل الزراعية وقضي على المواشي ودمرت مئات آلاف المنازل وآلاف المصانع إضافة إلى الأضرار التي لحقت بالسكك الحديدية وبمناجم الفحم التي غمرها هذا الطرف أو ذاك بالماء لمنع استغلالها من قبل العدو.

أما عن الحرب العالمية الثانية فقد بلغ عدد ضحاياها أكثر من (٣٥) مليون

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: كتاب الإمارة، بَاب بيان قدر ثواب من غزا فغنِم ومن لم يغنم، ح (٣٥٢٩).

(٢) رواه البيهقي في الكبرى: كتاب السير، باب فتح مكة، ح (١٨٧٣٩).

نسمة قتيل وجريح ومشرد لا مأوى له ولا مسكن، فأين الفتوحات الإسلامية من هذه الأعداد الهائلة من القتلى والجرحى؟ وهل فات أولئك المستشرقين أن ينقِّبوا في ضحايا هذه الحروب قبل أن يصموا الفتوحات الإسلامية بالدموية وأنها نشرت الإسلام بالقوة وحد السيف.

الحق ما شهدت به الأعداء:

ولقد نطق بهذا الحق من ليس على الإسلام من القديم والحديث:

فهاهم نصارى الأردن يخاطبون جيش المسلمين بقيادة أبي عبيدة قائلين لهم: يا معشر المسلمين، أنتم أحب إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا[١].

ولقد فطن لبطلان هذا الادعاء كاتب غربي ومستشرق من بني جلدتهم ألا وهو غوستاف لوبون حيث يقول في كتابه حضارة العرب متحدثاً عن سرِّ انتشار الإسلام في عهد النبي ﷺ وفى عصور الفتوحات من بعده:

قد أثبت التاريخ أن الأديان لا تُفرض بالقوة، ولم ينتشر الإسلام إذن بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل ما زاد عدد المسلمين إلى خمسين مليون نفس فيها.. ولم يكن الإسلام أقل انتشاراً في الصين التي لم يفتح العرب أي جزء منها قط، وسترى في فصل آخر سرعة الدعوة

---

(١) السلام العالمي والإسلام: سيد قطب، (ص١٥٩).

فيها، ويزيد عدد مسلميها على عشرين مليونا في الوقت الحاضر»[(١)].

ويقول في موضع آخر: فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العربِ، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم»[(٢)].

ويقول فون كريمر: كان العرب المسلمون في حروبهم مثال الخلق الكريم، فحرَّم عليهم الرسول قتل الرهبان والنساء والأطفال والمكفوفين، كما حرَّم عليهم تدمير المزارع وقطع الأشجار، وقد اتبع المسلمون في حروبهم هذه الأوامر بدقةٍ متناهيةٍ، فلم ينتهكوا الحرمات، ولا أفسدوا المزارع، وبينما كان الروم يرمون بالسهام المسمومة فإنهم لم يبادلوا أعداءهم جرماً بجرم، وكان نهب القرى وإشعال النار قد درجت عليه الجيوش الرومانية في تقدمها وتراجعها، أما المسلمون فقد احتفظوا بأخلاقهم المثلى فلم يحاولوا من هذا شيئاً[(٣)].

ويقول المستشرق توماس كارليل فى كتابه الأبطال: إن اتهامه- أي النبي ﷺ- بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم، إذ ليس مما يحوز في الفهم أن يُشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس أو يستجيبوا لدعوته، فإذا آمن به مَن يقدرون على حرب خصومه، فقد آمنوا به طائعين مصدِّقين، وتعرضوا للحرب من أعدائهم قبل أن يقدروا عليها[(٤)].

---

(١) حضارة العرب: غوستاف لوبون (١٢٨، ١٢٩)، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب.
(٢) حضارة العرب: (ص٧٢٠).
(٣) دواعي الفتوحات الإسلامية: (ص٤٢)، نقلًا عن: الفتح الإسلامي للصلابي، (ص١٦٧).
(٤) الأبطال: توماس كارليل، (ص٧٩،٨٠) بتصرف.

وتشيد المستشرقة الشهيرة زيجريد هونكه بالتسامح الإسلامي بقولها: «لقد لعب التسامح العربي دوراًحاسماً في انتشار الإسلام، وذلك على العكس تماما من الزعم القائل بأنه قد انتشر بحد السيف والنار، وقد أصبح هذا الزعم من الأغاليط الجاحدة ضد الإسلام»[١].

فانظر معي أخي القارئ إلى هذه الأقوال التي صدرت من أناس لم يعتنقوا الإسلام ولكنهم درسوا التاريخ الإسلامي، ولم يستطيعوا أن يخفوا إعجابهم الشديد به، فانبرت كتاباتهم تثني على الإسلام وتاريخه الناصع، وتدفع عنه أي ريبة قد يلحقها به الآخرون، مع أن هؤلاء القوم لم يدخلوا الإسلام ولم ينصفوه في كل جوانبه، إلا أنهم ما جرأوا أن يخفوا حقيقة الفتوحات الإسلامية.

❊ ❊ ❊

(١) الإسلام في مرآة الفكر الغربي: محمود حمدي زقزوق، (ص١٠٦) طبعة دار الفكر العربي، سنة ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

ثانياً: فتوحات الآل والأصحاب
بين الدوافع الاقتصادية والمصالح الشخصية

لقد حاول المستشرقون جهدهم أن يشوهوا دوافع الفتوحات الإسلامية ويغيروا معالمها-سواء تلك التي خاضها الآل والأصحاب أو من جاء بعدهم- مدَّعين أنها قامت لمصالح دنيوية وأسباب مادية واقتصادية، زاعمين أن الدافع الحقيقي للفتوح يتمثل في الجوع والحاجة، وأن المسلمين الفاتحين ما أخرجهم من جزيرتهم إلا الفقر والفاقة، أو بعبارة أدق: **حب الهناء في أحضان الهلال الخصيب**.

فهاهو توماس أرنولد يصرح بهذه الشبهة ويدعى أن الفتوحات الإسلامية كان الغرض منها السيطرة على البلاد الغنيَّة ذات الترف والنعيم فقال: «كان أقوى جذبٍ لهم إلى الإسلام أملهم الوطيد في الحصول على غنائم كثيرة في جهادهم في سبيل الدين الجديد، ثم أملهم في أن يستبدلوا بصحاريهم الجرداء التي لم تتح لهم إلا حياة تقوم على البؤس تلك الأقطار ذات الترف والنعيم وهى فارس والشام ومصر»(١).

وواضح أن الطعن هنا وإن كان في عموم الفتوحات الإسلامية إلا انه يقع من باب أولى في فتوحات الآل والأصحاب؛ فهم من تلقى الدين بداية، ومن فتحوا فارس الشام ومصر، محل استدلال المستشرق.

---

(١) الدعوة إلى الإسلام: توماس أرنولد، (ص٦٤).

ويقول المستشرق السابق أيضاً متحدثاً عن انتشار الإسلام بين الشعوب المسيحية فى آسيا الغربية:

ويعتبر توسُّع الجنس العربي على أصحِّ تقدير هجرة جماعة نشيطة قوية البأس دفعها الحرمان إلى أن تهجر صحاريها المجدبة، وتجتاح بلاداً أكثر خصباً كانت ملكاً لجيران أسعد منهم حظاً[(١)].

ويزيد المستشرق ول ديورانت فى كتابه: «قصة الحضارة» من وضوح هذه الدعوى بقوله صراحة: «وكان العربي يدفع ملل الحياة الرتيبة وسآمتها بالحب والحرب، وكان يسرع إلى الانتقام لما عساه أن يوجه إليه أو إلى قبيلته من إهانة وأذى، وكان يقضى جزءاً كبيراً من حياته فى الحرب التي تستعر نارها بين القبائل المختلفة، ولما أن فتح بلاد الشام وفارس ومصر وأسبانيا، لم يكن عمله هذا إلا توسعاً منه فى غارات النهب التي كان يشنها في أيام الجاهلية وإن اختلف الغرض فى هذه عن تلك»[(٢)].

ومعلوم أن جلّ هذه البقاع والأماكن المذكورة قد فتحها الآل والأصحاب.

ويقول ستانلي لين بول: « إننا لا نستطيع أن ننكر أن ثروة القياصرة والأكاسرة والأراضي الخصبة والمدن العامرة في الممالك المجاورة كانت عاملًا كبيراً في تحمس المسلمين - في الفتوحات-»[(٣)].

---

(١) الدعوة إلى الإسلام: (ص٦٤).

(٢) قصة الحضارة: ول ديورانت ترجمة محمد بدران (عصر الإيمان) المجلد الرابع (جزيرة العرب) (٢/ ١٢) بتصرف، ط٣: الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية - القاهرة، سنة ١٩٧٤م.

(٣) نقلًا عن: موسوعة التاريخ الإسلامي، أحمد شلبي (١/ ٢٩١)، ط٧، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٧م.

وكان ممن ادعى هذا الادعاء، وتخرص بهذا الافتراء؛ يوليوس فلهاوزن، وبرنارد لويس، ومرجليوث، وبروكلمان، وموير...[(١)].

لقد حاول المستشرقون جهدهم تشويه صورة الفتوحات الإسلامية عن طريق الادعاء بأن الفتوحات الإسلامية في مجملها ليست في حقيقتها إلا توسعات استعمارية ذات طابع اقتصادي للحصول على الغنائم وفرض الجزية على غير المسلمين.

وفي الحقيقة فإن هذا التعليل السابق للفتوحات الإسلامية ليس بمستغرب عن المستشرقين، ولكن ما يدعو للأسف ويثير الدهشة أن جماعة تنتمي للإسلام وافقت هؤلاء المستشرقين في زعمهم، فادعت أن هذه الفتوحات إنما قامت لأغراض بعيدة كل البعد عن خدمة الإسلام والمسلمين، فيدعون أنها قامت لأجل مصالح الخلفاء والقادة الخاصة، وفي هذا طعن واضح في أعيان الآل والأصحاب وأعمالهم.

وهذا التعليل ليس ببعيد عن سابقه إذ أن فيه ادعاء أن الخلفاء أرادوا من الفتوحات تكوين ثراء واسع ونفوذ كبير، وبناء مجد شخصي يحكيه التاريخ، وتعلمه الأجيال، جيل تلو آخر.

يقول صالح الورداني مشنِّعاً على دور الحكام والقادة في الفتوحات الإسلامية: إن المتأمل في حركة الفتوحات الإسلامية سوف يتبين له أنها لم تسهم في إدخال الناس في دين اللَّه وأنها أسهمت في زيادة ثروات الحكام وكانت في حقيقتها صدام عسكري بين حكم عربي وحكم آخر

---

(١) راجع: في التاريخ الإسلامي: شوقي أبو خليل، (ص٢٧٤).

أُسقط بالقوة بينما بقيت الشعوب على حالها وقد فرضت عليها الجزية والخراج[١].

ويقول في هامش الصفحة نفسها: كان معاوية ومن تلاه من الحكام يصادرون نفائس الغنائم من الجنود ويأخذونها لأنفسهم ويحولون بين الناس وبين الدخول في الإسلام خوفاً من تدنِّي دخل الدولة من الجزية والخراج حتى جاء عمر بن عبد العزيز[٢].

وورد في كتاب «الإمام الحسن المجتبى»: إن تلك الفتوحات لم تكن عموماً من أجل مصالح الإسلام العليا، حيث إن الحكام كانوا يستفيدون من تلك الفتوحات في مجال إرضاء طموحاتهم وإشباع غرورهم، فقد أسالت الفتوحات لعابهم بما فيها من غنائم وبسط نفوذ، فصاروا يهتمون بتقوية أمرهم وتثبيت سلطانهم، وهناك من الحكام مَن كان الدين والإسلام بنظرهم مجرد شعار يخدم ملكهم ويقويه[٣].

ويقول سعيد أيوب: إن أصحاب المقاعد الأولى أساءوا أبلغ إساءة إلى الفتوحات، ومن لطف اللّه تعالى أن عامة المسلمين من التجار وغيرهم، والعديد من العلماء الأفاضل، كانوا الصورة النقية التي عبرت عن الإسلام في البلاد المفتوحة . . . . . إن الذين وضعوا بني أمية في دائرة مناقب الفتوحات، لم يصيبوا الحق في رأينا، لأن بني أمية دخلوا هذه الأبواب من طريق أضاعوا فيه الصلاة، واتبعوا الشهوات، فجاءت الفتن المقروءة

(١) دفاع عن الرسول ضد الفقهاء والمحدثين: صالح الورداني، (ص ١٤٩).
(٢) دفاع عن الرسول ضد الفقهاء والمحدثين: صالح الورداني، حاشية (ص١٤٩).
(٣) أعلام الهداية: الإمام الحسن المجتبى، المجمع العالمي لآل االبيت، (ص٦٦، ٦٧).

والمسموعة وغير ذلك. ثم كيف يوضعون في دائرة المناقب هذه في الوقت الذي ضاعت فيه الأمانة؟[١].

ويشير في موضع آخر إلى أن حركة الفتوحات لم تكن في الاتجاه الصحيح، مصرحاً بأن الفتوحات جاءت بالأموال حتى كثر التنافس الذي جرَّ الفتن، والإسلام لم يكن في أصوله البحث عن الأموال والنعيم، وإنما في أصوله البحث عن الفطرة التي تئن تحت أحمال الجاهلية، وفي أصول الإسلام أن وضع الفطرة في المكان الصحيح يترتب عليه دوران صاحبها في اتجاه حركة الكون. ومع هذا الدوران الصحيح سيأتي حتماً الإطعام والأمن..

ثم ينتهي من وراء ذلك إلى شبهة قصد تقريرها بقوله: إن حركة هؤلاء الولاة منذ البداية كانت تعمل لخدمة هوى تلبَّس بالإسلام[٢].

ويقول فارس حسون: ومن أكبر أسباب الضلالة فتوحات عمر التي خدع بها المغفلون، وتاه في واديها المستضعفون، أفترون أن الفتح جهاد ديني أم نخوة جاهلية؟ فإن كانت الثانية فلا شكر على محرم ولا فضل في ردة بعد الهداية، وإن كانت الأولى فللجهاد أحكام قرآنية ونبوية، فهل كان عمر عارفاً وسائراً وفق منهاجهما؟ تتبعوا أحكام عمر في تعيين أمراء الجيش، فانظروا المحاباة في اختيارهم حتى لو أدى إلى سفك الثلثين من جيش المسلمين بسبب عدم كفاءة القائد، أو عدم تقواه!!....

---

(١) معالم الفتن: سعيد أيوب، (٢/ ٢١٥).
(٢) الانحرافات الكبرى: سعيد أيوب، (ص٤٤٥ - ٤٤٦).

فدقق النظر في سيرته المذكورة بأقلام محبيه، ثم انظر إلى أوامر عمر فيمن ينتصر عليهم أو يجلب إليه سباياهم، فهل تتفق مع سيرة الرسول ﷺ وسيرة أبي بكر؟! وانظر إلى تقسيمه المغانم، فهل سار في ذلك على نهج اللَّه ورسوله ﷺ أو نهج أبي بكر المرضي عندهم؟[١]

فالعجيب أن نرى مَن ينتسب إلى الإسلام يعلن في وقاحة منقطعة النظير أن الفتوحات الإسلامية بعامة وفتوحات الآل والأصحاب بخاصة ما أعطت صورة طيبة عن الإسلام، وأنها ما رحمت أحداً، وأن الغرض منها لم يكن نشر الإسلام وإنارة الدنيا به، وإنما الهدف كان البحث عن المغانم والمصالح الشخصية.

وهذا الأمر يردده البعض نقلًا عن المستشرقين الذين أرجعوا الفتوحات الإسلامية إلى دوافع اقتصادية، وأن المسلمين الفاتحين آلًا وأصحاباً ومن

---

(١) الروض النضير في معنى حديث الغدير: فارس حسون كريم، (ص٣٨٢).
لا يخفى أن هذه الافتراءات التي نسبها الكاتب إلى الفاروق عمر بن الخطاب ما هي إلا محض افتراء وتدليس، ولا تزيد على كونها كلاماً مرسلًا لا دليل عليه، خرج من نفس أشبعت بغضاً للفاروق عمر بن الخطاب، وكنا نحتاج من الكاتب دليلًا على ما ذكره من محاباة عمر في اختيار أمراء جيوشه، أو مخالفته لنهج النبي ﷺ ونهج الصديق أبي بكر في التعامل مع المغلوبين أو في تقسيم الغنائم، وطالما أنها كلام مرسل لا سند له ولا زمام فلن نلتفت إليها ويكفي أن نعلم أن خلافة الفاروق كانت خلافة خير ورحمة على المسلمين، وأنها ساعدت على نشر الإسلام، وكانت فيها جملة من الفتوحات الإسلامية العظيمة ففيها كان فتح بيت المقدس، وفتح مصر والاسكندرية، وفتح بلاد فارس وإزالة ملكهم وطغيانهم.. فتنبَّه.
راجع في بيان سيرة الفاروق عمر وفضائله: فصل الخطاب في سيرة ابن الخطاب للدكتور الصلابي.

تلاهم ما أخرجهم من ديارهم إلا الجوع والفقر.

وهذا قدح ظاهر في نصوص الإسلام، وتجن واضح على الآل والأصحاب ومن تلاهم من المسلمين الفاتحين؛ من حيث اتهامهم بالنفعية والعمل لتحقيق مآثر وأمجاد شخصية ومكاسب ومنافع دنيوية، وكأن نشر الإسلام وإيصال نوره إلى العالمين ما دار بخلدهم يوماً، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم.

الرد على الشبهة:

وعند الرد على هذه الشبهة نجد أنها احتوت على شبهة عامة دارت عليها كتابات المستشرقين ومن نحا نحوهم، وهي شبهة الدوافع الاقتصادية.

و هناك شبهة جزئية وقعت في ثنايا ما ذكره أذناب المستشرقين، وسنرجىء الرد عليها لما بعد الشبهة العامة.

ونبدأ بالرد على الشبهة العامة:

الدوافع الاقتصادية للفتوحات الإسلامية:

إن المسلمين الفاتحين من الآل والأصحاب ومن تلاهم لم يدفعهم للخروج من بيوتهم في فتوحاتهم الحاجة الاقتصادية، فلم يكن الحصول على الغنائم في حروبهم مع الكفار مطلباً هاماً يسعون وراءه، كما يدعي المستشرقون وأذنابهم.

وهنا شيء يجب أن نلفت الأنظار إليه: وهو أنه يظهر جلياً عند الحديث عن الفتوحات الإسلامية، أن المستشرقين حاولوا جاهدين تطبيق موارد تاريخهم على تاريخنا الإسلامي، فعندما يتحدثون عن الفتوحات

الإسلامية نراهم يحاولون تفسيرها انطلاقا من تاريخهم الأوروبي ونظرتهم المادية للأمور، فقد كانت الفتوحات في نظرهم بحثاً عن الغنائم والمكاسب المادية لا غير.

كما نرى أن المستشرق لا يشغل نفسه بالبحث عن حقيقة دوافع المسلمين في الفتوحات الإسلامية وهي نشر رسالة الإسلام التي تدعو إلى تحرير البشر من كل أنواع العبوديات، وفتح الطريق أمام دعوة اللَّه عز وجل.

وفي طريقنا لتفنيد هذه الشبهة فلابد من بيان شيء في غاية الأهمية في هذا الصدد ألا وهو:

نظرة الإسلام إلى المال:

إن المال في الإسلام من جملة الأمانات التي تنشغل بها ذمة المسلمين ليصونوه أحسن صيانة وليرعوه خير رعاية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

وقد قرر الإسلام أن الأموال رغم ما فيها من متعة الحياة الدنيا إلا أنها تبقى فتنة لمن لم يزهد فيها، ولمن جعلها شغله الشاغل، قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [الأنفال: ٢٨].

فالمال في الإسلام إنما هو وسيلة لهدف نبيل، وليس غاية في حدِّ ذاته، ولا خير في مالٍ لا يعود بالنفع على الإسلام والمسلمين، إنه في هذه الحال نقمة ووبال على صاحبه.

إن صاحب المال يقع وقتها في دائرة قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [التوبة: ٣٤].

وعليه فقد أوجب الإسلام على صاحب المال الزكاة تطهيراً لماله ومعونة للفقراء والمستحقين، وحث المسلمين على بذل أموالهم في الجهاد تماماً كما حثهم على بذل أرواحهم فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠].

ولقد أدرك المسلمون الفاتحون هذه الحقيقة، وكانت غضة ندية في قلوبهم وعقولهم؛ لقرب عهدهم برسول اللَّه ﷺ، وتمكُّن تعاليم الإسلام من شغاف قلوبهم.

ولذا نراهم كانوا حراصاً على المسارعة إلى الخيرات، والمسابقة إلى نيل الشهادة مضحين في سبيل ذلك بأموالهم وأرواحهم امتثالًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ﴾ [التوبة: ١١١].

هذه مقدمة كان لابد منها عند حديثنا عن ردِّ شبهة الفتوحات والغنائم، وهي شبهة تحمل في طياتها أدلة بطلانها وتهافتها.

إن رسول اللَّه ﷺ مكث بمكة ثلاثة عشر عاماً، يدعو إلى اللَّه بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد كان نتاج هذه المرحلة أن دخل في الإسلام خيار المسلمين من الأشراف وغيرهم، وكان الداخلون أغلبهم من الفقراء، ولم يكن لدى رسول اللَّه ﷺ من المال ما يغري به هؤلاء الداخلين، ولم يكن إلا الدعوة، والدعوة وحدها، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تحمَّل المسلمون - لاسيما الفقراء والعبيد ومن لا عصبية له منهم - من صنوف العذاب وألوان البلاء ما تعجز الجبال الرواسي عن تحمله، فما

صرفهم ذلك عن دينهم وما تزعزعت عقيدتهم، بل زادهم ذلك صلابة في الحق، وصمدوا صمود الأبطال مع قلتهم وفقرهم، وما سمعنا أن أحداً منهم ارتدّ سخطاً عن دينه، أو أغرته مغريات المشركين في النكوص عنه، وإنما كانوا كالذهب الإبريز لا تزيده النار إلا صفاءً ونقاءً.

قِدَمُ هذه الشبهة بقِدَمِ الدعوة:

إن البحث عن الغنائم لم يكن يوماً هدفاً للمسلمين ولا دافعاً لهم على الخروج من جزيرتهم.

إن هذه الفرية الشنعاء ليست بالجديدة على أسماعنا ولا في تاريخنا، بل هي قديمة قِدَم العداوة بين الإسلام وخصومه الأوائل، لقد وُجِّهت إلى رسل اللّه من قِبَل أقوامهم.

فهذا رسول اللّه نوح عليه السلام يقول: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [هود: ٢٩].

وهذا نبي اللّه هود عليه السلام يقول لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [هود: ٥١].

بل إن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم نفسه وهو صاحب الدعوة قد عرضت عليه المغريات من كل جانب ولكنه أبى إلا أن يكون فقيراً زاهداً، لقد عرض عليه المشركون عروضاً مغرية تكفل له العيش الرخي والمجد السني؛ فعرضوا عليه المال والجاه والنساء في محاولة مستميتة منهم لإثنائه عن دعوته ومساومته في عقيدته، فكان رده صلى الله عليه وآله وسلم حازماً صارماً.

فقد روي أن عتبة بن ربيعة جاء إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وقال له:

«يا ابن أخي، إنك منا» حيث قد علمت من السطة[١] في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمرٍ عظيم، فرَّقت به جماعتهم؛ فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها. فقال له: قل يا أبا الوليد أسمع، قال: يا ابن أخي: إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا؛ وإن كنت تريد به شرفاً، سوَّدناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً، ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوي منه. حتى إذا فرغ عتبة، ورسول اللَّه ﷺ يستمع منه قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني قال: أفعل، قال: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [فصلت: ١ - ٤] ثم مضى رسول اللَّه ﷺ فيها يقرأها عليه، فلما سمعها عتبة منه أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه، ثم انتهى رسول اللَّه ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: يحلف باللَّه: لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولا واللَّه ما سمعت مثله قط واللَّه ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي خلوا بين هذا الرجل

---

(١) السطة: الشرف.

وبين ما هو فيه فاعتزلوه فو اللَّه ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحركم واللَّه يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم[١].

لقد كان رد الرسول ﷺ أمام هذا الإغراء الكبير صارماً وحازماً ولا يقبل الجدل، لقد ردَّ الرسول على عتبة رداً خالداً سوف يبقى دافعاً لهذه التهمة إلى يوم الدين، وخرج عتبة متأثراً من مقالة النبي ﷺ، وطالباً من قريش أن يدَعوه وشأنه، إلا أنهم ما يأسوا وحاولوا أن يخوضوا غمار محاولة ثانية لعلها تبوأ بالنجاح وتلقى عند النبي ﷺ ترحيباً.

فأجمعوا أمرهم وجمعوا ملأهم وذهبوا عند الكعبة وأرسلوا إلى النبي ﷺ وأعادوا عليه عرض عتبة من جديد، فكان ردُّ النبي ﷺ قارعاً لأسماعهم.

فقال رسول اللَّه ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن اللَّه بعثني إليكم رسولًا، وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر اللَّه حتى يحكم اللَّه بيني وبينكم»[٢].

---

(١) السيرة النبوية: ابن كثير (١/٥٠٣، ٥٠٤) - سيرة ابن إسحاق (٤/١٨٧)- الروض الأنف: السهيلي (٢/٤٦).

(٢) راجع: السيرة النبوية: ابن هشام (٢/١٣٣) - السيرة النبوية: ابن كثير (١/٤٧٩)- الروض الأُنف: السهيلي (٢/٤٦).

فسوَّل لهم شيطانهم أن يجربوا محاولة ثالثة عن طريق وسيط محبب إلى النبي ﷺ، فذهبوا إلى عمه أبي طالب طالبين منه التدخُّل، وبالفعل تدخَّل أبو طالب ونقل إلى النبي ﷺ عرضهم، فكان ردُّ النبي ﷺ قاصماً لكل أمرٍ، وقاطعاً لأي أملٍ في أي محاولة أخرى، لقد قال النبي ﷺ مقالة حفظها لنا التاريخ وسجلها كما هي لتبقى نبراساً للمسلمين وهادياً لهم أينما حلوا وارتحلوا.

فقال رسول اللَّه ﷺ: يا عم، واللَّه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره اللَّه أو أهلك فيه ما تركته[١].

هذه شواهد تدل أبلغ دلالة على بطلان تلك الفرية من حياة النبي ﷺ، فقد عرضت عليه كل المغريات من كل جانب ولكنه أبى إلا أن يعيش زاهداً فقيراً.

لقد كان ﷺ في وسعه وقد دانت له جزيرة العرب بأسرها أن يكون الثري الأول في تلك البقعة، ولكنه لم يأت طمعاً في الثراء أو جمعاً للمال، وإنما جاء من أجل تبليغ دعوة وإرساء دعائم حضارة[٢].

إن جزيرة العرب دانت كلها إلى رسول اللَّه وما زاده هذا إلا زهداً في الحياة.

(١) السيرة النبوية: ابن هشام (٢/ ١٠١).
(٢) ظاهرة انتشار الإسلام: محمد فتح اللَّه الزيادي، (ص٢٤٤).

تعاليم الإسلام تنفي هذه الشبهة:

إن الناظر لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية يجد أنها قد حرَّمت على المسلم أن يجاهد طلباً للمغانم الدنيوية، بل إن الإسلام قد اعتبر ذلك جريمة.

ففي الصحيحين عن الصحابي الجليل أبى موسى الأشعري رضي الله عنه قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَإِنَّ أَحَدَنَا يُقَاتِلُ غَضَباً وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، فَرَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ قَالَ: وَمَا رَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ قَائِماً فَقَالَ صلى الله عليه وآله وسلم: مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ[١].

وقد عنون الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الإمارة باباً بعنوان: «من قاتل للرياء والسمعة فهو فى النار».

حال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وخلفائه وكبار الفاتحين رضي الله عنهم ينفي هذه الشبهة:

من يقرأ في سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويطالع فصولها يجد أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان بعيداً كل البعد عن إغراءات الحياة وزخرفها، ولم يكن من اهتماماته جمع الأموال وتكوين الثروات، بل إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عاش حياته زاهداً في متع الحياة معرضاً عنها رغم كونه قادراً عليها، فلو شاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن تكون عنده تلال من الذهب والفضة ووديان من الأنعام والإبل لكان له ما أراد، ولكنه عاش فقيراً ليُعلِّم أصحابه أن يجعلوا الدنيا في أيديهم وليست في قلوبهم، وأن تكون الآخرة هدفهم وغايتهم.

---

(١) رواه البخاري: كتاب العلم، باب من سأل وهو قائم عالماً جالساً، ح (١٢٣) ومسلم: كتاب الجهاد والسير باب من من قاتل لتكون كلمة اللَّه هى العليا، ح (١٩٠٤).

روى البخاري بسنده عن عروة عن عائشة أنها قالت لعروة ابن أختي: إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقدت في أبيات رسول اللَّه ﷺ نار فقلت ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان التمر والماء إلا أنه قد كان لرسول اللَّه ﷺ جيران من الأنصار كان لهم منائح[١] وكانوا يمنحون رسول اللَّه ﷺ من أبياتهم فيسقيناه[٢].

وروى البخاري بسنده عن الأسود عن عائشة قالت: ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام بر ثلاث ليال تباعا حتى قبض[٣].

وروى البخاري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما أكل آل محمد ﷺ أكلتين في يوم إلا إحداهما تمر[٤].

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان فراش رسول اللَّه ﷺ من أدم وحشوه من ليف[٥].

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه ناراً إنما هو التمر والماء إلا أن نؤتى باللحيم[٦]. «واللحيم» تصغير لحم وأشارت بذلك إلى قلته.

(١) المنائح: جمع منيحة، وهي العطية، ومنيحة اللبن: كالناقة أو الشاة يعطيها الرجل آخر يحتلبها ثم يردها. (معجم مقاييس اللغة (٥/ ٢٧٨).

(٢) رواه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ، ح (٦٠٩٤).

(٣) رواه البخاري: كتاب الرقاق باب كيف كان عيش النبي ﷺ، ح (٦٠٨٩).

(٤) رواه البخاري: كتاب الرقاق باب كيف كان عيش النبي ﷺ، ح (٦٠٩٠) ورواه مسلم في أوائل الزهد والرقائق، ح (٢٩٧١).

(٥) رواه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ، ح (٦٠٩١). والأدم: الجلد المدبوغ، والليف: قشر النخيل.

(٦) رواه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ،ح (٦٠٩٣).

أهذا حال رجل يربي أتباعه على جمع المغانم وحيازة الثروات؟ أظن أن الإجابة واضحة للعيان.

وعلى هذا الأمر ربَّى النبي ﷺ أتباعه من الآل والأصحاب، الذين كانوا يجودون بأموالهم في سبيل اللَّه، فها هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه يجود بماله في سبيل اللَّه في مرات عديدة.

فقد روى أبو داود بسنده عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَقُولُ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْماً أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالاً عِنْدِي فَقُلْتُ الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْماً فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ». قُلْتُ: مِثْلَهُ. قَالَ: وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ». قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. قُلْتُ: لَا أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَداً[(١)].

ولما استُخلِف رضي الله عنه كان يخرج ليعمل بالتجارة ليعول أهله، فقد روى ابن سعد في الطبقات بسنده عن عطاء بن السائب قال: لما استخلف أبو بكر أصبح غادياً إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر بها فلقيه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة ابن الجراح فقالا له: أين تريد يا خليفة رسول اللَّه؟ قال: السوق، قالا: تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالي؟ قالا له: انطلق حتى نفرض لك شيئاً، فانطلق معهما ففرضوا له كل يوم شطر شاة وما كسوه في الرأس والبطن، فقال عمر: إلى القضاء، وقال أبو عبيدة: وإلي الفيء، قال عمر: فلقد كان يأتي

(١) رواه أبو داود في سننه: كتاب الزكاة، باب في الرخصة في ذلك- أي أن يخرج الرجل من ماله، ح (١٦٧٨) وقال الألباني: صحيح. والترمذي في كتاب المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر، ح (٣٦٧٥) وقال: حديث حسن صحيح، وحسَّنه الألباني.

علي الشهر ما يختصم إلي فيه اثنان، قال أبو بكر: رضيت[١].

ولما حضرته الوفاة قال: ردوا ما عندنا من مال المسلمين فإني لا أصيب من هذا المال شيئاً، وإن أرضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم. فدفع ذلك إلى عمر ولقوح وعبد صيقل وقطيفة ما يساوي خمسة دراهم فقال عمر: لقد أتعب من بعده[٢].

أهذه فعال رجل يُخرج الجيوش لجلب الغنائم وجمع الثروات؟

وهاهو الفاروق عمر بن الخطاب ﵁ لو أردنا أن نكتب عن زهده وتعففه فسنحتاج إلى مجلدات، فلعمر مع الزهد قصة، وهذه القصة هي الحياة.

إن زهد عمر ﵁ جعله يحيا مع الناس ببدنه، وأما قلبه وعقله ففي عالم الآخرة، ويكفيه شرفاً أنه وهو خليفة وأمير للمؤمنين كلما زادت فتوحات المسلمين وزاد الخير كلما زادت رقع ثيابه.

روى الحاكم بسنده عن مصعب بن سعد: أن حفصة قالت لعمر: ألا تلبس ثوباً ألين من ثوبك و تأكل من طعام أطيب من طعامك هذا و قد فتح اللَّه عليك الأمر وأوسع إليك الرزق؟ فقال: سأخاصمك إلى نفسك فذكر أمر رسول اللَّه ﷺ وما كان يلقى من شدة العيش فلم يزل يذكر حتى بكت، فقال: إني قد قلت لأشاركنهما في مثل عيشهما الشديد لعلي أدرك معهما عيشهما الرخي[٣].

---

(١) الطبقات الكبرى (٣/ ١٨٥) - أنساب الأشراف (٣/ ٣١٣).

(٢) الطبقات الكبرى (٣/ ١٨٧) - أنساب الأشراف (٣/ ٣١٤).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب العلم، باب في توقير العالم، ح (٤٢٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرطهما.

إن عمر رضي الله عنه جعل الدنيا في يده ولم يجعلها في قلبه، إنه زهد في متاعها الزائل وزخرفها الفاني، إنه زهد في الدعة والراحة، فاجتهد في جهاد الفرس والروم، حتى صار أهل الإسلام سادة الدنيا كلها، وانتشر الإسلام في ربوع المعمورة.

يقول طلحة بن عبيد اللَّه رضي الله عنه : ما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأوَّلنا إسلاماً، ولا أقدمنا هجرة، ولكنه كان أزهدنا في الدنيا، وأرغبنا في الآخرة(١).

أما عن عثمان ذي النورين رضي الله عنه فقد عُرف بالزهد والقناعة مع ما توفر له من ثراء عظيم، ومال وفير، يقول أبو عبد اللَّه مولى شداد بن الهاد: رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه يوم الجمعة على المنبر وعليه إزار عدني «من عدن» غليظ، ثمنه أربعة دراهم أو خمسة دراهم وريطة(٢) كوفية، ضرب اللحم طويل اللحية حسن الوجه(٣).

وروى البيهقي في السنن أن الحسن البصري سئل عن القائلة في المسجد فقال: قال الحسن: رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو يومئذ خليفة يقيل (ينام وقت الظهيرة) في المسجد، وقد أثر الحصى بجنبه فيقول: هذا أمير

---

(١) تاريخ دمشق: (٤٤/ ٢٨٧) - أسد الغابة (٤/ ٦٠).

(٢) الريطة: تطلق على كل ثوبٍ لينٍ رقيقٍ، أو هي الملاءة إذا كانت من قطعة واحدة. (انظر: تاج العروس للزبيدي، ١٠/ ٢٦٧).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب معرفة الصحابة، باب فضائل أمير المؤمنين ذي النورين. ح (٤٥٣٢) وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٣٨٦) في مناقب عثمان- باب صفته، ح (١٤٤٩٢) وقال: رواه الطبراني وإسناده حسن.

المؤمنين! هذا أمير المؤمنين![١].

وقال شرحبيل بن مسلم: كان عثمان رضي الله عنه يطعم الناس طعام الإمارة، وعندما يدخل بيته كان يأكل الخل والزيت[٢].

فانظر رحمك اللَّه إلى هذه النوعية الفريدة من الرجال يمثلهم عثمان بن عفان الذي أتته الدنيا طائعة إلا أنه جعلها في يديه ولم يجعلها في قلبه، فعاش عيش الفقراء وهو في مصافِّ الأغنياء وفي أول قائمة الأثرياء، وبلغه مطلبه ومبتغاه.

بل إن عثمان وظَّف ماله كله في سبيل اللَّه، فاشتر بئر رومة بُحرِّ ماله ووهبها للمسلمين، وجهز جيش العسرة.

فعن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بألف دينار حين جهَّز جيش العسرة فينثرها في حجره، قال عبد الرحمن: فرأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقلِّبها في حجره ويقول: ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم مرتين[٣].

وروى البخاري بسنده عن أبي عبد الرحمن: أن عثمان رضي الله عنه حيث

---

(١) سنن البيهقي: كتاب الصلاة، باب المسلم يبيت في المسجد، ح (٤٥١٣) (٢/ ٣٩١)، حلية الأولياء (١/ ٦٠).

(٢) حلية الأولياء: أبو نعيم الأصبهاني (١/ ٦٠).

(٣) رواه الترمذي: كتاب المناقب، باب في مناقب عثمان، ح (٣٧٠١) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وحسَّنه الألباني، ورواه الحاكم في المستدرك: كتاب معرفة الصحابة، باب فضائل أمير المؤمنين ذي النورين، ح (٤٥٥٣) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وصحَّحه الذهبي في التلخيص.

حوصر أشرف عليهم وقال أنشدكم باللَّه ولا أنشد إلا أصحاب النبي ﷺ ألستم تعلمون أن رسول اللَّه ﷺ قال: «من حفر رومة فله الجنة». فحفرتها، ألستم تعلمون أنه قال «من جهَّز جيش العسرة فله الجنة» فجهزته، قال: فصدقوه بما قال[١].

لقد حبى المولى عز وجل عثمان بالرزق الواسع والمال الوافر الذي جنَّده عثمان لخدمة الإسلام والمسلمين. فأنفق منه في سبيل اللَّه كثيراً، وفرّج اللَّه تعالى بعثمان كروباً وخطوباً ومحناً حلت بالمسلمين، ولم يعرف عن عثمان طيلة حياته أن توانى يوما أو ضنَّ بماله على الإسلام والمسلمين.

فهل يصح بعد هذا أن يقال: إن عثمان أو غيره من الخلفاء وجهوا الجيوش لقتال الفرس والروم طمعاً في غنيمة أو بحثاً عن مال.

لقد آثرت أن أذكر أمثلة للخلفاء الثلاثة الأول والذين كانت في عهدهم أكبر الفتوحات لأبيِّن أنهم كانوا أزهد الناس في الدنيا وأنهم ما أرادوا من بعث الجيوش إلا هداية الخلق إلى الحق وإنارة الأكوان بنور الإيمان، حتى تُقوَّض الشبهة من أساسها.

ولا يعني هذا أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان أقل منهم زهداً في الدنيا، بل إنه زهدها وزهد متاعها.

فها هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه بطل الإسلام والشجاع المقدام من يتابع سيرته ويشاهد فصولها وأحداثها المتتابعة والمتلاحقة لا بد وأن تستولي عليه الدهشة والعجب حين يرى مثالًا رائعاً في الزهد في الدنيا وعدم الحرص على

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب إذا وقف أرضاً أو بئراً، ح (٢٦٢٦).

متاعها وزينتها وهو من أبطال ميادين الوغى وساحات الاستبسال، وهو رابع الخلفاء ومستشار من سبقه منهم.

قال يحيى بن معين: عن علي بن الجعد عن الحسن بن صالح قال: تذاكروا الزهاد عند عمر بن عبد العزيز فقال قائلون: فلان، وقال قائلون: فلان، فقال عمر بن عبد العزيز: أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب[١].

وروى أبو نعيم في الحلية بسنده عن علي بن أبي طالب قال: جاءه ابن النباج فقال: يا أمير المؤمنين، امتلأ بيت مال المسلمين من صفراء وبيضاء، فقال: اللَّه أكبر، فقام متوكئاً على ابن النباج حتى قام على بيت مال المسلمين، فقال: . . . هذا جناي وخياره فيه. . . وكل جان يده إلى فيه. . . يا ابن النباج عليَّ بأشياع الكوفة قال: فنودي في الناس فأعطى جميع ما في بيت مال المسلمين وهو يقول: يا صفراء ويا بيضاء غري غيري ها وها حتى ما بقي منه دينار ولا درهم ثم أمره بنضحه وصلى فيه ركعتين[٢].

وروى البلاذري بسنده أنه لما فرغ علي بن أبي طالب من أهل الجمل أتى الكوفة فدخل بيت مالها . . . ثم قال: يا مال غري غيري. ثم قسمه بيننا، ثم جاءت ابنة للحسن- أو للحسين- فتناولت منه شيئا، فسعى وراءها ففك يدها ونزعه منها، قال: فقلنا: يا أمير المؤمنين إن لها فيه حقا!! قال: إذا أخذ

(١) البداية والنهاية: ابن كثير (٦/٨) رواه ابن سمعون في أماليه (ص١٠) ومن طريقه ابن عساكر في تاريخه (٤٢/ ٤٨٩).
(٢) رواه أبو نعيم: حلية الأولياء (١/ ٨١).

أبوها حقه فليعطها ما شاء. فلما فرغ من قسمته قسم بيننا حبالًا جاءت من البحرين، فأبينا قبضها فأكرهنا عليها، فخرجت كتاناً جيداً، فتنافسنا فيها فبلغت دراهم، ثم عمد إلى بيت المال فكسحه ونضحه بالماء، ثم صلَّى فيه ركعتين، ثم توسَّد رداءه وقال: ينبغي لبيت مال المسلمين أن لا يأتي عليه يوم- أو جمعة- إلا كان هكذا ليس فيه شيء قد أخذ كل ذي حق حقه[١].

وفي الحلية عن هارون بن عنترة عن أبيه قال: دخلت على علي بن أبي طالب بالخورنق وهو يرعد تحت سمل قطيفة - أي قطيفة بالية قديمة- فقلت: يا أمير المؤمنين، إن اللَّه قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال وأنت تصنع بنفسك ما تصنع، فقال: واللَّه ما أرزأكم من مالكم شيئاً، وإنها لقطيفتي التي خرجت بها من منزلي، أو قال: من المدينة[٢].

وليس هذا حال الخلفاء الأربعة وحدهم، بل إن نظرة عابرة إلى آحاد هؤلاء الفاتحين، بل إلى كبار قوادهم تدحض هذه الشبهة من أساسها.

إن خالد بن الوليد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بوصفه من أعظم قادة المسلمين وقاهر الفرس والروم، ومزيل دولتهم ومقوِّض أركانهم، يموت مخلفاً وراءه من حطام الدنيا فرساً وحساماً وغلاماً، فأين هي الغنائم إذن؟ وأين هذا العائد الذي جناه من الدوافع الاقتصادية المزعومة.

وها هو أبو عبيدة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أبرز قواد فتح الشام يدخل عليه عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حين

(١) أنساب الأشراف: البلاذري، (ص١٣١- ١٣٢).
(٢) حلية الأولياء: أبو نعيم (١/ ٨٢).

قدم الشام وخاطبه قائلًا: اذهب بنا إلى منزلك، قال: وما تصنع عندي؟ ما تريد إلا أن تعصر عينيك علي. قال: فدخل، فلم ير شيئاً، قال: أين متاعك؟ لا أرى إلا لبد أو صحفة وشناً وأنت أمير، أعندك طعام؟ فقام أبو عبيدة إلى جونة، فأخذ منها كسيرات، فبكى عمر، فقال له أبو عبيدة: قد قلت لك: إنك ستعصر عينيك علي يا أمير المؤمنين، يكفيك ما يبلغك المقيل. قال عمر: غيَّرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة(١).

وروى أبو نعيم عن معمر قال: لما قدم عمر الشام تلقاه الناس وعظماء أهل الأرض، فقال عمر: أين أخي؟ قالوا: مَن؟ قال: أبو عبيدة، قالوا: الآن يأتيك، فلما أتاه نزل فاعتنقه، ثم دخل عليه بيته، فلم ير في بيته إلا سيفه وترسه ورحله(٢).

وها هو أيضا نلمحه زاهداً في الحياة متطلعاً إلى ما عند اللَّه، وما عند اللَّه خير وأبقى، فلم تستطع الدنيا بشهواتها ولا زخرفها ومتاعها أن تصل إلى قلبه أو تصرفه عن مقصده وغايته، رغم أنه كان قائداً للجيوش وأميراً للأمراء.

روى ابن سعد في طبقاته: أن عمر بن الخطاب أرسل إلى أبي عبيدة بأربعة آلاف درهم وأربعمائة دينار، وقال للرسول: انظر ما يصنع. قال: فقسَّمها أبو عبيدة. قال: ثم أرسل إلى معاذ بمثلها، وقال للرسول مثل ما قال، فقسَّمها معاذ إلا شيئاً قالت امرأته: نحتاج إليه، فلما أخبر الرسول عمر قال: الحمد للَّه الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا(٣).

---

(١) تاريخ دمشق (٢٥/ ٤٨١). - سير أعلام النبلاء: الذهبي (١/ ١٦ - ١٨).
(٢) حلية الأولياء: أبو نعيم (١/ ١٠١، ١٠٢).
(٣) الطبقات الكبرى: ابن سعد (٣/ ٤١٢، ٤١٣).

ولم يكتف رضي الله عنه بزهد نفسه، بل كان يحث غيره على الزهد في الدنيا، فيروى أبو نعيم في الحلية أن أبا عبيدة بن الجراح كان يسير في العسكر فيقول: ألا رب مبيِّض لثيابه مدنس لدينه، ألا رب مكرِم لنفسه وهو لها مهين، ادرؤا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات، فلو أن أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء ثم عمل حسنة لعلت فوق سيئاته حتى تقهرهن(١).

ومن أبرز ما سجله التاريخ الإسلامي موقف الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عندما أشار إليه عامله على مصر بعدم رفع الجزية عن من أسلم من أهل الذمة فكتب إليه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه :

«أما بعد: فإن اللّه بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم داعياً، ولم يبعثه جابياً فإن كان أهل الذمة قد أسرعوا فى الإسلام وكسروا الجزية فاطوِ كتابك وأقبل»(٢).

ومما يؤكد نزاهة المسلمين الأوائل أن كثيراً منهم كانوا أغنياء قبل دخولهم فى الإسلام، ومع ذلك وبعد تحقق الفتوحات الإسلامية في عهودهم، فقد كانوا زاهدين فى الدنيا يعيشون حياة بسيطة للغاية أبعد ما تكون عن الترف أو الملذات المادية، فلو كان الدافع الاقتصادي للفتوحات موجوداً لانعكس الأمر ولوجدنا ثرواتهم تزداد، وتزداد معها ملذاتهم وترفهم، وإقبالهم على الحياة.

فأين هذه الغنائم التي يتحدث عنها المغرضون؟ وأين هذا المتاع الذي حرص الفاتحون المسلمون على أن يقلبوا أجسادهم فيه بالليل والنهار؟

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٠٢) - وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ١١٦)،ح (٣٤٦٢١).
(٢) الطبقات الكبرى: ابن سعد (٥/ ٣٨٤). سير أعلام النبلاء للذهبي (٥/ ١٤٧).

تاريخ الفتوحات شاهد على بطلان هذه الشبهة:

إن المتابع لحركة الفتوحات الإسلامية يجد أنها كانت حركة فريدة تختلف عن كل الحركات التوسعية في تاريخ الأمم كلها، من حيث الأهداف والآثار.

إن الفتوحات الإسلامية بدوافعها وكل ما دار فيها أيضاً كانت تهدف إلى نشر الدين الإسلامي بالحسنى، ومن منطلق سامٍ، بعيداً عن الماديات، وذلك بدلالة ما وقع في أحداث الفتح الإسلامي من قضايا التّعفّف عند الغنيمة وأداء الأمانات والإخلاص للَّه ما يعجز التاريخ البشري عن إبراز نظائره. وقد أثبتت الفتوحات نفسها مدى بعد الجيش الإسلامي عن الطمع في الغنائم.

فقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق أنه لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض[١] أقبل رجل بحق معه فدفعه إلى صاحب الأقباض فقال الذين معه: ما رأينا مثل هذا قط ما يعدله ما عندنا ولا يقارنه، فقالوا له: هل أخذت منه شيئاً؟ فقال: أما واللَّه لولا اللَّه ما أتيتكم به، فعرفوا أن للرجل شأناً فقالوا: من أنت؟ فقال: واللَّه لا أخبركم لتحمدوني ولا غيركم لتقرظوني، ولكن أحمد اللَّه وأرضى بثوابه، فأتبعوه رجلًا حتى انتهى إلى أصحابه، فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس[٢].

وهاهو ربعي بن عامر في القادسية يأتي رستم قائدهم وقد أقبل يتوكأ على

---

(١) الأقباض: جمع قبض وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تقسم.
(٢) تاريخ دمشق (٢٦/ ١٢).

رمحه وزُجّه نصل يقارب الخطو ويزج النمارق[١] والبسط فما ترك لهم نمرقة ولا بساطاً إلا أفسده وتركه منهتكاً مخرقاً، فلما دنا من رستم تعلَّق به الحرس وجلس على الأرض وركز رمحه بالبسط، فقالوا: ما حملك على هذا قال: إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه...[٢].

إن ربعيّ بن عامر رضي الله عنه رفض حتى أن يجلس على بساط رستم قائد الفرس في معركة القادسية، بل جلس على الأرض، وقال: إناَّ لا نقعد على زينتكم، فأين هذا الدافع الاقتصادي المزعوم؟ وهل يجدي هذا الدافع مع أناس هذا وضعهم؟

وهذا زهرة بن الحوية في معركة القادسية التي تعد من أشهر معارك المسلمين يجيب رستم قائد الفرس عندما راسله وأراده أن يصالحهم ويجعل له جعلًا على أن ينصرفوا عنه وجعل يقول فيما يقول: أنتم جيراننا وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا فكنا نحسن جوارهم ونكفّ الأذى عنهم ونوليهم المرافق الكثيرة، نحفظهم في أهل باديتهم فنرعيهم مراعينا ونميرهم من بلادنا ولا نمنعهم من التجارة في شيء من أرضنا وقد كان لهم في ذلك معاش يعرض لهم بالصلح وإنما يخبره بصنيعهم والصلح يريد ولا يصرح، فقال له زهرة: صدقت قد كان ما تذكر وليس أمرنا أمر أولئك ولا طلبتنا، **إنا لم نأتكم لطلب الدنيا إنما طلبتنا وهمتنا**

(١) النمارق: جمع نمرقة وهي الوسادة. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٥/ ١١٨).
والزُّج: الحديدة التي تكون في أسفل الرمح تغرس في الأرض، والنصل هو السنان. (انظر: مصباح المنير ١/ ١٣١).

(٢) تاريخ الطبري (٣ / ٣٤).

الآخرة، كنا كما ذكرت يدين لكم من ورد عليكم منا، ويضرع إليكم يطلب ما في أيديكم، ثم بعث اللَّه تبارك وتعالى إلينا رسولًا فدعانا إلى ربه، فأجبناه، فقال لنبيه ﷺ: إني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني فأنا منتقم بهم منهم وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرِّين به وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذل ولا يعتصم به أحد إلا عز...[1].

وفي نفس المعركة لما فتح اللَّه للمسلمين ونصرهم على الفرس ووزِعت الغنائم يروى ابن كثير أن سعد بن أبي وقاص استوهب أربعة أخماس البساط- بساط كسرى- ولبس كسرى من المسلمين، ليبعثه إلى عمر والمسلمين بالمدينة لينظروا إليه ويتعجبوا منه، فطيبوا له ذلك وأذنوا فيه، فبعثه سعد إلى عمر مع الخمس مع بشير بن الخصاصية، وكان الذي بشر بالفتح قبله حليس بن فلان الأسدي، فروينا أن عمر لما نظر إلى ذلك قال: إن قوماً أدوا هذا لأمناء، فقال له علي بن أبي طالب: إنك عففت فعفت رعيتك، ولو رتعت لرتعت[2].

وفي شرح نهج البلاغة: أنه جيئ بتاج كسرى إلى عمر فاستعظم الناس قيمته للجواهر التي كانت عليه فقال إن قوما أدوا هذا لأمناء فقال علي عليه السلام: إنك عففت فعفوا ولو رتعت لرتعوا[3].

وها هو ملك الصين يخاطب هبيرة بن المشمرج الكلابي ممثل قتيبة بن مسلم الباهلي قائلًا: فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له: ينصرف فإني قد

(١) راجع: تاريخ الطبري (٢/ ٤٠٠) - الكامل في التاريخ (١/ ٤١٢).
(٢) البداية والنهاية (٧/ ٧٨).
(٣) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد (١٢/ ١٤).

عرفت حرصه وقلة أصحابه وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه، قال له: كيف يكون قليل الأصحاب من خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ وكيف يكون حريصاً من خلّف الدنيا قادراً عليها وغزاك؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالًا إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه، قال: فما الذي يرضي صاحبك؟ قال: إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية، قال: فإنا نخرجه من يمينه نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث إليه بجزية يرضاها، قال: فدعا بصحاف من ذهب فيها تراب، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ثم أجازهم فأحسن جوائزهم، فساروا فقدموا بما بعث به فقبل قتيبة الجزية وختم الغلمة وردَّهم ووطئ التراب[(١)].

وفي اليرموك: حين دارت رحى الحرب ونادى المنادي ونادى عكرمة بن أبي جهل: من يبايع على الموت؟ لا من يبايع على الغنيمة، فبايعه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور في أربع مائة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعاً جراحاً وقُتلوا، إلا من برئ منهم[(٢)].

وهاهو زيد بن الخطاب ومعه سالم مولى أبي حذيفة في يوم اليمامة وكان يحمل راية المسلمين يوم اليمامة ولقد انكشف المسلمون حتى غلبت حنيفة على الرحال فجعل زيد يقول: أما الرحال فلا رحال، وأما الرجال فلا رجال، ثم جعل يصيح بأعلى صوته: اللَّهم إني أعتذر إليك من فرار

---

(١) تاريخ الطبري (٤/ ٣٢).

(٢) راجع: تاريخ دمشق (٢٤/ ٣٩١) - البداية والنهاية (٧/ ١٥).

أصحابي وأبرأ إليك مما جاء به مسيلمة ومحكم بن الطفيل، وجعل يشتد بالراية يتقدم بها في نحر العدو ثم ضارب بسيفه حتى قتل ووقعت الراية، فأخذها سالم مولى أبي حذيفة، فقال المسلمون: يا سالم إنا نخاف أن نؤتى من قبلك، فقال: بئس حامل القرآن أنا إن أتيتم من قبلي[١].

بل إن خصوم المسلمين في فتوحاتهم قد أقروا بحسن أخلاقهم ورفيع سلوكياتهم بما ينافي أن يكون خروج أمثال هؤلاء الفاتحين لغرض المال أو ما شابه.

وفي فتح مصر: اسمع معي إلى رسل المقوقس عندما عادوا إليه من عند عمرو قبيل فتح حصن بابليون وهالهم ما رأوه من أخلاق المسلمين الفاتحين، فلم يتمالكوا أنفسهم أن قالوا لمقوقسهم: رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ليس لأحدٍ منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، وإنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحدٍ منهم ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد منهم يغسلون أطرافهم بالماء ويتخشعون في صلاتهم[٢].

وفي معركة أجنادين في خلافة الصِّديق أبي بكر رضي الله عنه بعث القبقلار قائد جيش الروم عربياً إلى المسلمين يأتيه بخبرهم، فدخل فيهم وأقام يوما وليلة، ثم عاد إليه فقال: ما وراءك؟ فقال: بالليل رهبان، وبالنهار فرسان، ولو

---

(١) الطبقات الكبرى: (٣/ ٣٧٧).

(٢) راجع: فتوح مصر وأخبارها، القرشي المصري، (ص١٤٤)- المواعظ والاعتبار للمقريزي: (١/ ٢٩٠).

سرق ابن ملكهم قطعوه، ولو زنى رجم لإقامة الحق فيهم. فقال: إن كنت صدقتني لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها[(١)].

فأين هو هذا الدافع الاقتصادي المزعوم الذي أخرج الآل والأصحاب ومَن تلاهم مِن ديارهم كما يقول الحاقدون؟ وأين هذه المصلحة الشخصية التي جعلتهم يتركون بيوتهم وأولادهم ونساءهم ويعانقون المنايا في لهفة وشوق أشبه بلهفة وشوق المحبّ لمحبوبه، والغائب لأهله، إن الهدف الذي أخرجهم من بيوتهم هو الإسلام لا غير.

ثم إن مائة ألف مسلم لو أرادوا الثروة والغنيمة حقاً لكانت تكفيهم فلسطين أو غوطة دمشق أو نصف دلتا مصر أو سواد العراق، فلماذا إذن الفتوح في الصين وإسبانيه وفرنسه.. ولقد عاش العرب في باديتهم المقفرة مئات السنين وهم يعرفون الخيرات في الشمال، فلماذا لم ينطلقوا إلى مواقع الخصب قبل الإسلام[(٢)].

إن الفاتحين المسلمين من الآل والأصحاب ومن جاء بعدهم قوم ليس لهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، إنهم أصحاب رسالة وعقيدة لا طامحين لجاه ولا لمال، يتدافعون في ساحات الوغى كل يريد أن يسبق صاحبه في نيل الشهادة في سبيل اللَّه تعالى التي هي أعلى وأعز مطلوب، من أجل أن يبقى نور الإسلام منيراً يهدي العالمين، إنه كان يكفي الواحد منهم ما يقيم أوده ويسدُّ رمقه ويستر عورته ليحيا مجاهداً في سبيل اللَّه تعالى، وحين أدركت الشعوب هذه الحقيقة ورأت منهم صدق التوجُّه وسلامة المقصد

---

(١) راجع: الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/ ٤١٧).
(٢) في التاريخ الإسلامي: شوقي أبو خليل، (ص٢٧٧).

ورحمة التطبيق أيقنت أنهم حملة رسالة وطلاب حق وأصحاب مبادئ، فتسارعوا فيما بينهم للحاق بركب الإسلام، ودخلوا في دين اللَّه تعالى طائعين، وحتى من بقي منهم على دينه بقي وهو يحمل في نفسه إكباراً وإعظاماً لهؤلاء الفاتحين الذين كانوا نماذج للحق والعدل.

وماذا بعد الحق إلا الضلال؟

إن المسلمين الفاتحين كانوا أبعد ما يكون عن الجري وراء الدنيا وشهواتها، إنهم كانوا رهباناً بالليل فرساناً بالنهار كما وصفهم أعداؤهم، وهنا أتساءل ألم يقرأ المستشرقون هذه النماذج وغيرها خلال اطلاعهم على تاريخ المسلمين؟ بلى. . . ولكن الذي دعاهم إلى ذلك أمران:

١- الحقد الدفين على الإسلام وتاريخه.

٢- اعتماد المصادر غير الموثوق بها.

وهذا من أكبر العيوب المنهجية في الدراسات الاستشراقية، حيث إنهم يعمدون إلى المصادر غير الموثَّقة عند المسلمين فيجعلونها هي المصدر الأساس لدراساتهم وبحوثهم، ومن ذلك أنهم يرجعون إلى كتاب مثل كتاب الأغاني للأصفهاني فيجعلونه مرجعاً أساسياً في دراساتهم للتاريخ الإسلامي وللمجتمع الإسلامي، كما يعمدون إلى المراجع التي ضعفها العلماء المسلمون أو طعنوا في أمانة أصحابها فيجعلونها أساساً لبحوثهم، أو كان أصحاب تلك المراجع منحازين إلى فئة معينة أو متعصبين.

لقد نسي أو تناسى هؤلاء أن الذي يسعى وراء الغنيمة لا يمكنه مطلقاً وهو أسيرها أن يبني مجتمع العقيدة، العقيدة الإسلامية، والمستشرقون وأذنابهم

لا يفهمون هذا المستوى الرفيع المشرق لأنهم لا يستطيعون الارتقاء إليه وهم فقراء في المثل الذي هو شر أنواع الفقر والذي يصاب به لا يستطيع إطلاقا أن يرتفع على ذاك الأفق السامق البعيد، فضلا عن الجهل الفاضح بأوليات الشريعة الإسلامية[1].

إن الفتوحات الإسلامية لم تكن في أي يوم من الأيام استعماراً، وإنما الاستعمار يقوم على السلب والنهب واستنزافُ أموال الشعوب وتخريب الديار وتشريد الأمم ولم يكن ذلك أبدا شأن الفتوحات الإسلامية والتاريخ أعظم شاهد على ذلك.

إن الفتوحات الإسلامية كانت لنشر النور والعدل، واستخلاص الشعوب من النظم الجائرة، وتبليغ دعوة ربهم، وتحرير عقولهم وضمائرهم من الخضوع لغير اللَّه، فالهدف من هذه الفتوحات هداية الناس إلى الحق أولًا، ثم إقامة الحجة على من أبى ثانياً، ثم تحقيق النفع للشعوب التى فتحت بلادها ثالثاً، وهذه مسألة واضحة إلا أن هذه الأمة منيت بالمفترين يغضون من أقدارها ويهونون من مآثرها، ويلصقون بها الأباطيل، فقالوا: طلب القوت والطمع فى الغنائم هو الذي نشر هؤلاء العرب فى أرجاء الأرض إن الإنسان ربما يحارب على الخبز، ولكنه لا يطلب الشهادة فى سبيله، إن الإنسان يريد أن يظفر بالطعام ليعيش به لا أن يموت فى طلبه، فما بال هؤلاء العرب المسلمين طلبوا الموت حينما ذهبوا وحقروا العيش أينما وجهوا؟ ما بالهم وقد فتحت لهم مصر ورأوا الخصب في أرضها

(١) راجع: نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي: عبد الرحمن الحجي، (ص٦٢)، وانظر: العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب، (ص١٧٤).

ورغد العيش على ضفاف نيلها، جاوزوها إلى صحارى النوبة وسهول أفريقيا؟ ما بالهم وقد دانت لهم فارس جابوا صحارى مكران إلى السند، وعبروا نهر جيحون إلى ما وراء النهر، وما بالهم يتركون النعيم والخير العميم والعز المقيم فى الأرض التي سيطروا عليها ليجوزا فيافي قاحلة ويحاربوا أقواماً غلاظاً شداداً فى بلاد تنتظرهم فيها قبورهم إن الأمر لأعظم مما توهموا وأسمى مما قالوا»[١].

فهذه الافتراءات التي يثيرها هؤلاء الحاقدون لا صحة لها، فإن المسلمين خرجوا للجهاد ليؤمنوا طريق الدعوة لتصل كلمة اللَّه إلى البشر أجمعين ولنشر الحق والعدل. أما الزعم بالأهداف المادية والسعي إلى الغنائم فيمكن الرجوع إلى تاريخ الفتوحات الإسلامية لمعرفة طبيعة الجنود الذين خاضوا هذه الفتوحات وأنهم أبعد الناس عن السعي للمادة، أليس قادة الجيوش الإسلامية هم الذين ضحوا طوال حياتهم بالغالي والرخيص في سبيل هذه الدعوة؟ فهل كانوا يبحثون عن المكاسب المادية؟ نعم كانت هناك فئة قليلة دخلت المعارك بحثاً عن الغنائم، وهؤلاء قطعاً ليسوا من الآل أو الأصحاب، ولكن النظرة المادية تقول: إن الأعداد القليلة من المسلمين التي كانت تقاتل جيوشاً يفوقونهم عدداً وعدة ما كانت المغانم هي التي تدفعهم للجهاد، لقد كان الجنود المسلمون رهباناً بالليل فرساناً بالنهار إذا سرق ابن قائدهم أقاموا عليه الحد.

إن المسلمين سطروا بدمائهم أروع الصفحات وضربوا بجهادهم أمجد الأمثلة في التضحية والفداء والإخلاص لهذا الدين.

---

(١) راجع: مع اللَّه، دراسات في الدعوة والدعاة، (ص١٧٠، ١٧١).

إنهم ما أرادوا الدنيا ولا شهواتها، وما انطلقوا يعبرون الفيافي والصحار والمحيطات والأنهار إلا ليعمروا الأكوان بنور الإيمان، وينشروا دين اللَّه في الدنا كلها.

الكتاب المقدس وغنائم الحروب:

إن أخذ الغنائم الناتجة عن الحرب من الأمور المعهودة في عرف المتحاربين ومن الأمور التي أقرها الكتاب المقدس الذي يتحاكم إلى نصوصه المستشرقون، فكيف لهم أن يصموا الإسلام بأخذه الغنائم في الوقت الذي أباحها كتابهم المقدس، بل وأمر بها، فقد ورد في العهد القديم وتحديداً في سفر العدد ما نصه:

«وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: أَحْصِ أَنْتَ وَأَلِعَازَارُ الْكَاهِنُ وَرُؤَسَاءُ الْعَشَائِرِ الْغَنَائِمَ وَالسَّبْيَ مِنَ النَّاسِ وَالْحَيَوَانِ، وَقَسِّم الْغَنَائِمَ مُنَاصَفَةً بَيْنَ الْجُنْدِ الْمُشْتَرِكِينَ فِي الْحَرْبِ وَبَيْنَ كُلِّ الْجَمَاعَةِ، وَخُذْ نَصِيباً لِلرَّبِّ مِنْ غَنَائِمِ أَهْلِ الْحَرْبِ، وَاحِداً مِنْ كُلِّ خَمْسِ مِئَةٍ مِنَ النَّاسِ وَالْبَقَرِ وَالْحَمِيرِ وَالْغَنَم مِنْ نِصْفِ أَهْلِ الْحَرْبِ تَأْخُذُهَا وَتُعْطِيهَا لأَلِعَازَارَ الْكَاهِنِ تَقْدِمَةً لِلرَّبِّ، وَتَأْخُذُ مِنْ نِصْفِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَاحِداً مِنْ كُلِّ خَمْسِينَ مِنَ النَّاسِ وَالْبَقَرِ وَالْحَمِيرِ وَالْغَنَمِ وَسَائِرِ الْبَهَائِمِ، وَتُعْطِيهَا لِلَّاوِيِّينَ الْقَائِمِينَ عَلَى خِدْمَةِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ»[1].

فكيف يعيب المستشرقون على الإسلام ما هو واجب عندهم بدلالة كتابهم المقدس؟ أليست هذه ازدواجية في التعامل؟

---

(١) سفر العدد الإصحاح الحادى والثلاثون (٢٥: ٢٩).

وشهد شاهد من أهله:

ومن الأمور التي يمكن اصطحابها في محلِّ الرد على شبهة الفتوحات والدوافع الاقتصادية شهادة رجال المستشرقين في بطلان ما ذكره بنو جلدتهم من الدوافع الاقتصادية للفتوحات وغيرها:

- يقول المستشرق «ول ديورانت» فى كتابة: «قصه الحضارة»: «ولم يكن الأعداء يخيرون بين الإسلام والسيف، بل كان الخيار بين الإسلام والجزية والسيف»(١).

يقول المستشرق مارسيل بوزار فى كتابه «إنسانية الإسلام»: «لقد أجبرت الضرورات النبى محمداً ﷺ على تأليف جيش لصد الهجمات المعادية وإرسال حملات وقائية من الجيران الخصوم، وكان عليه ﷺ قمع غارات السلب والنهب وتوفير السلام والأمان على طريق القوافل، وأخيراً كانت القوة المسلحة تبدو فى نطاق الحروب القبلية التى كانت تمزق أوصال الجزيرة العربية ضرورة حيوية كيلا يتجرأ أعداء الإسلام ويتعرض للخطر وجود الدولة التى كانت فى أولى مراحل نموها»(٢).

---

(١) قصة الحضارة: ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران (عصر الإيمان) المجلد الرابع (٢/ ٧٣) طبعة الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية بالقاهرة الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٤م. والعجيب أن هذا المستشرق كان ممن ذكر شبهة الدوافع الاقتصادية للفتوحات، ولكنه يأتي ويناقض ما ذكره: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

(٢) إنسانية الإسلام: المستشرق مارسيل بوزار، ترجمة: عفيف دمشقية (ص٢٦٤) طبع دار الآداب بيروت- لبنان عام ١٩٨٠م. نقلًا عن: انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه، محمد فتح اللَّه الزيادى، (ص١٢٣) ط١: دار قتيبه - بيروت، لبنان، سنة ١٤١١هـ ١٩٩٠م.

والذي يدعو للعجب والدهشة أن هذا المستشرق كان ممن تخرص بشبهة الدوافع الاقتصادية ثم يعود وينفيها هنا، وهذا يدل على اضطراب القوم وتخبطهم.

- وتقول المستشرقة زيجريد هونكه: «قد كان الهدف من الفتوحات الإسلامية التى تمت عن طريق الجيوش العربية هو توسيع سيادة الإيمان باللَّه فى العالم»[(١)].

فهذه شهادات لأناس ليسوا بمسلمين، إلا أنهم ما استطاعوا أن يخفوا الحقيقة الساطعة، ولم يتمالكوا أن شهدوا بها عندما حاول بنو جلدتهم أن يسيئوا إلى الفتوحات الإسلامية وأن يسموها بما ليس فيها[(٢)].

ردود جزئية:

كان ما سبق رداً عاماً على شبهة الدوافع الاقتصادية للفتوحات الإسلامية، أما فيما يتعلق بالرد الخاص على بعض الأمور التابعة للشبهة والتي رددها وللأسف بعض من ينتسب للإسلام، فإنه كالتالي:

---

(١) الإسلام في مرآة الفكر الغربي: محمود حمدي زقزوق، (ص١٠٦) ط٤: دار الفكر العربي، سنة ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

(٢) راجع: الاستشراق والدراسات الإسلامية عبد القهار داود، دار الفرقان، ط١: سنة ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م - الاستشراق والتاريخ الإسلامي- القرون الإسلامية الأولى-: فاروق عمر، ط١: الأهلية للنشر والتوزيع، سنة ١٩٨٨م - شبهات المستشرقين حول التراث الإسلامي، إبراهيم عبد الرحمن، (ص٣٥٢)- ظاهرة انتشار الإسلام، محمد فتح اللَّه الزيادي، (ص٣٠٣-٣٠٦).

- صالح الورداني واتهام الدولة الأموية بداية من معاوية ومن تلاه من الحكام بالسعي وراء المغانم الاقتصادية، ومصادرة نفائس الغنائم على حساب الإسلام واعتناق الناس له:

مرَّ معنا سابقاً قول صالح الورداني: كان معاوية ومن تلاه من الحكام يصادرون نفائس الغنائم من الجنود ويأخذونها لأنفسهم ويحولون بين الناس وبين الدخول في الإسلام خوفاً من تدنِّي دخل الدولة من الجزية والخراج[١].

وهذا ما ردده وزاد عليه سعيد أيوب حين تهجم على الخلفاء المسلمين بعامة والدولة الأموية بخاصة ناسبا إلى قياداتها أنهم ما أرادوا الإسلام في فتوحاتهم وأنهم دخلوها من طريق أضاعوا فيه الصلاة، واتبعوا الشهوات، وأنهم جروا الأمة إلى الفتن[٢].

وهذه شبهة واهية، لا أساس لها من الصحة ولا سند لها من التاريخ، وإلا فليثبت لنا الورداني ما ذكره.

إن الورداني وغيره بكلامه السابق الذي يفتقر إلى الحجة والبرهان ما هو إلا صدى صوت للمستشرقين الذين سبقوه بهذا الإفك، كما أن هجومه على معاوية بن أبي سفيان رأس الدولة الأموية ومن جاء بعده- كما سبق- ما هو إلا صورة من صور التمازج الخطير الذي حدث بين المستشرقين ومن انخدع بهم ممن ينتمي للإسلام، والذي سبق وأوضحناه.

---

(١) دفاع عن الرسول ضد الفقهاء والمحدثين: صالح الورداني، حاشية (ص١٥٠).
(٢) راجع: معالم الفتن، سعيد أيوب (٢ / ٢١٥).

فها هو فلهوزن يشكك في تديُّن معاوية بن أبي سفيان ويقول عنه: لم يكن في قلبه تعلُّق بالإسلام(١).

وها هو رينيه غروسيه يقول عن معاوية: إنه كان حبراً محباً للفنون، ملحداً تقريباً(٢).

ويأتي المستشرق اليهودي المجري جولد تسيهر محاولًا الوصول إلى مبتغاه، ويعلنها صريحة ويقول عن الدولة الأموية ككل بما فيها معاوية: مما لا ريب فيه أن بني أمية لم يكونوا متدينين، ولا متظاهرين بالتقوى(٣).

وعند الرد نقول: هل فات هؤلاء أن معاوية خال المؤمنين وأنه كان كاتباً للوحي بين يدي النبي ﷺ.

روى أحمد في مسنده عن ابن عباس يقول: كنت غلاماً أسعى مع الغلمان فالتفت فإذا أنا بنبي اللَّه ﷺ خلفي مقبلًا فقلت: ما جاء نبي اللَّه ﷺ إلا إلي قال: فسعيت حتى أختبئ وراء باب دار، قال: فلم أشعر حتى تناولني فأخذ بقفاي فحطأني حطأة(٤)، فقال: اذهب فادع لي معاوية، قال: وكان كاتبه، فسعيت فأتيت معاوية، فقلت: أجب نبي اللَّه ﷺ فإنه على حاجة(٥).

---

(١) تاريخ الدولة العربية (١٢٩).
(٢) مجالي الإسلام: حيدر بامات (ص٨٠)، نقلًا عن: الدولة الإسلامية المفترى عليه، (ص٩١).
(٣) العقيدة والشريعة: جولد تسيهر: (ص٧٠-٧١).
(٤) حَطأة بفتح الحاء وإسكان الطاء بعدها همزة، وهو الضرب باليد مبسوطة بين الكتفين، وإنما فعل هذا بابن عباس ملاطفة وتأنيساً. انظر: شرح مسلم للنووي، (١٦/ ١٥٦).
(٥) رواه أحمد في مسنده: مسند عبد اللَّه بن العباس، ح (٣١٠٤) وقال الشيخ شعيب: إسناده حسن.

إن هذه الرواية تشهد بفضل معاوية وأنه كان من كُتَّاب النبي ﷺ، ولسنا هنا بصدد الدفاع عن معاوية رضي الله عنه وتبرأة ساحته فقد كفانا علماؤنا الأخيار مؤنة هذا الأمر، وإن كان الدفاع عنه رضي الله عنه شرف كبير، قد سبقنا إليه غيرنا(١).

فياترى من أين أتى الورداني وغيره بهذا الكلام الذي حاولوا فيه إسقاط حكام الدولة الأموية بدءاً من معاوية ومن تلاه:

هل نسى الورداني ومن يلفّ لفه أن الدولة الأموية أسهمت إسهاماً بالغاً في الفتوحات الإسلامية، لقد استطاع الأمويين نشر الإسلام في قطاعات واسعة من المعمورة، عن طريق الدعوة إليه بعد كسر الحواجز الظالمة التي حالت بين الناس وبين الإسلام عن طريق الفتوحات.

فالفتوحات الإسلامية في عهد الأمويين امتدت لتشمل ما بين حدود الصين في أقصى الشرق وبلاد الأندلس وجنوبي فرنسا في أقصى الغرب، وما بين النوبة في الجنوب إلى أراضي آسيا الصغرى، وتهديد القسطنطينية- عاصمة البيزنطيين العتيدة- في أقصى الشمال وحصارها عدة مرات(٢).

فلا يصح الطعن في معاوية واتهامه بهذه الصفات التي يأنف منها وضعاء البشر.

كما لا يصح الهجوم على الدولة الأموية واتهام ولاتها بالحرص على الأموال

---

(١) راجع: سيرة معاوية بن أبي سفيان للصلابي- ذب السنان عن معاوية بن أبي سفيان لسعد السبيعي.

(٢) انظر: الدولة الأموية المفترى عليها: حمدي شاهين، (ص١٨)- مروج الذهب للمسعودي: (٣/ ٤٢-٤٤).

ونفائس الغنائم، وحيلولتهم بين الناس وبين الدخول في الإسلام خوفاً من تدنِّي دخل الدولة من الجزية والخراج إلى أن جاء عمر بن عبد العزيز.

إن هذا الكلام خاطىء من كل وجه، وفيه تعميم غير مقبول من جهة، ومخالفة لمقررات العقول من جهة أخرى.

إن الورداني من وراء ما ذكره إلى ما ذكرته بعض الروايات من أن بعض ولاة الأمويين فرضوا الجزية على من أسلم من أهل البلاد، كما ذكر الطبري في رواية له[١]، من إبقاء الحجاج بن يوسف للجزية على من أسلم، وذلك في خلافة عبد الملك بن مروان.

ورواية أخرى: أن أشرس بن عبد اللَّه السلمي والي خراسان من قبل هشام ابن عبد الملك قد فرض الجزية على موالي ما وراء النهر[٢].

وهذا الكلام وإن كان حدث بالفعل مرة أو مرتين إلا أنه لا يصح تعميمه على حكام بني أمية ككل، فهو على أكثر ما فيه أنه انحراف حدث من الحجاج بن يوسف، ومع ذلك يمكن القول بأن التأثير الاقتصادي لهذا الانحراف كان محدوداً، لأن قرار الحجاج في العراق قوبل بثورة أوقفت تطبيقه. كما كان هناك انحراف مماثل وقع في خراسان ولكنه كان محدودا، وعولج سريعا بمجيء عمر بن عبد العزيز[٣].

ويضاف إليه أن هناك من حاول تفسير هذا الأمر معللًا له، ومحاولاً

(١) تاريخ الطبري (٦/ ٣٨١).
(٢) راجع: تاريخ الطبري (٧/ ٥٤-٥٥) -الكامل لابن الأثير (٤/ ٢٠٢).
(٣) راجع: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية: للريس، (ص٢١٩) - الدولة الأموية: للصلابي (١/ ٦٨٤).

التماس الأعذار للحجاج كمحاول منه لمواجهة الفتن المائجة في العراق أول ولايته، ومواجهة نفقات جيوش الفتح التي استعادت نشاطها...[١].

وإذا كان الحجاج أو غيره قد تجاوز الصواب في عمله ذاك، فإن عمر بن عبد العزيز قد أصلح الأمر، وأسقط الجزية عمن فرضت عليه من الموالي في هذه الفترة الضئيلة[٢].

فهل يصح تعميم هاتين الحادثتين اللتين لم يكتب لهما الاستمرار والحمد للَّه، على حكَّام الدولة الأموية ككل، وهل في بقاء الجزية على الموالي صدٌّ عن الإسلام، إن سياسة التهويل والتعميم، وإنزال الجزء منزلة الكل، لهو مبدأ استشراقي أصيل، وقد وعاه الورداني ومن سار على دربه، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون، وقد ذكرت هذا الرد في هذا الموضع مع أنه متعلق وإلى حد كبير بشبهة الجزية، لارتباطه بشبهة الدوافع الاقتصادية للفتوحات الإسلامية، والتي طعن فيها الورداني وكان من الصعب فصل ما ذكره.

وفيما يلي عرض لشبهة الجزية والرد عليها من واقع نصوص الشريعة وتقريرات الفقهاء.

(١) راجع: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية: للريس (ص٢٥٤) - الدولة الإسلامية المفترى عليها: (ص٤٠٤).

(٢) راجع: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية: للريس (ص٢٨٥)- الدولة الإسلامية المفترى عليها: (ص٤٠٦).

ثالثاً: شبهة الجزية، وتعلُّقها بالشبهتين قبلها، والرد عليها

إن الناظر إلى مسألة الجزية يجد أن لها تعلُّقاً بشبهة الدوافع الاقتصادية وكذلك شبهة دموية الفتوحات وإكراهها الناس على الدخول في الإسلام، وهذا أمر يجب أن نلتفت إليه جيداً حتى تتضح الصورة.

- فأما عن تعلقها بشبهة الدوافع الاقتصادية فمن حيث كونها وسيلة من وسائل الثراء الذي - بزعمهم- خرج الفاتحون لتحقيقه.

حيث يزعم أصحاب هذا التوجه أن المسلمين الفاتحين من الآل والأصحاب ومن تلاهم خرجوا من جزيرتهم العربية بهدف جمع المال وتحقيق الثراء، إما عن طريق القتال ويكون بالغنيمة، أو عن طريق السلم ويكون بالجزية التي يفرضونها على من يحاربونه.

- وأما عن تعلق الجزية بشبهة الإكراه على الدخول في الإسلام فمن حيث كونها تشكل ثقلاً على كاهل من فرضت عليهم، الأمر الذي ألجأهم إلى الدخول في الإسلام هرباً منه.

فيزعم أصحاب هذا التوجُّه أن أولئك الذين قاتلهم المسلمون ولم تأخذهم فيهم رأفة ولا رحمة لما استسلموا سواء بعد قتال أو من غيره، فرض عليهم المسلمون الجزية التي أثقلت كواهلهم وأحنت ظهورهم الأمر الذي اضطرهم كارهين إلى اعتناق الإسلام هرباً من ثقل المغرم، فبناء على هذا التأويل تعد الجزية إحدى وسائل الإكراه على الدين، وعليه يظهر ارتباطها بشبهة دموية الفتوحات وإكراهها الناس على اعتناق الإسلام.

وقد تبنى هذه النظرة الحاقدة جمع كبير من المستشرقين يمثلهم المستشرق دوزي والذي يتحدث عن الجزية وأثرها في انتشار الإسلام فيقول:

فقد كان من المعروف أن أوامر الدين تسقط الجزية في الحال عمن يسلم من الذميين الذين في دار الإسلام، مسيحين كانوا أم يهوداً، ولا تجبى هذه الجزية إلا ممن بقي على دين أسلافه، فكان من جراء هذا الطعم الذي يزكيه الطمع أن أخذت الملة الإسلامية تتلقى كل يومٍ في أحضانها جماعات من المسلمين الذين لم يعتنقوه إيماناً تاماً، بل كان همهم الأول الاحتفاظ بالمال والمتاع الدنيوي[١].

ولن نطيل في الاستشهادات على هذه الشبهة فقد سبق وأوردنا بعضا مما يتعلق بها في شبهة الدوافع الاقتصادية.

وهذا كله محض زيفٍ وافتراء لا أساس له من شرعٍ ولا موافقة له من تاريخ صحيح أو عقلٍ سديد، وهذا ما سنبينه إن شاء اللَّه في السطور التالية بإيجاز.

الرد على الشبهة:

وعند الرد على هذه الشبهة فلا بد من بيان المنهج، والمتمثل في الرد عليها جملة واحدة سواء أتعلقت بالدوافع الاقتصادية أم بالدموية المزعومة؛ وذلك لأن بيان تشريع الجزية وعلته، والأمور ذات الصلة به من شأنه أن يدفع أي افتراء.

---

(١) دوزي: تاريخ مسلمي أسبانيه، (ص١٣٨)، نقلًا عن: ظاهرة انتشار الإسلام، محمد فتح اللَّه الزيادي، (ص١٧٥).

بداية: رحمة الإسلام بأهل الذمة:

وقبل أن نخوض في ثنايا الحديث عن الجزية أرى كمنطلق عام أن نشير إجمالًا إلى رحمة الإسلام بأهل الذمة في مجتمعه، حتى نعطي للقارئ الكريم صورة مجملة تمكِّنه من متابعة فصول الحديث.

لقد أعطى النبي ﷺ نماذج رائعة في التسامح مع أهل الذمة في ظل المجتمع الإسلامي فهو القائل: من ظلم معاهداً أو انتقصه حقاً أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه - أي خصمه- يوم القيامة[١].

وروى البخاري بسنده عن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما: عن النبي ﷺ قال: «من قتل معاهداً لم يُرح رائحة الجنة وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً»[٢].

هذه نظرة مجملة إلى رحمة الإسلام بأهل الذمة وحرصه على أمنهم ورعايتهم.

إنه قد بات واضحاً لنا من خلال ما سبق أن المسلمين قبل أن يخوضوا أي حرب كان لا بد لهم من دعوة تسبق القتال، حيث يدعون من سيقاتلونهم إلى إحدى ثلاث - كما مرَّ معنا- الإسلام، أو الجزية، أو القتال.

---

(١) رواه أبو داود: كتاب الخراج، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات، ح (٣٠٥٢)، وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري: كتاب أبواب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرمٍ، ح (٢٩٩٥).

فإن أسلموا فهم إخوة في الدين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وصاروا من نسيج المسلمين ولحمتهم، وإن اختاروا الحرب فليكن لهم ما اختاروه شريطة أن تراعى آداب الحرب التي مرَّ علينا ذكرها.

أما إن اختاروا عدم خوض الحرب مع البقاء على دينهم فلهم ما اختاروه فالإسلام لا يتعطش للدماء، ولكن في هذه الحال عليهم أن يدفعوا الجزية كإقرارٍ ضمني بانضوائهم تحت سلطان المسلمين من جهة، ومن جهةٍ أخرى كمقابل لحماية المسلمين لهم.

يقول المولى تعالى: ﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٩].

إن من يدعي زوراً وبهتاناً أن الجزية كانت السبب الرئيس في دخول أهل الكتاب الإسلام لعجزهم عن سدادها، أو أنها كانت دافعاً للمسلمين لخوض الفتوحات، إنما يتنكر لقواعد التفكير السليم ومسلمات وحقائق التاريخ الإسلامي.

الجزية تشريع قديم:

إن الناظر إلى تشريع الجزية سيجد أن الإسلام لم يكن أول من أخذ الجزية، فهي تشريع معتبر وقانون متبع عند كل الأمم بما فيهم اليهود والنصارى.

فالعهد القديم الذي يؤمن به اليهود والنصارى يشرع الجزية ويذكر أن الأنبياء عليهم السلام أخذوا الجزية من الأمم المغلوبة حين غلبوا على

بعض الممالك، كما صنع النبي يشوع مع الكنعانيين حين تغلَّب عليهم «فلم يطردوا الكنعانيين الساكنين في جازر، فسكن الكنعانيون في وسط افرايم إلى هذا اليوم، وكانوا عبيداً تحت الجزية» (يشوع ١٦ : ١٠).

وفي سفر الملوك الأول (٤ : ٢١) «أن سليمان أخذ الجزية من جميع الممالك من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر، وإليك النص المترجم: «فكانت هذه الممالك تقدم له الجزية وتخضع له كل أيام حياته».

وفي سفرصموئيل الثاني (٨: ١) «أن نبي اللَّه داود أخذ الجزية من الموآبيين، حيث ورد فيه ما نصه: وقهر أيضاً الموآبيين وجعلهم يرقدون على الأرض في صفوف متراصة، وقاسهم بالحبل. فكان يقتل صفين ويستبقي صفاً. فأصبح الموآبيين عبيداً لداود يدفعون له الجزية».

ويذكر العهد الجديد في إنجيل متّى (إصحاح٢٢: ١٧-٢١) أن المسيح سئل من قِبل تلاميذ الفريسيين: «أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا؟ فعلم يسوع خبثهم وقال لماذا تجربوني يا مراؤون، أروني معاملة الجزية، فقدموا له ديناراً. فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا له: لقيصر. فقال لهم: أعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر، وما للّه للّه».

ويعتبر بولس أداء الجزية للسلاطين حقاً دينياً مشروعاً ، فيقول في رسالته إلى رومية (١٣ : ٧) «لتخضع كل نفس للسلاطين، السلاطين الكائنة هي مرتبة من اللَّه، حتى إن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب اللَّه. . . فأعطوا الجميع حقوقهم، الجزية لمن له الجزية، الجباية لمن له الجباية، والخوف لمن له الخوف، والإكرام لمن له الإكرام».

إذن فالإسلام لم يبتدع هذا التشريع ولم يكن أول الأديان والملل تعاطياً

مع شريعة الجزية، بل إنه تشريع معروف عند جميع أمم الأرض بعامة، وشريعة معهودة عند أهل الكتاب بخاصة يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فكيف يشنَّع على المسلمين ويترك غيرهم؟

إن من يريد من المستشرقين أن ينال من المسلمين بحجة تشريع الجزية فعليه أولا أن يبصر نصوص دينه التي يقدسها ويؤمن بها ليرى فيها تشريع الجزية قائماً، وعليه حين يريد التشكيك أن يبدأ بمعتقده ودينه قبل أن يتطلع إلى ما عند الآخرين، وكما يقال: أتترك الحصاة في عينيك وتنظر إلى القذى في عين أخيك، هذا إذا كان قذى، لكن تشريع الجزية في الإسلام هو عنوان رحمة ودليل مسامحة مع الآخرين، وإليك البيان.

الجزية مقابل الحماية:

لماذا أخذ المسلمون الجزية من شعوب البلاد التي فتحوها ولم يسلموا؟

إن هذا التساؤل في غاية الأهمية والإجابة عليه لا تقل عنه أهمية.

إن المسلمين أخذوا الجزية مقابل الحماية، الحماية لا غير، فالجزية هي عوض عن التحاق غير المسلمين بجيش المسلمين؛ لأن جيش المسلمين جيش له عقيدة تحركه وتضبطه في كل شأنه؛ لذلك لا يعقل أن يلتحق به غير المسلمين، لذلك أخذت الجزية عوضاً عن حمايتهم، وهذا ما يجب أن يتنبه له من يثير أمثال هذه الشبهات، هذا إن فرضنا فيهم حسن النية وعدم العلم، وعدم تعمد الإساءة، وإن كان هذا الفرض بعيد كل البعد ولا يقبله إلا من أصابته سذاجة لبَّست على فكره وعقله.

فالجزية مأخوذة من الجزاء، أي أن أهل الكتاب إنما أخذت منهم الجزية جزاء ما يقدَّم لهم من خدمات، فهؤلاء حين يعاهدون على الجزية تكون

أرواحهم وأموالهم وجميع ممتلكاتهم في حماية المسلمين، لا يمكن لأحدٍ أن يمسها بسوء، فهي ضريبة مقابل امتياز مثلها مثل الكثير من الضرائب التي تأخذها الحكومات اليوم مقابل تقديم خدمات معينة[(١)].

يقول السيد سابق: «إن الإسلام قد فرض الجزية على الذميين فى مقابل فرض الزكاة على المسلمين، حتى يتساوى الفريقان لأن المسلمين والذميين يستظلون براية واحدة، ولذلك أوجب اللَّه الجزية للمسلمين نظير قيامهم بالدفاع عن الذميين، وحمايتهم فى البلاد الإسلامية التي يقيمون بها»[(٢)].

لذلك ضمن النبي ﷺ لربيعة الحضرمي الحماية حين أخذ منه الجزية، فكتب له: «وأن نَصْرَ آل ذي مرحب على جماعة المسلمين، وأن أرضهم بريئة من الجور»[(٣)].

وكذلك ضمن عبادة بن الصامت للمقوقس عظيم القبط، حين قال: «نقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم، ونقوم بذلك عنكم إن كنتم في ذمتنا، وكان لكم به عهد علينا»[(٤)].

وكتب خالد بن الوليد لبعض نواحي العراق: فإن منعناكم فلنا الجزية، وإلا فلا حتى نمنعكم- أي نحميكم[(٥)].

---

(١) ظاهرة انتشار الإسلام: (ص٢٧٥).

(٢) فقه السنة: السيد سابق (٣/ ٤٩)، ط دار الفتح للإعلام العربي بالقاهرة. ط١: سنة ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

(٣) الطبقات الكبرى (١/ ٢٦٦).

(٤) فتوح مصر وأخبارها: ابن عبد الحكم (ص٧٨)، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول اللَّه والثلاثة الخلفاء: سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي (٤/ ١٨).

(٥) تاريخ الطبري (٢/ ٥٧٠).

وقرر الفقهاء أن الجزية شرطها الحماية:

فقد ورد في المهذب: ويجب على الإمام الذب عنهم ومنع من يقصدهم من المسلمين والكفار واستنقاذ من أُسِر منهم واسترجاع ما أُخِذ من أموالهم سواء كانوا مع المسلمين أو كانوا منفردين عنهم فى بلد (لهم) لأنهم بذلوا الجزية لحفظهم وحفظ أموالهم، فإن لم يدفع عنهم حتى مضى حول لم تجب الجزية عليهم؛ لأن الجزية للحفظ وذلك لم يوجد فلم يجب ما فى مقابلته[١].

وقال أبو الوليد الباجي في المنتقى شرح موطأ مالك: وذلك أَنّ الْجِزْيَةَ إنَّما تُؤْخَذُ مِنهم عَلى وَجه الْعِوَضِ لإِقَامتهمْ فِي بِلاد المسلمين وَالذَّبِّ عنهُم والْحِمَايةِ لهم[٢].

وبمثله قال النووي وابن قدامة في المغني، وينقل القرافي في الفروق عن ابن حزم قوله: من كان في الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك، صوناً لمن هو في ذمة اللَّه تعالى وذمة رسوله ﷺ؛ فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة.

ويعلق القرافي فيقول: فعقد يؤدي إلى إتلاف النفوس والأموال صوناً لمقتضاه عن الضياع إنه لعظيم[٣].

بل يذهب الإسلام إلى أعظم من هذا بكثير، فيقول ابن النجار الحنبلي في

---

(١) المهذب للشيرازي (٢/ ٢٥٥).
(٢) المنتقى شرح الموطأ (٢/ ١٣٤).
(٣) الفروق: القرافي (٣/ ١٤).

مطالب أولي النهى: يجب على الإمام حِفظهم - أي أهل الذمة- ومنع من يؤذيهم؛ لأنهم بذلوا الجزية على ذلك، وفكَّ أسراهم؛ لأنهم جرت عليهم أحكام الإسلام وتأيَّد عقدهم فلزمه ذلك كما يلزمه للمسلمين، ولو لم يكونوا في معونتنا، بعد فكِّ أسرانا، فيبدأ بفداء المسلمين قبلهم؛ لأن حرمة المسلم أعظم ويجب على الإمام دفع مَن قصدهم بأذى(١).

فالجزية هي علامة لخضوع أعداء الإسلام وإلقاء سلاحهم، وكفِّهم عن مقاتلة المسلمين، ومعارضة الدعوة الإسلامية، وإفساح المجال أمامها ليدخل فيها من أحب دون إكراه أو إرغام.

فالجزية إنما تؤخذ في مقابل حماية الدولة الإسلامية لأموال هؤلاء الذميين وأنفسهم ولا أدل على ذلك من رد أبي عبيدة عامر بن الجراح لأهل الشام جزيتهم وخراجهم عندما بلغه أن الروم قد جمعوا للمسلمين، فهو وجنده لا يستطيعون حماية هؤلاء الذميين. لأنهم سيتفرغون لقتال الروم. وجاء في كتابه لهم: إنما رددنا لكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع الروم لنا من الجموع، و إنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا لكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا إن نصرنا اللَّه(٢).

ومن الأمثلة التطبيقية على هذه القاعدة: لما أغار أمير التتار قطلوشاه على دمشق في أوائل القرن الثامن الهجري، وأسر من المسلمين والذميين من النصارى واليهود عدداً، ذهب إليه الإمام ابن تيمية ومعه جمع من

(١) مطالب أولي النهى: ابن النجار الحنبلي (٢/ ٦٠٢-٦٠٣).

(٢) انظر: كتاب الخراج لأبي يوسف (ص١٣٩)، دار المعرفة - بيروت- لبنان، سنة ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

العلماء، وطلبوا فك الأسرى، فسمح له بالمسلمين، ولم يطلق الأسرى الذميين، فقال له شيخ الإسلام: لابد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا، ولا ندع لديك أسيراً، لا من أهل الملة، ولا من أهل الذمة، فإن لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، فأطلقهم الأمير التتري جميعاً[١].

وعلينا أن لا ننسى مقولة عمر بن عبد العزيز عندما أشار إليه عامله على مصر بعدم رفع الجزية عن المسلمين من أهل الذمة فكتب إليه عمر بن عبد العزيز قائلاً:

«أما بعد: فإن اللَّه بعث محمداً ﷺ داعيا، ولم يبعثه جابيا فإن كان أهل الذمة قد أسرعوا في الإسلام وكسروا الجزية فاطوِ كتابك وأقبل»[٢].

فالجزية في الإسلام هي إعلان خضوع وولاء من جهة، وعوض عن الحماية من جهة ثانية، فهي بدل نقدي لضريبة الدم، وإنما سلك الإسلام هذه السبيل ولجأ إليها مع غير المسلمين من باب التخفيف عليهم والرحمة بهم وعدم الإحراج لهم حتى لا يلزمهم أن يقاتلوا في صفوف المسلمين فيتهم بأنه إنما يريد لهم الموت والاستئصال والفناء والتعريض لمخاطر الحرب والقتال، فهي في الحقيقة امتياز في صورة ضريبة وفى الوقت نفسه احتياط لتنقية صفوف المجاهدين من غير ذوي العقيدة الصحيحة والحماسة المؤمنة البصيرة.

ومقتضى هذا أن المسلمين إذا عجزوا عن تقديم الحماية اللازمة لغير

---

(١) راجع: مجموع الفتاوي للإمام ابن تيمية (٢٨/ ٦١٧-٦١٨)، ط٣: دار الوفاء، سنة ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

(٢) الطبقات الكبرى: ابن سعد (٥/ ٣٨٦).

المسلمين من أبناء البلاد التي تدخل تحت حكم الإسلام فإنه لا تجب عليهم الجزية في هذه الحال، وهذا ما فعله الصحابة.

يقول أحمد الحوفى: «إن الجزية من نتائج الحرب، وأثر من آثارها، وليست دافعاً إلى الحرب ولا هدفاً من أهدافها قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٩] ومعنى هذا أن المسلمين مأمورون بقتال أعدائهم إذا حدث منهم ما يوجب قتالهم، كأن يعتدوا على ديار المسلمين أو على أشخاصهم أو أموالهم، أو يدبروا المؤامرات لتهديد سلامتهم وتعويق دعوتهم وفتنتهم عن دينهم والمسلمون مكلفون أن يقاتلوا هؤلاء الأعداء، حتى يأمنوا شرهم ولا سبيل إلى هذا إلا بالغلب الذى يعقبه الإسلام أو فرض الجزية[(١)].

الجزية على مَن تجب ومقدارها:

وبعد أن أوضحنا أن الجزية بدل عن الحماية لغير المسلمين، ينتقل بنا الحديث إلى محور في غاية الأهمية ألا وهو:

على من تجب الجزية؟

المقرر في كتب فقهاء المذاهب أنهم اشترطوا في وجوب الجزية العقل والبلوغ والحرية والذكورية وأن يكون كتابياً، وزاد بعض الفقهاء السلامة

(١) سماحة الإسلام: أحمد محمد الحوفى، (ص٢٢٥، ٢٢٦) إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، طبع مطابع الأهرام التجارية بالقاهرة، سنة ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

من العاهات المزمنة، وتوفر المقدرة المالية، وألا يكون من الرهبان[١] وسنفصل القول نسبياً في هذا الأمر عند حديثنا عمن تسقط عنهم الجزية.

مقدار الجزية:

وبعد الحديث عمن تجب عليهم الجزية ننتقل إلى الحديث عن مقدار الجزية الذي يتشدق به المغرضون ليلًا ونهاراً وسراً وجهاراً، لنرى هل يمكن لهذا المقدار الذي حدَّده الإسلام وأرسى قواعده النبي ﷺ أن يسيل لعاب الفاتحين المسلمين سواء أكانوا من الآل والأصحاب أم ممن جاء بعدهم حتى يدفعهم لخوض فتوحاتهم؟ والتضحية بأرواحهم، وهل يشكِّل هذا المقدار عبئاً على غير المسلمين يثقل كاهلهم ويدفعهم دفعا لترك دينهم ومعتقدهم هرباً من تكاليفه ومغرمه؟

لقد نسي أصحاب هذه الشبهة أن الجزية في الإسلام أقل بقليل مما يدفعه المسلمون في صورة تشريع الزكاة، مع أنهم يشتركون في الجهاد خلافاً لغير المسلمين في المجتمع الإسلامي.

حيث لم تزد في جُل تاريخها على أربعة دنانير، وتراوحت في أغلب أحوالها بين دينار ودينارين.

فقد ورد في المغني لابن قدامة: والمأخوذ منهم الجزية على ثلاث طبقات: فيؤخذ من أدونهم اثنا عشر درهماً، ومن أوسطهم أربعة وعشرون درهماً، ومن أيسرهم ثمانية وأربعون درهماً[٢].

---

(١) انظر: روضة الطالبين: النووي (٧/ ٤٨٧-٤٩٦)، شرح زاد المستقنع للشنقيطي (٥/ ٤٧٨)، الموسوعة الفقهية: الأوقاف الكويتية (١٥/ ١٧٥-١٧٦).

(٢) انظر: المغني لابن قدامة (١٠/ ٦٠١) - الخراج لأبي يوسف: (ص١٢٢).

وقال الماوردي: اختلف الفقهاء في أقل الجزية وأكثرها، فذهب الشافعي إلى أن أقلَّها مقدَّر بدينارٍ لا يجوز الاقتصار على أقلَّ منه من غنيٍّ ولا فَقيرٍ، وأكثرها غير مقدرٍ، وهو موكل إلى اجتهاد الإمام، فإن لم يُجيبوا إلى الزيادة على الدينار من غنيٍّ ولا فقيرٍ وجب على الإمام إجابتهم إليه، وإن طبقوا أنفسهم بالغنى والتوسط، وَالذي عاقدهم عليه، وقال أَبوحنيفةَ: هي مُقدَّةُ الأقَلِّ وَالْأَكْثَرِ بِحَسَب طَبقاتِهِمْ[١].

وقال الماوردي أيضاً: أخذ النبي ﷺ الجزية من أهل نجران، ومن مجوس هَجَرَ، وأخذها من أهل أَيْلَة، وهم ثلاثمائة رجلٍ أخذ منهم ثلاثمائة دينارٍ[٢].

هذا وإن الجزية في الإسلام هي ضريبة مالية تفرض على غير المسلمين من المقاتلين، ويضاف عليها أن الإسلام أعطى غير المسلمين المقيمين في مجتمعه الحق في أن يأخذوا من بيت مال المسلمين إذا ضاقت عليهم الأمور وأصبحوا غير قادرين على الكسب.

إنه من الواضح هنا أنه إن كان المسلمون خرجوا بقصد تحسين أوضاعهم المادية كما يدعي الحاقدون فإن الجزية لا تكفيهم أبداً؛ لقلتها من جهة، ولكثرة عدد المسلمين الفاتحين من جهة أخرى، فلا تستقيم الشبهة والحال هذا أبداً.

أصناف تسقط عنهم الجزية:

لو سلمنا جدلًا أن الإسلام اعتبر الجزية لا علاقة لها بالحماية، وأنها

(١) الحاوي الكبير للماوردي (١٤/ ٦٦٢).

(٢) الحاوي الكبير للماوردي (١٤/ ٦٣٠).

تشكل عبئاً مالياً على غير المسلمين لضخامة قدرها، فهل يجوز والحال هذا أن يعفي الإسلام أحداً من غير المسلمين من دفع الجزية طالما أنه لا يراعي فيهم إلًا ولا ذمة؟

أظن أن الإجابة عندها تتمثل في أنه لن يسقطها عن أحد، وكيف له أن يسقطها وهي بناء على المزاعم السابقة تمثل مورداً مالياً هاماً؟

إن الناظر في التشريع الإسلامي يجد أن الأمر ليس على النحو السالف؛ فالجزية في تفاصيلها لا تجب على جميع أهل الكتاب الخاضعين لدولة الإسلام وحكمه، بل إن هناك أصنافاً قد أعفاهم الإسلام من الجزية وأسقطها عنهم، فتسقط الجزية عن الفقراء والنساء والصغار والعبيد والمجانين والشيخ الفاني.

ودليل ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

قال الإمام القرطبي: قال علماؤنا رحمة اللَّه عليهم: والذي دل عليه القرآن أن الجزية تؤخذ من الرجال المقاتلين، لأنه تعالى قال: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ «فيقتضي ذلك وجوبها على من يقاتل، ويدل على أنه ليس على العبد وإن كان مقاتلاً، لأنه لا مال له، ولأنه تعالى قال: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟﴾. ولا يقال لمن لا يملك حتى يعطي. وهذا إجماع من العلماء على أن الجزية إنما توضع على جماجم الرجال الأحرار البالغين، وهم الذين يقاتلون دون النساء والذرية والعبيد

والمجانين المغلوبين على عقولهم والشيخ الفاني[١].

وقال الإمام مالك في الموطأ: مضت السُّنة أن لا جزية على نساء أهل الكتاب ولا على صبيانهم، وأن الجزية لا تؤخذ إلا من الرجال الذين قد بلغوا الحلم، وليس على أهل الذمة ولا على المجوس في نخيلهم ولا كرومهم ولا زروعهم ولا مواشيهم صدقة[٢].

وفي مختصر الخرقي: ولا جزية على صبي ولا زائل العقل ولا امرأة ولا فقير ولا شيخ فان ولا زمن ولا أعمى ولا على سيد عبد عن عبده إذا كان السيد مسلماً[٣].

ويقول الماوردي: ولا تجب الجزية إلا على الرجال الأحرارِ العقلاء، ولا تَجب على امرأةٍ ولا صبيٍّ ولا مجنونٍ ولا عبدٍ لأنهم أتباعٌ وذراريّ.. ولا تؤخذ الجزية من خُنثى مشكلٍ[٤].

وذكر نحو ذلك أيضا أبو يعلى في الأحكام السلطانية[٥].

وفي خراج أبي يوسف: «وإنما تجب الجزية على الرجال منهم دون النساء والصبيان... ولا تؤخذ الجزية من المسكين الذي يتصدق عليه، ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل، ولا من ذمي يتصدق عليه، ولا من مقعد، والمقعد والزمن إذا كان لهما يسار أخذ منهما، وكذلك الأعمى وكذلك

---

(١) تفسير القرطبي (٨/ ٧٢).
(٢) الموطأ للإمام مالك برواية يحيى الليثي (١/ ٢٧٩).
(٣) مختصر الخرقي (ص١٣٣).
(٤) الأحكام السلطانية للماوردي (١/ ٢٨٣).
(٥) الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء (ص١٥٤).

المترهبون الذين في الديارات إذا كان لهم يسار أخذ منهم. . . »[١].

وفي المغني بعد قول المصنف: «ولا جزية على صبي ولا زائل العقل ولا امرأة» قال: «لا نعلم بين أهل العلم خلافا في هذا، وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابه والشافعي وأبو ثور. وقال ابن المنذر: ولا أعلم عن غيرهم خلافهم»[٢].

وفي كشاف القناع: فلا تجب الجزية على صغير ولا امرأة. . ولا على خنثى. .ولا جزية على مجنون، ولا زمن، ولا أعمى، ولا شيخ فان، ولا راهب بصومعة، وهو الذي حبس نفسه وتخلى عن الناس في دينهم ودنياهم؛ لأنهم لا يقتلون فلم تجب عليهم الجزية كالنساء والصبيان. . . ولا جزية على عبد ولو لكافر[٣].

وفي الفتح يقول ابن حجر: واختلف السلف في أخذها من الصبى، فالجمهور قالوا: لا تؤخذ على مفهوم حديث معاذ، وكذلك لا تؤخذ من شيخ فان ولا زمِن ولا امرأة، ولا مجنون، ولا عاجز عن الكسب، ولا أجير، ولا من أصحاب الصوامع[٤].

وفي النهاية للطوسي من علماء الإمامية: «وهي واجبة على جميع الأصناف المذكورة إذا كانوا بشرائط المكلفين، وتسقط عن الصبيان والمجانين والبله والنساء منهم»[٥].

---

(١) الخراج (ص١٢٢).
(٢) المغني (١٠/ ٥٨١).
(٣) كشاف القناع عن متن الإقناع: منصور بن يونس البهوتي الحنبلي (٣/ ١٢٠).
(٤) فتح الباري: ابن حجر (٦/ ١٨٥).
(٥) النهاية للطوسي: (ص١٩٣).

وفي المبسوط من كتب الإمامية: «. . . وأما النساء والصبيان والبله والمجانين فلا جزية عليهم بحال. . . فأما المملوك فلا جزية عليه؛ لقوله: «لا جزية على العبيد». . . والشيخ الفاني والزمِن وأهل الصوامع والرهبان الذين لا قتال فيهم ولا رأي لهم تؤخذ منهم الجزية لعموم الآية وكذلك إذا وقعوا في الأسر جاز للإمام قتلهم، وقد روي أنه لا جزية عليهم[(١)].

وليس هذا فحسب بل إنه وصل الأمر إلى أن من وجبت عليه الجزية تسقط عنه عند العجز عن سدادها، يقول ابن القيم في كتابه أحكام أهل الذمة: تسقط الجزية بزوال الرقبة أو عجزها عن الأداء[(٢)].

ولنا أن نستنتج مما سبق أن الجزية في الإسلام إعلان خضوع لدولة الإسلام، وأنها بدل عن الحماية، وأن مقدارها قليل جداً لدرجة أنها أقل من فريضة الزكاة التي يخرجها المسلمون، وأن الإسلام أعفى أصنافاً كثيرة من أهل الذمة من إخراج الجزية، فأين هذا الدافع الاقتصادي المزعوم؟ وأين هذا الإكراه؟

شهادات غربية منصفة:

ولقد شهد أناس ليسوا من بني جلدة المسلمين على أن الجزية إنما أخذها المسلمون من غيرهم مقابل الحماية وأنها لم يكن فيها إجحاف بغير المسلمين.

يقول المستشرق توماس أرنولد فى كتابه: «الدعوة إلى الإسلام» متحدثاً

(١) المبسوط للطوسي (٢ / ٣٨ - ٤٢).

(٢) أحكام أهل الذمة: ابن القيم (١/ ٢٥٠). دار ابن حزم - الدمام - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ - ١٩٩٧.

عن نزاهة المسلمين مبطلاً ادعاءات المستشرقين المتعصبين حول قضية الجزية موضحاً أن الغرض من فرض الجزية على غير المسلمين لم يكن من أجل العقاب، إذ يقول: «ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين كما يريدنا بعض الباحثين على الظن لوناً من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام، وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة فى الجيش فى مقابل الحماية التى كفلتها لهم سيوف المسلمين»[(١)].

ويقول وول ديورانت في قصة الحضارة: «ولم تكن هذه الضريبة تُفرض إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح.. وكان الذميون يعفون في نظير هذه الضريبة من الخدمة العسكرية.. وكان لهم على الحكومة أن تحميهم»[(٢)].

ويشهد آدم متز في كتابه الحضارة الإسلامية فيقول: «فكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح، فلا يدفعها ذوو العاهات، ولا المترهبون وأهل الصوامع إلا إذا كان لهم يسار»[(٣)].

ويقول المؤرخ بنيامين كما نقل عنه آدم متز في الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: «إن اليهود في كل بلاد الإسلام يدفعون ديناراً واحداً»[(٤)].

---

(١) الدعوة إلى الإسلام : المستشرق توماس أرنولد، (ص٧٩).
(٢) قصة الحضارة (١٢/ ١٣٠-١٣١).
(٣) الحضارة الإسلامية (١/ ٩٦).
(٤) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (١/ ٩٦).

ويذهب مونتسكيو في كتابه «روح الشرائع» إلى أبعد من هذا حيث يرى أن بساطة الجزية عجلت بانتشار الفتوحات الإسلامية فيقول: إن هذه الإتاوات المفروضة كانت سبباً لهذه السهولة الغريبة التي صادفها المسلمون في فتوحاتهم، فالشعوب رأت - بدل أن تخضع لسلسلة لا تنتهي من المغارم التي تخيلها حرص الأباطرة - أن تخضع لأداء جزية خفيفة يمكن توفيتها بسهولة، وتسلمها بسهولة كذلك(١).

ويقول دربير في كتابه «المنازعة بين العلم والدين»: «إن المسلمين ما كانوا يتقاضون من مقهوريهم إلا شيئاً ضئيلاً من المال لا يقارن بما كانت تتقاضاه منهم حكوماتهم الوطنية(٢).

فهذه النقول السابقة لأناسٍ ليسوا بمسلمين إلا أنهم ما استطاعوا أن يحجبوا الحقيقة التي بهرتهم فلم يتمالكوا أن نطقوا بها وأعلنوها صريحة دون إكراهٍ أو محاباةٍ.

تعقيب:

فهذه أشهر الشبهات التي يثيرها المستشرقون ومن والاهم وللأسف ممن ينتسب إلى الإسلام، وهي شبهات قديمة لاكتها كثير من ألسنة الحقد والبغض حقداً على الإسلام وترديداً لما ذكره الأقدمون من أعداء الإسلام منذ نزول الوحي الإلهي في مكة المكرمة على قلب المصطفى ﷺ تصديقاً لقول المولى عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ

---

(١) روح الدين الإسلامي: عفيف طبارة، (ص٤٠٧).

(٢) روح الدين الإسلامي: عفيف طبارة، (ص ٤٠٦) والمقصود من مقهوريهم هنا أي المغلوبين وهو تعبير لا فقره عليه.

لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وهذه الشبهات تكشف عن أن المستشرقين مهما تباينت اتجاهاتهم من التراث الإسلامي، إلا أنهم يتحدون في الهدف النهائي المتمثل في القضاء على الإسلام ؛ بتشويه شرائعه وإسقاط قاماته وأعلامه من آل البيت والصحابة ومن خلفهم، وأنهم لم يستطيعوا التجرد من أهوائهم مهما ادعوا من حيادية في تناول التراث الإسلامي، كما تكشف أن هناك ممن ينتمي للإسلام مَن تبنى شبهات المستشرقين، وسار على دربهم خدمة لأغراض يقصدها.

وهذه الشبهات والهجمات رغم كثرتها ووقاحتها إلا أنها حمداً للَّه لم تستطع أن تنال من الإسلام، أو تحجب نوره عن العالمين، وتأثيرها لا يعدو أن يكون وقتياً عند من يجهل حقيقة هذا الدين العظيم وحال المسلمين الفاتحين، وسرعان ما تزول، فالإسلام أبقى، وصدق اللَّه القائل: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢][١].

وعلى ضوء ما سبق: فإن فتوحات الآل والأصحاب ومن تلاهم من المسلمين الفاتحين العاملين وفق نهج رب العالمين لهي بحقٍ درة على جبين كل مسلم، ولن يتسنى لأعدائنا أن يطمسوا رايتنا، أو يقوضوا بنيان تراثنا، أو يميتوا جانب الاقتداء والتأسي بالنبي ﷺ وآله وأصحابه الكرام، واللَّه غالب على أمره.

* * *

(١) راجع: من افتراءات المستشرقين على الأصول العقدية: عبد المنعم فؤاد، طبعة مكتبة العبيكان - الرياض، سنة ١٤٢٢هـ

الخاتمة

وبعد:

كنا في جولة مع القارىء الكريم حول موضوع تاريخ الفتوحات الإسلامية بين الآل والأصحاب، حقائقه وشبهاته، وتبين لنا من خلال عرضنا للموضوع عدة أمور هي كالتالي:

-إن مشاركة آل البيت والصحابة في الفتوحات الإسلامية جنباً إلى جنب من أكبر معالم العلاقة الطيبة التي سادت بينهم، والرحمة التي اكتنفتهم، والهدف المشترك الذي سعوا جميعاً له تاركين أوطانهم وأهليهم وأولادهم، مضحِّين في سبيله بالغالي والنفيس.

- إن الانتصارات العظيمة التي حققها الآل والأصحاب في فتوحاتهم رغم قلة عددهم وعُدَّتهم دليل على وحدة صفِّهم واتحاد كلمتهم وإخلاص نياتهم وسلامة سرائرهم وخلوِّ قلوبهم من السخائم والأحقاد تجاه بعضهم البعض، فانتصاراتهم من دلائل محبتهم ومودتهم بعضهم لبعض؛ لأنه لا يُمكَّن لجيش تسود الأحقاد والضغائن بين أفراده، ولا يمكن أن ينتصر على هذا الحال أبداً، ولو فُرض انتصاره مرة أو اثنتين فلن يكون هذا دأبه وديدنه، فكانت الانتصارات من دلائل طيب العلاقات، فسلامة النهايات فرع عن صحة البدايات.

- إن فتوحات الآل والأصحاب ومن تلاهم من المسلمين الفاتحين

العاملين وفق نهج رب العالمين كانت أبعد ما تكون عن القسوة والعنف، وأن الآل والأصحاب ما كانوا يريدون من فتوحاتهم تحقيق مآثر شخصية أو مكاسب دنيوية، كما يزعم الزاعمون ويتخرص الحاقدون.

- إن أعداء الإسلام ومن والاهم يعملون دون كلل أو ملل على إسقاط رايته ودحر كلمته ولن تغمض لهم عين ولن يهدأ لهم بال إلا بتحقيق هذه الغاية، واللَّه غالب على أمره.

- إن المنهج الاستشراقي في تناوله للتاريخ الإسلامي لا يهتم مطلقا بذكر الجوانب المضيئة فى الحضارة الإسلامية، وإنما يهتمون اهتماما بالغا بالجوانب الضعيفة فى هذه الحضارة ومحاولة إبرازها ونشرها بكل السبل.

- إن هناك فئة تنتمي للإسلام قد تلقت أباطيل المستشرقين وإفكهم واستساغته، بل ودافعت عنه وعملت دون كلل أو ملل على شيوعه وإظهاره، وكانوا بهذا آداة طيعة في خدمة أهداف المستشرقين وتحقيق مآربهم.

- إنه حدث تمازج خطير بين المستشرقين وبعض من ينتمي للإسلام وكان من نتائج هذا التمازج الأثر والتأثر بين المستشرقين وأذنابهم، فنرى أذناب المستشرقين مرة ينقلون عنهم شبهاتهم، ومرة أخرى ينقل المستشرقون عن أذنابهم.

وبعد فهذا جهد المقل وهو عرضة للخطأ والصواب، فما كان في بحثي هذا من صواب فمن اللَّه، وما كان فيه من خطأ أو تقصير فمني ومن الشيطان، واللَّه ورسوله منه براء.

واللَّه المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم

وصلَّى اللَّه وسلَّم على الرحمة المهداة والسراج المنير

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين

❊ ❊ ❊

المراجع

١- الأبطال المستشرق توماس كارلايل ترجمة أ. محمد السباعي ط٤: دار الرائد العربي بيروت لبنان ، سنة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.
٢- الأحكام السلطانية أبو يعلي الفراء، طبع مؤسسة الرسالة- د ت.
٣- الأحكام السلطانية: أبو الحسن الماوردي، ط١: دار ابن قتيبة - الكويت، سنة ١٩٨٩م.
٤- أحكام القرآن: أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، ط١: دا ر الكتب العلمية- بيروت، سنة ١٩٩٥م.
٥- أحكام أهل الذمة: ابن القيم، ط١: دار ابن حزم - الدمام ، سنة ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م.
٦- الاستشراق والتاريخ الإسلامي- القرون الإسلامية الأولى-: فاروق عمر، ط١: الأهلية للنشر والتوزيع، سنة ١٩٨٨م.
٧- الاستشراق والدراسات الإسلامية عبد القهار داود ، ط١: دار الفرقان، سنة ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
٨- الاستيعاب في معرفة الأصحاب: للإمام ابن عبد البر، ط١:دار الجيل، بيروت، سنة ١٤١٢هـ.
٩- أُسد الغابة: للإمام أبي الحسن علي بن أبي كرم المعروف بابن الأثير، دار الكتاب العربي- بيروت، د ت.
١٠- الإسلام في مرآة الفكر الغربي د.محمود حمدي زقزوق، ط٤:دار الفكر العربي-بيروت- سنة ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.
١١- الإسلام فى مواجهة التحديات د.محمد عمارة، ط١: نهضة مصر، سنة ٢٠٠٧م.

١٢- الإسلام وحركة التاريخ: أنور الجندي، مطبعة الرسالة - القاهرة سنة ١٩٦٨م.
١٣- الإسلام، أحمد شلبي، دار نهضة مصر- القاهرة، د ت.
١٤- الإصابة في تمييز الصحابة: للإمام أحمد بن حجر العسقلاني، ط١: دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤١٠هـ.
١٥- إعلام الموقعين عن رب العالمين: للإمام محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، سنة ١٣٨٨هـ -١٩٦٨م.
١٦- أعلام الهداية: الإمام الحسن المجتبى، المجمع العالمي لآل البيت، د ت.
١٧- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، دار الكتب العلمية- بيروت، د ت.
١٨- أعيان الشيعة: محسن الأمين، مطبعة ابن زيدون، دمشق، د ت.
١٩- افتراءات على الإسلام والمسلمين: أمير عبد العزيز، دار السلام- القاهرة، سنة ١٤٢٢هـ -٢٠٠٢م.
٢٠- الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول اللَّه والثلاثة الخلفاء: سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، ط٣: عالم الكتب - بيروت - ١٤١٧هـ.
٢١- الآل و الصحابة محبة وقرابة: علي بن حمد التميمي، ط٣: مبرة الآل والأصحاب- الكويت، سنة ١٤٣١هـ -٢٠١٠م.
٢٢- الأمالي: لأبي جعفر محمد بن علي «الصدوق» ط١: مؤسسة البعثة، طهران، سنة ١٤١٧هـ.
٢٣- انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه، د. محمد فتح اللَّه الزيادى، ط: دار قتيبه بيروت لبنان، سنة ١٤١١هـ ١٩٩٠م.
٢٤- الانحرافات الكبرى: سعيد أيوب، ط١: دار الهادي - بيروت سنة ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.
٢٥- أنساب الأشراف: للمؤرخ أحمد بن يحيى البلاذري، ط١: مؤسسة

الأعلمي، بيروت، سنة ١٣٩٤هـ -١٩٧٤م.
٢٦- الأنساب: عبد الكريم بن منصور السمعاني: ط١: دار الجنان - بيروت، سنة ١٩٨٨م.
٢٧- إنسانية الإسلام: للمستشرق مارسيل بوزار ترجمة د. عفيف دمشقية، طبعة دار الآداب بيروت- لبنان سنة ١٩٨٠م.
٢٨- الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف على مذهب الإمام أحمد بن حنبل: أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د ت.
٢٩- بحار الأنوار: محمد باقر المجلسي، ط٢: مؤسسة الوفاء، بيروت، سنة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٣٠- بحث بعنوان: (الفتوحات بين دوافعها الإسلامية ودعاوى المستشرقين) د. جميل عبد اللَّه المصري، بحث منشور فى مجله المنهل السعودية العدد السنوي رقم (٤٧١).
٣١- البداية والنهاية: للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير، دار إحياء التراث العربي - بيروت، سنة ١٤٠٨هـ، م.١٩٨٨
٣٢- بين الإسلام والغرب ضراوة أحقاد ومرارة حصاد، د. علي محمد عبد الوهاب، ط١: دار كابى للنشر، القاهرة، سنة ١٤١٦هـ. ١٩٩٦م.
٣٣- تاج العروس من جوهر القاموس: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، دار الفكر، بيروت، سنة ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
٣٤- تاريخ ابن خلدون: مؤسسة الأعلمي- بيروت- لبنان، سنة ١٣٩١هـ- ١٩٧١م.
٣٥- تاريخ الإسلام: للإمام أبي عبد اللَّه محمد بن أحمد الذهبي، ط١: دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
٣٦- تاريخ الخلفاء الراشدين: محمد سهيل، ص٣٩، ط١: دار النفائس- بيروت، سنة ٢٠٠٣م.

٣٧- تاريخ الشعوب الإسلامية المستشرق كارل بروكلمان ترجمة أ.نبيه أمين فارس، أ. منير البعلبكى ط دار العلم للملايين بيروت لبنان الطبعة الثامنة مارس عام ١٩٧٩م.
٣٨- تاريخ الطبري «تاريخ الأمم والملوك»: للإمام محمد بن جرير الطبري، ط٤: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- بيروت، سنة ١٤٠٦هـ -١٩٨٣م.
٣٩- التاريخ الكبير: للإمام البخاري، دار الفكر، بيروت، د ت.
٤٠- تاريخ اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب، دار صادر، بيروت، د ت.
٤١- تاريخ جرجان: حمزة بن يوسف السهمي، ط٤: عالم الكتب- بيروت، سنة ١٤٠٧هـ.
٤٢- تاريخ مدينة دمشق: للإمام الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن «ابن عساكر» دار الفكر - بيروت، سنة ١٤١٥ هـ.
٤٣- التآمر على التاريخ الإسلامي أ.أبو الوفا أحمد عبد الأخر الكتاب الأول مراجعة وتقديم د.محمد كامل البنا ، ط١: مطابع الأهرام بالقاهرة سنة١٤١٠هـ -١٩٩٠م.
٤٤- التبشير والاستعمار في البلاد العربية د.مصطفى الخالدي، د.عمر فروخ، ط٢: المكتبة العصرية- بيروت، سنة ١٩٥٧م.
٤٥- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: للإمام محمد بن عبد الرحمن المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت.
٤٦- تفسير القرآن العظيم: للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير، دار المعرفة، بيروت، سنة ١٤١٢هـ.
٤٧- تفسير القرطبي«الجامع لأحكام القرآن»: دار إحياء التراث العربي - بيروت لبنان، د ت.
٤٨- تهذيب الكمال: للحافظ جمال الدين يوسف المزي، ط٤: مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة ١٤٠٦هـ.

٤٩- الثقات: للإمام ابن حبان، ، ط١: مؤسسة الكتب الثقافية، سنة ١٣٩٣هـ.
٥٠- الجامع الصحيح: للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابو ري، دار الجيل، بيروت، د ت.
٥١- الجامع الصحيح المختصر للإمام: محمد بن إسماعيل البخاري، ط٣: دار ابن كثير - بيروت - سنة ١٤٠٧هـ.
٥٢- جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام: أبو عبد اللَّه محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، دار العروبة - الكويت، ط٢: ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧م.
٥٣- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: الإمام ابن تيمية، ط١: دار العاصمة - الرياض- سنة ١٤١٤هـ.
٥٤- الحاوي الكبير:أبو الحسن الماوردي، دار الفكر . بيروت، د ت.
٥٥- حضارة العرب: غوستاف لوبون، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، د ت.
٥٦- حقائق الإسلام في مواجهة حملات المشككين، إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة.
٥٧- حِلية الأولياء وطبقات الأصفياء: للإمام أبي نعيم الأصفهاني، ط١: دار الجيل، بيروت، د س.
٥٨- الخصائص الفاطمية، محمد باقر الكجوري، ط١: مطبعة شريعت، قم.
٥٩- دائرة المعارف الإسلامية تصنيف أصدرها أئمة المستشرقين فى العالم «النسخة العربية» ط. دار المعرفة- بيروت- لبنان ، د ت.
٦٠- الدر المنثور: جلال الدين السيوطي، دار الفكر - بيروت، سنة ١٩٩٣م، د ت.
٦١- دراسات في الاستشراق ورد شبه المستشرقين حول الإسلام د.علي علي شاهين ط١: دار الطباعة المحمدية بالقاهرة سنة ١٤١٢هـ١٩٩٢م.

٦٢- دراسات فى الفكر الإسلامى المعاصر: محمد عبد اللَّه الشرقاوى، محمد السيد الجليند، ط. دار الثقافة العربية، سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، د ت.
٦٣- الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة: على خان المدنى، نشر مكتبة بصيرتي- قم، سنة ١٣٩٧هـ، د ت.
٦٤- الدرر السنية: علماء نجد، تحقيق: عبد الرحمن قاسم، ط٦: سنة ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
٦٥- الدعوة إلى الإسلام بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية: توماس أرنولد، ط٣: مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة سنة ١٩٧٠م.
٦٦- دفاع عن الرسول ضد الفقهاء والمحدثين: صالح الورداني، نشر تريدنكو - بيروت ط:١ سنة ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
٦٧- دلائل النبوة: للإمام البيهقي، ط١: دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م.
٦٨- دور الجهاد فى نشر الإسلام: معاذ عبد اللَّه أبو غزاله، ط١: دار الطباعة المحمدية بالقاهرة، سنة ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.
٦٩- ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى: أحمد بن عبد اللَّه الطبري، مكتبة القدسي- القاهرة سنة ١٣٥٦هـ.
٧٠- رد المحتار على الدر المختار: (حاشية ابن عابدين) محمد أمين بن عابدين، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، د ت.
٧١- الروض الأُنف: الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد اللَّه السهيلي، دار الكتب العلمية- بيروت، د ت.
٧٢- الروض النضير في معنى حديث الغدير: فارس حسون كريم، ط١: مؤسسة أمير المؤمنين- قم، سنة ١٤١٩هـ.
٧٣- روضة الطالبين: يحيي بن شرف النووي، دار الكتب العلمية- بيروت، د ت.

٧٤- زاد المسير في علم التفسير: للإمام ابن الجوزي، ط١: دار الفكر، بيروت، سنة ١٤٠٧هـ.
٧٥- سماحة الإسلام د.أحمد محمد الحوفى، إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ط. مطابع الأهرام التجارية بالقاهرة، سنة ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م، د ت.
٧٦- سنن ابن ماجه: للإمام أبي عبد اللَّه محمد بن يزيد القزويني، دار الفكر، بيروت، د ت.
٧٧- سنن أبي داود: للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الكتاب العربي، بيروت، د ت.
٧٨- سنن الترمذي «الجامع الصحيح»: للإمام محمد بن عيسى الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت.
٧٩- سنن الدارقطني: للإمام أبي الحسن علي بن عمر الدارقطني البغدادي، دار المعرفة - بيروت، سنة ١٣٨٦ - ١٩٦٦م، د ت.
٨٠- سنن الدارمي: للإمام عبد اللَّه الدارمي، ط١: دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٤٠٧هـ.
٨١- السنن الكبرى: للإمام أبي بكر أحمد بن علي البيهقي، ط١: مجلس دائرة المعارف النظامية، سنة ١٣٤٤هـ.
٨٢- سنن النسائي: للإمام أحمد بن شعيب النسائي، ط٢: مكتبة المطبوعات الإسلامية-حلب، سنة ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م.
٨٣- سيد رسل اللَّه وأباطيل خصومه: عبد الصبور مرزوق، إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة (١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م).
٨٤- سير أعلام النبلاء: للإمام شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١: سنة ١٤١٣هـ -١٩٩٣م.
٨٥- السيرة الحلبية: الحلبي، دار المعرفة، بيروت، سنة ١٤٠٠هـ.

٨٦- السيرة النبوية: للإمام ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، سنة ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م، د ت.
٨٧- السيرة النبوية: للإمام بن هشام الحميري، طبعة المدني- القاهرة، سنة ١٣٨٣هـ-١٩٦٣م.
٨٨- السيرة النبوية: محمد بن إسحاق بن يسار، طبعة معهد الدراسات والأبحاث، د ت.
٨٩- شبهات المستشرقين حول التراث الإسلامي خلال النصف الأول من القرن العشرين عرض وتحليل ونقد، د.ابراهيم عبد الرحمن، كلية أصول الدين والدعوة بالقاهرة.
٩٠- شرح النووي على صحيح مسلم: للإمام يحيى بن شرف النووي، ط٢: دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٤٠٧هـ.
٩١- شرح زاد المستقنع للشنقيطي الموسوعة الفقهية: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت.
٩٢- شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد المعتزلي، دار إحياء الكتب الدينية، سنة ١٣٧٩هـ -١٩٥٩م.
٩٣- الصحاح في اللغة: إسماعيل بن حماد الجوهري، ط٤: دار العلم للملايين- بيروت، سنة ١٩٩٠م.
٩٤- صحيح ابن حبان: للإمام محمد بن حبان البستي، ط٢:مؤسسة الرسالة- بيروت، سنة ١٤١٤هـ -١٩٩٣م.
٩٥- صحيح وضعيف تاريخ الطبري: محمد بن طاهر البرزنجي وآخرون ، ط١: دار ابن كثير- دمشق- بيروت، سنة ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
٩٦- الطبقات الكبرى: للإمام محمد بن سعد، دار صادر، بيروت، د ت.
٩٧- طبقات خليفة: خليفة بن خياط العصفري، دار الفكر، بيروت، سنة ١٤١٤هـ -١٩٩٣م.

٩٨- طرائف المقال: علي البروجردي، ط١: مطبعة بهمن- قم، نشر مكتبة المرعشي النجفي ، سنة ١٤١٠هـ.
٩٩- ظاهرة انتشار الإسلام، محمد فتح اللّه الزيادي، ط. المنشأة العامة للنشر والتوزيع، ط١: سنة ١٩٨٣م.
١٠٠- العقيدة والشريعة في الإسلام، المستشرق جولد زيهر- ترجمة د.محمد يوسف موسى، د.عبد العزيز عبد الحق، د.علي حسن عبد القادر، ط. دار الرائد العربي- بيروت- لبنان.
١٠١- علم التاريخ ومناهج المؤرخين: صائب عبد الحميد، ط١: شركة الغدير، سنة ٢٠٠١م.
١٠٢- عمدة القاري شرح صحيح البخاري: للإمام بدر الدين العيني، دار الفكر، بيروت، سنة ١٤٢٢هـ -٢٠٠٢م.
١٠٣- العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي، دار الرشيد، العراق، ط١: سنة ١٩٨١م.
١٠٤- الفتح الإسلامي: د.علي محمد الصلابي، ط١: مكتبة الإيمان - المنصورة - مصر، د ت.
١٠٥- فتح الباري بشرح صحيح البخاري: للإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني، ط١:دار المعرفة، بيروت.
١٠٦- فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، د ت.
١٠٧- الفتوح، أحمد بن أعثم الكوفي، ط١: دار الأضواء- بيروت، سنة ١٤١١هـ.
١٠٨- الفتوح الإسلامية عبر العصور: عبد العزيز العمري، ط٢: دار أشبيليه، سنة ١٤١٩هـ.
١٠٩- فتوح البلدان للبلاذري: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د ت.
١١٠- فتوح البلدان: أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، مكتبة النهضة

المصرية، د ت.
١١١- فتوح مصر وأخبارها، القرشي المصري، ط١: دار الفكر- بيروت، سنة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
١١٢- الفتوحات الإسلامية: صالح العلي، ط١: شركة المطبوعات للتوزيع- بيروت- سنة ٢٠٠٤م.
١١٣- الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د ت.
١١٤- فصل الخطاب في سيرة ابن الخطاب: محمد علي الصلابي، ط٢: دار التوزيع- القاهرة، سنة ٢٠٠٢م.
١١٥- فقه السنة: الشيخ: السيد سابق، ط١: دار الفتح للإعلام العربي - القاهرة، سنة ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.
١١٦- في التاريخ الإسلامي: شوقي أبو خليل، دار الفكر - دمشق، سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
١١٧- قادة الفتح الإسلامي: قادة فتح العراق والجزيرة: محمود شيت خطاب، دار الفكر، ط٤: سنة ٢٠٠٢م.
١١٨- قصة الحضارة: ول ديورانت ترجمة محمد بدران، ط٣: الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية بالقاهرة، سنة ١٩٧٤م.
١١٩- الكامل في التاريخ: للعلامة عز الدين علي بن أبي الكرم «ابن الأثير» دار صادر- بيروت، سنة ١٣٨٥هـ -١٩٦٥م.
١٢٠- كتاب الخراج لأبي يوسف، ط. دار المعرفة - بيروت- لبنان، سنة ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
١٢١- الكتاب المقدس: (الفانديك) ط. دار الكتاب المقدس، القاهرة، سنة ٢٠٠٤م.
١٢٢- كشاف القناع عن متن الإقناع: منصور بن يونس البهوتي الحنبلي، ط.دار الفكر- بيروت سنة ١٤٠٢هـ.

١٢٣- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: المتَّقي الهندي، ط.مؤسسة الرسالة - بيروت، سنة ١٩٨٩.
١٢٤- الكنز اللغوي: لابن السكيت الأهوازي، ط.المطبعة الكاثوليكية، بيروت، د ت.
١٢٥- لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور، ط.دار صادر، بيروت، د ت.
١٢٦- لماذا يزيفون التاريخ ويعبثون بالحقائق؟: إسماعيل الكيلاني، ط١: المكتب الإسلامي بيروت لبنان، سنة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
١٢٧- المبسوط: محمد بن الحسن الطوسي، ط.المكتبة المرتضوية - طهران، سنة ١٣٨٧هـ.
١٢٨- مجلة الأزهر السنة (٧٩) الجزء (١١) ذو القعدة ١٤٢٧هـ ، ديسمبر ٢٠٠٦م.
١٢٩- مجلة الأزهر:السنة (٧٥) الجزء الأول العدد المحرم ١٤٠٢ هـ إبريل ٢٠٠٢م.
١٣٠- مجلة رسالة الإسلام: الصادرة عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة.
١٣١- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: للحافظ أبي بكر الهيثمي، ط.دار الفكر، بيروت، سنة ١٤١٢هـ.
١٣٢- مجموع الفتاوي: للإمام ابن تيمية، ط٣: دار الوفاء، سنة ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
١٣٣- محمد عمارة: نظرة جديدة إلى التراث، دار الرشاد بالقاهرة ، د ت.
١٣٤- مختار الصحاح: محمد بن عبد القادر الرازي، مكتبة لبنان ناشرون- بيروت، سنة ١٤١٥هـ -١٩٩٥م.
١٣٥- مختصر الخرقي من مسائل الإمام أحمد بن حنبل: عمر بن حسين الخرقي، الناشر المكتب الإسلامي- بيروت، سنة ١٤٠٣هـ.

١٣٦- مختصر تاريخ دمشق: محمد بن مكرم بن منظور، ط١: دار الفكر المعاصر، سنة ١٩٨٠م.
١٣٧- المرتضى: أبو الحسن علي الحسني الندوي، ط٢: المجمع الإسلامي العالمي- الهند، سنة ٢٠٠٣م.
١٣٨- المستدرك على الصحيحين: للإمام محمد بن محمد الحاكم النيسابو ري، ط.دار المعرفة- بيروت، سنة ١٤٠٦هـ.
١٣٩- المستشرقون والإسلام: زكريا هاشم، ط.المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، سنة ١٩٦٥م.
١٤٠- مسند البزار: للإمام أبي بكر أحمد بن عمرو البزار، ط.مؤسسة علوم القرآن- بيروت، د ت.
١٤١- المسند: للإمام أحمد بن حنبل الشيباني، ط. مؤسسة قرطبة- القاهرة، د ت.
١٤٢- المصنَّف: للإمام أبي بكر عبد الرزاق الصنعاني، ط٢: المكتب الإسلامي- بيروت، سنة ١٤٠٣هـ.
١٤٣- المصنَّف: للإمام عبد اللَّه بن محمد بن أبي شيبة، ط١: مكتبة الرشد- الرياض، سنة ١٤٠٩هـ.
١٤٤- مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى: ابن النجار الحنبلي، ط. المكتب الإسلامي - دمشق، سنة ١٩٦١م.
١٤٥- المعارف: ابن قتيبة، ط.دار المعارف - القاهرة، د ت.
١٤٦- معالم الفتن: سعيد أيوب، ط. مجمع إحياء الثقافة- قم، سنة ١٤١٦هـ.
١٤٧- معاوية بن أبي سفيان، علي محمد الصلابي، ط. مكتبة الإيمان - المنصورة - مصر، د ت.
١٤٨- المعجم الأوسط: أبو القاسم الطبراني، ط. دار الحرمين- القاهرة، سنة ١٤١٥هـ.

١٤٩- معجم البلدان: ياقوت الحموي، ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت سنة ١٣٩٩ هـ -١٩٧٩م.
١٥٠- معجم الرجال والحديث: محمد حياة الأنصاري، بدون ذكر هوية الطباعة.
١٥١- المعجم الكبير: أبو القاسم الطبراني: ط٢: مكتبة العلوم والحكم- الموصل، سنة ١٤٠٤هـ- ١٩٨٣م.
١٥٢- معجم رجال الحديث - السيد الخوئي، ط٥: سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
١٥٣- معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، ط٢:مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، سنة ١٣٢٨هـ-١٩٦٩م.
١٥٤- معرفة الصحابة: للإمام أبي نعيم الأصبهاني، ط١: دار الوطن - الرياض، سنة ١٤١٩هـ -١٩٩٨م.
١٥٥- المغني: عبد اللَّه بن أحمد بن قدامة المقدسي، ط١:دار الفكر - بيروت، سنة ١٤٠٥هـ.
١٥٦- مفاهيم حول الآل والأصحاب: د.راشد سعد العليمي - د.أحمد سيد أحمد علي، ط١: مبرة الآل والأصحاب بالكويت، سنة ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
١٥٧- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني. المكتبة التوفيقية، القاهرة، د ت.
١٥٨- من افتراءات المستشرقين على الأصول العقدية: عبد المنعم فؤاد، ط. مكتبة العبيكان- الرياض، سنة ١٤٢٢هـ-.
١٥٩- منهج كتابة التاريخ لماذا وكيف؟ د.جمال عبد الهادي د.وفاء محمد رفعت جمعة، ط١: دار الوفاء بالمنصورة، سنة ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.
١٦٠- المهذَّب في الفقه الشافعي: أبو إسحق براهيم بن علي بن يوسف الشيرازي، دار الفكر- بيروت، د ت.

١٦١- مواقف الشيعة: الأحمدي الميانجي، ط١: مؤسسة النشر الإسلامي- قم، سنة ١٤١٦هـ.
١٦٢- الموسوعة الإسلامية العامة: إعداد وطبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - مصر.
١٦٣- الموسوعة الإسلامية العامة: إعداد وطبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - مصر.
١٦٤- موسوعة التاريخ الإسلامي: أحمد شلبي، ط٧: مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٩٧٧م.
١٦٥- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: إعداد وطباعة الندوة العالمية للشباب الإسلامي تحت إشراف د. مانع بن حماد الجهني.
١٦٦- الموطأ للإمام مالك برواية يحيى الليثي: دار إحياء التراث العربي - مصر، د ت.
١٦٧- الموطأ: للإمام مالك بن أنس، ط١: مؤسسة زايد بن سلطان، سنة ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.
١٦٨- نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي، د. عبد الرحمن الحجي، ط٣: مكتبة الصحوة، سنة ١٩٧٩م.
١٦٩- النهاية في غريب الحديث: ابن الأثير، ط. مؤسسة إسماعيليان، قم، د ت.
١٧٠- نهج البلاغة: خطب منسوبة للإمام علي بن أبي طالب، جمع الشريف الرضي، ط١: دار الذخائر، قم، سنة ١٤١٢هـ.
١٧١- الوافي بالوفيات: للصفدي، ط. دار إحياء التراث، بيروت، سنة ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.

بين يدي الكتاب

بين يديك أخي القارئ الكريم بُعداً جديداً للعلاقة الحميمة بين الآل والأصحاب، فبعد أن ألقينا الأضواء على أبعاد مختلفة لهذه العلاقة الحميمة مثل: الأسماء والمصاهرات بين الآل والأصحاب، نلقي الآن الضوء على هذه العلاقة الحميمة ولكن هذه المرة من بُعد آخر، ومن خلال زاوية أخرى ألا وهي زاوية الفتوحات الإسلامية التي خاضها الآل والأصحاب معا واختلطت فيها دماؤهم وآمالهم وعرقهم.

حيث يكشف هذا الكتاب عن مشاركة الآل والأصحاب في الفتوحات الإسلامية باعتبارها من أصدق الدلائل وأوضح المعالم على تلك العلاقة القوية التي كانت بينهم، والرحمة التي اكتنفتهم ، والهدف المشترك الذي سعوا جميعاً له ، وإلا فلم كانت هذه النفرة القوية والجماعية التي صدرت من الآل والأصحاب والتي قطعوا فيها الأميال الطوال مثقلين بالأحمال تاركين الأهل والعيال؟ أتراهم دخلوا المعارك وكل منهم يتمنى الموت لصاحبه؟ أهذه أخلاق جيش يُمكَّن له وينتصر في بلاد لم يألفها وسهول لم يعرفها؟ أهذا أمر يُعقل فضلًا عن أن يستقر ويُقبل؟ فكانت المشاركات والانتصارات من دلائل طيب العلاقات، فسلامة النهايات فرع عن صحة البدايات.